مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة السابعة والعشرون . العدد ٢٩٩ . رجب ١٤٣٣ هـ . يونيو ٢٠١٢ م

أيديولوجيا المجتمع السعودي والتغيير

الإسلاميون... وإدارة التعددية

النجاة من كمين الشبهات

تفجيرات لندن 2012

الانتخابات المصرية...

رئيس أم مرؤوس

مستشفى أبها الخاص
Abha Private Hospital

استعادة مقاييس الصحة والجمال

الآن أقرب من أي وقت مضى..

وحدة جراحات السمنة

بإشراف الدكتور محمد با وهاب
استشاري جراحة السمنة

وحدة جراحة التجميل والحروق

بإشراف الدكتور أيمن فرحات
استشاري جراحة التجميل

www.aph.med.sa

الرضيع

طفلي الرضيع

خصائصة ـ صحته ـ تربيتة

مشروعنا وظف مختلف المتخصصين

مشروعنا:

- بناء علمي منهجي.
- تنويع في شكل المعلومات.
- توظيف المتخصصين بكافة مجالاتهم في مراحل المشروع.
- توسيع دائرة المشرفين في منتجات المشروع.
- تنويع بيئات المشاركين وتجاربهم.

www.albayan.co.uk

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

YouTube | | |

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA1380000296608010021007

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩ هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

الافتتاحية

٤ **الإسلاميون... وإدارة التعددية**
التحرير

العقيدة والشريعة

٨ **اليقين روح أعمال القلوب**
د. هاني بن عبد الله الجبير

١٢ **من معالم الانحراف الأصولي**
مشاري الشثري

الغرب: قراءة عقدية

١٦ **«تفجيرات لندن ٢٠١٢م» بين الحقيقة والوهم**
فيصل بن علي الكاملي

بلِّغوا عني ولو آية

٢٠ **وقفات مع حديث «أحصوا لي كم يلفظ الإسلام»**
د. عمر المقبل

قضايا دعوية

٢٢ **المؤشرات: قوة وضبط**
عاصم محمد حسن

٢٨ **فقه التدرج وإشكالية التطبيق**
د. أمين الدميري

قضايا تربوية

٣٢ **الثقة واليقين برب العالمين**
عبد العزيز الشامي

معركة النص

٣٦ **ضغط اللحظة الراهنة**
فهد بن صالح العجلان

ملف العدد

٤٠ **من أحكام السياسة الشرعية في الانتخابات الرئاسية المصرية**
محمد بن شاكر الشريف

٤٦ **الإسلاميون .. هل يقدرون على الحكم؟**
أحمد فهمي

٥٠ **ماذا يريد العسكر من الرئيس؟**
حسن الرشيدي

٥٦ كيف يراقب الصهاينة مستقبل مصر بعد الانتخابات الرئاسية؟ د. عدنان أبو عامر

٥٨ حوار مع الدكتور محمد يسري
حاوره: جلال الشايب

قصة قصيرة

٦٤ الصعود للقاع
محمود حسين عيسى

المسلمون والعالم

٦٧ المشروع السُّنِّي في سباق المشاريع
د. عبد العزيز كامل

٧٢ الشريعة في دستور تونس شعار المرحلة
فتحي السعيدي

٧٥ تعقيدات الأزمة السورية وآفاق الحل
محمد سليمان الزواوي

٧٨ مرصد الأحداث جلال سعد الشايب

نص شعري

٨٣ سوريَة... فتنةُ الحُسْنِ والكبرياء
فهد بن علي العبودي

قراءة

٨٤ أيديولوجيا المجتمع السعودي والتغيير قراءة في كتاب (مقاومة التغيير في المجتمع السعودي)
د. محمد بن عبد الله السلومي

الباب المفتوح

٩٢ نظرات تربوية في الخلاف
همام بن عبدالرحمن الحارثي

الورقة الأخيرة

٩٥ النجاة من كمين الشبهات
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

إعادة البناء

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.. وبعد:

فها هي ذي عقود متتابعة مرت على بعض الدول العربية تحالف فيها الاستبداد السياسي مع المؤسسات والأحزاب العلمانية والليبرالية التي مسخت هوية المجتمع وشوَّهت قيمه وأخلاقه؛ فهل ستحسم الانتخابات السياسية وصعود الإسلاميين في بعض الدول معركة الهوية بسهولة؟!

إنَّ ثمة حقيقة مهمة وهي أنَّ النظم الاستبدادية جذَّرت المبادئ والقيم العلمانية في معظم مفاصل الدولة، وفرضتها بكل جبروت في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ونحوها، ورعتها بمنظومة متكاملة من التشريعات والقوانين، ومن المهم أن يستحضر دعاة الإصلاح أمرين في غاية الأهمية:

الأول: أنَّ الأحزاب العلمانية والليبرالية لن تقف مكتوفة الأيدي وهي تنظر إلى تلك القلاع العلمانية التي عاشوا في كنفها لعقود طويلة تتهاوى وتترنح بحجة الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة؛ بل سيفتعلون جميع العراقيل لتعطيل مسيرة الإصلاح، وسيجدون دعماً ونصرة من أسيادهم في الغرب.

الثاني: أنَّ الفساد الذي اصطنعته النظم والأحزاب العلمانية ليس أشواكاً سطحية متناثرة يمكن إماطة أذاها عن الطريق بسهولة، بل هي أشجار نكدة ترسخت جذورها في أعماق الدولة ومؤسساتها وفي محاضن معظم المجتمع، وامتدت أغصانها لتؤثر على الإعلام والتعليم والفكر والثقافة، وهذا يعني أن تحديات الإصلاح والتنمية لا ينبغي النظر إليها بعين المرحلة العابرة؛ بل ينبغي أن تتحول إلى مشاريع علمية ارتيادية (إستراتيجية) طويلة النفس، محكمة الدراسة، تعيد بناء المجتمع عقدياً وتربوياً وثقافياً، وهذا عمل كبير جبار، ولكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأمل قول عمر بن عبد العزيز – رحمه الله –: (إن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه؛ ما قام لهم دين ولا دنيا)[1].

(١) البداية والنهاية: (٩/ ٣٢٩).

الإسلاميون... و إدارة التعددية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله:

قال - تعالى -: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] قال ابن جرير الطبري في تفسير الآية: «ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ فتضعفوا وتجبنوا، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وتذهب قوتكم وبأسكم، فتضعفوا ويدخلكم الوهن والخلل»..

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها، فجئت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاكما محسن، ولا تختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».. رواه البخاري..

الفشل، الوهن، الخلل، الهلاك.. إنها الكلمات التي تصف حال الاختلاف عندما تنتشر في أوساط المسلمين وبين صفوفهم، إنها تلك الحال التي قلَّ أن ينجو منها مجتمعٌ مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، إنها تلك الآفة التي لم يسلم منها حتى التيارات الإسلامية التي ترفع شعار الدعوة إلى الله وتطبيق شريعته وتحكيم دينه في الأرض..

إن نماذج الحكم التي قدَّمها الإسلاميون في العقود الماضية، تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، لكن محاولات الوصول إلى الحكم يصعب حصرها لكثرتها، وهذا يعني أن نسبة الإخفاق مرتفعة للغاية، بل تكاد تصبح هي الأصل..

فما أسباب الإخفاق؟

ماذا حدث في أفغانستان بعد تحرير كابل من الاحتلال السوفيتي؟ وماذا حدث في الجزائر عندما انقلب الجيش على نتائج الانتخابات التي أظهرت فوز الجبهة؟ وماذا حدث في السودان، عندما تصارع شريكا الحكم فيما بينهما من ناحية، ومع بقية التيارات الإسلامية من ناحية أخرى؟ ماذا حدث في العراق في مرحلة ما بعد الاحتلال؟

إن المتأمل في النماذج الإسلامية المعاصرة للوصول إلى الحكم يمكن أن يلحظ عدة أنماط ثابتة متكررة في أغلب النماذج، وأهمها:

١ تعدد التيارات الإسلامية المشاركة في محاولة الوصول للحكم.

٢ عجز كثير من التيارات عن صياغة رؤية متوازنة لبناء علاقات إيجابية فيما بينها لتحقيق الأهداف المشتركة.

٣ سبب الإخفاق الأكثر تكراراً هو تصاعد الخلاف بين الإسلاميين وصولاً إلى مستوى الصراع، وربما القتال في بعض الأحيان.

لا شك أنه توجد أسباب كثيرة حالت بين الإسلاميين ونجاحهم في الوصول إلى الحكم في أغلب الدول الإسلامية، لكن السبب الأكثر إلحاحاً هو «الخلافات بين الإسلاميين»، وربما يعضد هذا التوجه أن التجربة الأكثر نجاحاً هي تجربة حزب العدالة التركي، وأبرز ما يميز الساحة التركية، هو خلوها من منافس إسلامي سياسي حقيقي لحزب العدالة، فهل نقول إن التعدد هو سر الإخفاق؟ أم إن الخلافات الناجمة عن التعدد هي الخطر الأكبر؟..

لا نريد الاستغراق في قضية افتراضية بعيدة عن الواقع، فالأصل في أغلب الدول الإسلامية هو تعدد التيارات الإسلامية السياسية، وهذا يجعلنا بحاجة للتركيز على قضية «إدارة التعدد بين الإسلاميين»، إذ يكشف البحث المتأني عن وجود خلل كبير في التعامل مع هذه الحقيقة الواقعية، سواء أكان في مجال العمل الدعوي المباشر، أم في المجال السياسي..

ولعل الملاحظة الأكثر أهمية في هذا المجال، هي أن مناهج التغيير التي صاغتها التيارات الإسلامية، بُنِي أغلبها على افتراض أن منهج كل منها هو المنهج الحق، وأن تحقق الأهداف الإسلامية الكبرى إنما يكون عن طريق هذا المنهج وحده، وبالتالي ينطلق كل تيار من قاعدة أن التطور الإيجابي للمشهد هو أن كافة التيارات الأخرى تتحول إلى منهجه؛ لذا لم تعبأ أكثر التيارات بقضية إدارة التعدد، أو بوضع تصورات للتعاون والتنسيق مع التيارات الأخرى لتحقيق الأهداف المشتركة..

وفي مصر، ساهمت ثورة ٢٥ يناير في ازدحام الساحة السياسية بالمزيد من القوى الإسلامية التي أسست أحزاباً وسعت للمشاركة بقوة في العملية السياسية، وأدى ذلك إلى تعدد الاجتهادات والمواقف السياسية، ومع تعقد المشهد السياسي وتسارعه، فقدَ الإسلاميون القدرة على إدارة التعدد فيما بينهم في اتجاه التعاون؛ لكنهم حافظوا على الحد الأدنى من العلاقة وهو: الحيلولة دون بلوغ مستوى الصدام المباشر، مع وجود جهود تنسيقية في قضايا تفصيلية بعيدة عن السياق العام..

وقد أدى إقبال السلفيين على العمل السياسي عن طريق تأسيس الأحزاب والمشاركة في الانتخابات، إلى ترسخ «الذاتية» لدى التيارات الإسلامية كانعكاس لنشأة الأجنحة السياسية، إذ يهدف الحزب السياسي- بطبيعته - إلى تحقيق رؤيته السياسية عن طريق السعي للوصول إلى الحكم منفرداً في المقام الأول، فإذا عجز عن بلوغه منفرداً، تحالف مع أحزاب أخرى، قد لا تكون إسلامية بالضرورة..

إذن يمكن تلمح النمطين الأول والثاني في الحال المصرية، فهناك تعدد للتيارات الإسلامية، وكذا يوجد قصور في إدارة هذا التعدد، ولو استمرت هذه الحال على نفس المنوال، سيكون عليها أن تصطدم بالنمط الثالث وهو: إخفاق التجربة بسبب الخلافات»...

ما يفاقم من خطورة الوضع هنا، أن الأحزاب الإسلامية، وتحديداً حزبي «الحرية والعدالة» و «النور»، تمكنا من تحقيق أغلبية برلمانية بنسبة ٧٠٪، وهذا يعني أنهما الكتلة السياسية الأولى في مصر، بمعنى أن النجاح أو الإخفاق الذي يبدر منهما على صعيد إدارة العلاقة بينهما، ينعكس بصورة مباشرة على مسار الثورة المصرية..

باختصار

نقول: إن إدارة العلاقة بين الإسلاميين- الإخوان والسلفيين- في مصر لا تتعلق فقط بالمشروع الإسلامي، بل بالثورة نفسها، وبكل تداعياتها الداخلية والخارجية، ولا يخفى أن كثيراً من الأقلام العلمانية شرعت منذ فترة في اتهام التيارين بالتسبب في تراجع مسار الثورة وتقلص المكاسب السياسية..

وإذا كان اختيار مرشح الرئاسة الأحق بالدعم، كان آخر محطات الخلاف بين الإخوان والسلفيين، فإن قطار الخلاف السلفي- السلفي، ما يزال سائراً في طريقه أيضاً، فعلى الرغم من مرور نحو ١٦ شهراً على نجاح الثورة، فإن الداخل

السلفي ما يزال متفرقاً، وما يزال العقد منفرطاً بين تيارات ومجموعات كثيرة تحمل أفكاراً متباينة حول الواقع وطرق التعامل معه، وهذه المجموعات متجددة ومتمددة، وتستقل بآلياتها في تكوين الرؤى والتصورات، وفي اتخاذ القرارات والتحركات، وفي غالب الأحيان تحتفظ بعلاقات متوترة مع الكيانات الإسلامية الكبيرة، بل أحيانا تكون نشأتها على قاعدة الخلاف مع تلك الكيانات، والمؤسف أن بعض هذه المجموعات تتبنى تصوراً هادماً للتيارين الأكبر على الساحة..

وعلى الجانب المقابل، فإن الإستراتيجية التي تتعامل بها الكيانات الكبيرة مع هذه المجموعات يشوبها القصور الشديد، فهي ليست احتوائية، بل ربما كانت إقصائية في بعض جوانبها، كما أنها لا تراعي وجود قطاعات واسعة من الإسلاميين خارج الأطر التنظيمية للتيارين، وهذه القطاعات تتحول مع الوقت إلى مراكز جذب لمنتمين جدد، ممَّا يفاقم من الأزمة..

إن وضعا شائكاً بهذه الصورة، يسمح لخصوم الإسلاميين بتمرير العديد من المؤامرات والمخططات الرامية لإبعادهم عن الساحة، إذ تسمح لهم هذه الوضعية بالاختراق والتحريك والمناورة والاحتواء... إلخ وفي النهاية ينعكس ذلك كله على شعبية الإسلاميين في الشارع الذي لا يملك القدرة على التفرقة والتمييز بين هذه التنوعات الإسلامية الكثيرة، وبالتالي ينعكس أخطاء بعضهم على كلهم، ويخسر الجميع...

إن خطورة الأزمة وإن كانت تتجلى أكثر مع التفريعات الصغيرة في الخارطة الإسلامية، إلا أن علاج هذه الحال السلبية يبدأ من القمة، حيث العلماء الثقات، والقيادات الإسلامية البارزة، والكيانات الكبيرة، فهم الذين يملكون القدرة على اتخاذ القرارات الصعبة، وهم القادرون على تذليل الصعوبات في طريق لملمة الشمل، وبأيديهم إمكانية المبادرة واتخاذ الخطوة الأولى..

وكلهم مدعو إلى الترويج لثقافة التنازل بين الإسلاميين، امتثالاً لقول النبي ﷺ: «تطاوعا ولا تختلفا». ولا نقصد التنازل عن الثوابت المنهجية، بل نعني التنازل عن المواقف والاجتهادات السياسية والمكاسب التكتيكية، ولو تعامل الجميع انطلاقاً من هذه الثقافة، فقدم كل طرف تنازلاً جزئياً من جانبه، لاقتربت المسافات وتعانقت الرؤى، ورب خلاف يستعر ولا يهمد، يزول ويتلاشى مع تقديم تنازلات يسيرة جداً.

لقد بلغت الثورة المصرية عنق الزجاجة، فإن تضخمت الخلافات الإسلامية فلن تمر الثورة، ولن تكون نتيجة عملية التحول السياسي إيجابية، للإسلاميين أو لبقية القوى السياسية على حدٍّ سواء.

إن التاريخ يُكتب الآن في مصر، وبين أيدينا تجارب الآخرين ترفع راية النذير، وليس الحل بأن يقدم كل طرف مقاربات نظرية عن دوره في توحيد الصف، ثم تنتهي المقاربة بالكلمة المكررة «ولكن..»، فتُلقى التهمة على «الآخرين» الذين أحبطوا جهود التقريب وليس علينا «نحن»..

إن مثل هذه المقاربات لا تنفع ولا تشفع إذا ما خسرت الثورة وتراجعت التجربة، ولنتذكر قوله - سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، قال الطبري في التفسير: «قل لهم: أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم، بخلافكم أمري وترككم طاعتي»..

وروى الطبري عن الحسن في قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، قال: «وأما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم».

فلا يمكن بحال أن ننفي مسؤولية كل فصيل وكل تيار وكل مجموعة إسلامية عن الفرقة الحاصلة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها. وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب».. (مجموع الفتاوى، ٣/٤٢١).

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

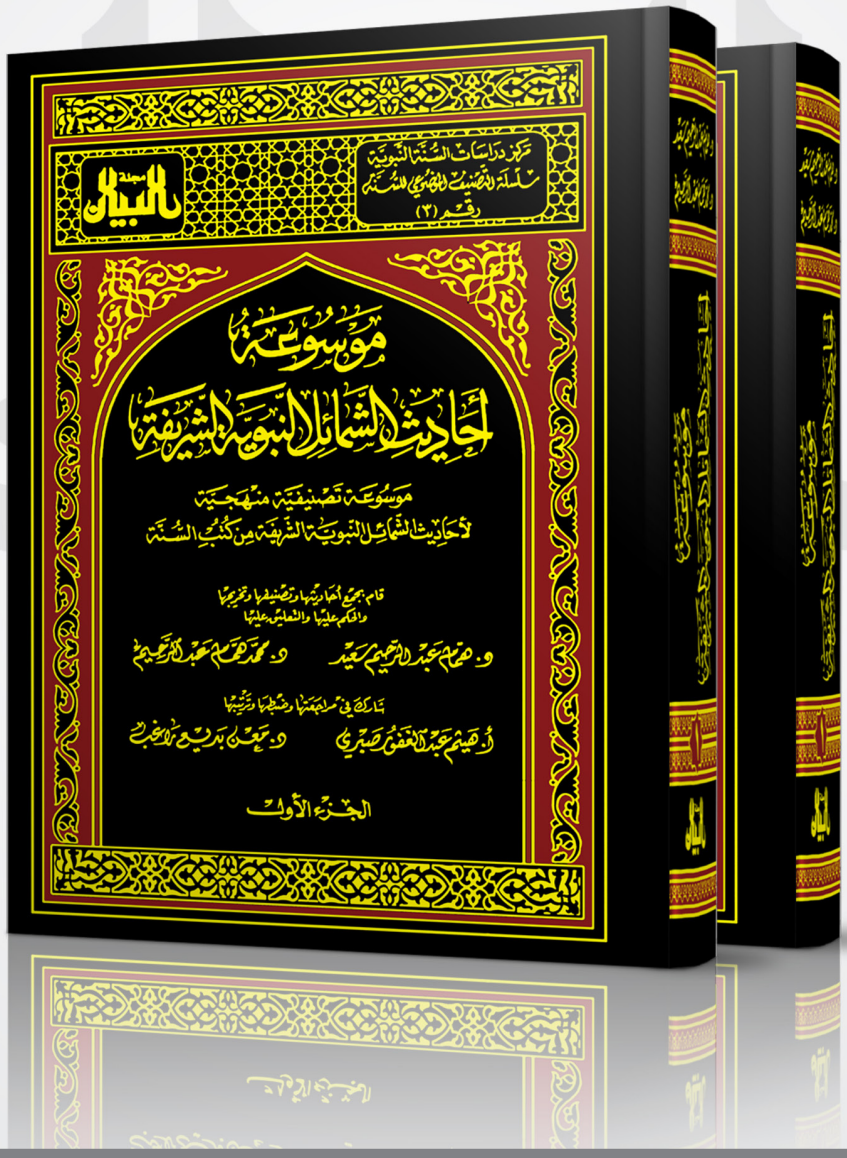

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

اليقين

روح أعمال القلوب

هاني بن عبد الله الجبير(*)
haniam@gmail.com

قد أمر الله - تعالى - الناس بالإيمان، وهو أول أمر يوجه للمكلف: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. فمن تمسك به نالَ الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي الحسنى قال - تعالى -: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥ - ٧][١].

وقال - تعالى -: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]. وقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومعنى الشهادة بالوحدانية: الاعتقاد الجازم - المعبّر باللسان - بهذه القضيّة، كأنه من شدة جزمه بمضمونها مشاهد لها[٢].

فالإيمان اعتقاد جازم لا يشوبه شك، ولا تخالطه ريبة، ولذا وصف الله أهل الإيمان بأنهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]. فاشترط في صدق إيمانهم كونهم لم يرتابوا، أي: لم يشكوا[٣]، فأما المرتاب فهو المنافق كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥]. وأخبر الله - تعالى - عن الأمم السابقة التي كفرت برسلها بأنّ الشك كان من أسباب كفرهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ٩ - ١٠].

ومع وضوح هذا وظهوره لأهل الإيمان الصادق، والفطر السليمة، والعقول الصحيحة، إلا أن الساحة المعاصرة قد ظهر فيها من تأثر في طرق تحصيل المعرفة بالطرق الفلسفية (القديمة) في أوروبا وأساليبها في البحث العقلي، والتي استندت بعض رؤاها إلى أن الشك هو أول طريق تحصيل المعرفة، فمثلاً فرانسيس بيكون (١٥٦١م - ١٦٢٦م). ينصح كلَّ طالب علم بأن يضع موضع الشك: كل شيء يحتجزه عقله ويقتنع به، ويغسل عقله من كل التصورات السابقة ليحطّم بذلك، أوهام العقل[٤].

ويقول: (إن مشاكلنا ناجمة عن العقائد التي تحول بيننا وبين الوصول إلى الحقيقة... إننا نأخذ هذه القضايا المسلّم بها نقطة الابتداء في البحث، ولا نفكّر أبداً في وضع هذه القضايا المسَّلم بها موضع الفحص والملاحظة والتجربة، لأن الإنسان عندما يبدأ باليقينيات فإنه سينتهي بالشك؛ ولكنه عندما يبدأ راضياً بالشك فإنه سينتهي باليقينيات)[٥].

(*) قاض في المحكمة الكبرى في الرياض.
(١) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٥)، (٤/ ٣٥٥).
(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية للشيخ محمد بن صالح عثيمين ص ٤.
(٣) معارج القبول للشيخ حافظ حكمي (٢/ ٤٠٥).
(٤) قصة الفلسفة، ول ديورانت ص ١٦٣.
(٥) المرجع السابق ص ١٦٧.

ومثله رينيه ديـــكارت (١٥٩٦م - ١٦٥٠م) الذي قرر أنه لا بُدَّ أن نمحو كل شيء من أذهاننا ونشك في كل شيء ونبدأ من الصفر[١].

ويقول: (قررت أن أحرر نفســـي جدياً من جميع الآراء التي آمنت بها قبلاً، وأن ابتدئ الأشـــياء من أسس جديدة، إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم قواعد وطيدة ثابتة مستقرة)[٢].

وهذا المذهب الذي طبّقة أحـــداث عصرنا على عقائدهم مســـتمدينه ممَّن ذكرنا، مع كونه منهجاً قديماً في الغرب، كما يلاحظ من تواريخ حياة أولئك المفكرين إلا أنه منهج قد ســـبق أن تناوله علماء الإسلام بالنقد لما أخذت به بعض علماء الكلام في بعض الفرق الضَّالة.

فهو مذهب أبي هاشـــم الجبائي من المعتزلة، وأخذ بعض الأشـــاعرة ومضمونه أنه يجب على المكلف أولاً أن يشـــك، ثم يســـتعمل النظر العقلي ليصل إلى الحقائق[٣]، والذي ردَّ عليهم أهل السنة وبينوا خطأ كلامهم، وهو أيضاً ممَّا دخل هذه الأمة من علوم الأمم السابقة[٤].

ونظراً لظهور هذه الفكرة، وتداولها في عدد من المنتديات، وتبني جملة من ناشـــئة الإســـلام لها، فقد أحببت أن أتناولها ببيان شرعي يجليها من خلال الفقرات المتعاقبة التالية.

١ الإقرار الجازم ركن في الإيمان:

فمن شـــروط قبول شهادة أن لا إله إلا الله: اليقين المنافي للشـــك، قال ﷺ: (أشـــهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة)[٥].

وقال ﷺ لأبي هريرة - رضي الله عنه -: «اذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه؛ فبشَّره بالجنَّة»[٦].

وقد تقدم في أول المقال الآيات الدالة على هذا.

قـــال ابن القيـــم - رحمـــه اللـــه -: (اليقين - وهو ضدُّ الشـــك - روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح.. ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشـــراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط)[٧].

والشـــك في الله - تعالى - أو في رسوله ﷺ أو ما جاء به كفر وخروج عن الإســـلام، قال القاضي عياض - رحمه الله -: (وكذلك من أضاف لنبينا الكذب فيما بلَّغه وأخبر به، أو شـــكَّ في صدقه.. فهو كافر بإجمـــاع)[٨].. وقال أيضاً: (ولهذا نكفر من دان بغير ملة المســـلمين من الملل أو توقف فيهم، أو شـــك في مذهبهم أو صححه، وإن أظهر مع ذلك الإســـلام واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب ســـواه - فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك)[٩].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن الباطنية: (ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم فهو كافر كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين)[١٠].

وحاصل ما سبق أن الشك يناقض الإيمان، ولا يجتمع في قلب إنسان إيمان وشـــك، ومن ضرورة الإيمان حصول اليقين المنافي للشـــك، واليقين اعتقاد جازم، وتصديق قوي، فهو ضد الشـــك. فالشاك في الشـــيء والمكذب له: كلاهما غير مصدق به، لكن المكذب جازم بعدم الصحّة، والشاك غير جازم بشيء.

٢ النظر العقلي لا يتعارض مع اليقين:

وهو ملحظ مهم وهو ســـر مســـألتنا، فـــإن المريد للبحث والنظـــر العقلي لا يلزمه الابتداء من الصفـــر، وتكذيب كل ما ســـبق في ذهنه. ولذا يقول ابـــن تيمية - رحمه الله -: (النظر في الدليل لا يســـتلزم الشـــك في المدلول، بل قد يكون القلب ذاهلاً عن الشـــيء، ثم يعلم دليله، فيعلم المدلول وإن يتقدم ذلك شـــك وطلب، وقد يكون عالماً به، ومع هذا ينظر في دليل آخر لتعلّقه بذلك الدليل، فتوارد الأدلّـــة على المدلول الواحد كثير، لكـــن هؤلاء لزمهم المحذور، لأنهم أوجبـــوا النظر لكون المعرفة لا تحصـــل إلا به، فلو كان الناظر طالبـــاً للعلم، فيلزم أن يكون شـــاكاً، فصاروا يوجبـــوا عليه النظر، فإذا أوجبـــوه لزم انتفاء العلم بالمدلول، فيكون الناظر طالباً للعلم، فيلزم أن يكون شاكاً، فصاروا يوجبون على كل مسلم أنه لا يتم إيمانه حتى يحصل له الشك في الله ورسوله بعد بلوغه، سواء أقالوا بوجوبه أم قالوا هو من لوازم الواجب)[١١].

وعلى هذا فيمكن في كل مسألة أن يكون لدى الإنسان يقين معـــين، وهو مع ذلك يبحث بتجـــرد وينظر في الأدلة، وحاصل نظره! ما زيادة تأكيد لما عنده، أو رجوع لما قرره ســـابقاً دون أن ينزع إلى الشك ابتداء ويطّرح كل قناعاته أولاً.

ويظهر هذا بالفقرة التالية.

(١) عالم صوفي، رواية حول تاريخ الفلسفة - غوستاين غاردر ص ٢٤٠.
(٢) تأملات متا فيزيقية. ديكارت ص ٧٤.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٠/٢٠٢)؛ درء التعارض (٧/٣٥٣).
(٤) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم ص ٢٣٤.
(٥) صحيح مسلم (١/٢٢٤).
(٦) صحيح مسلم (١/٢٣٧).
(٧) مدارج السالكين (٢/٤١٣).
(٨) الشفاء (٢/١٠٦٩).
(٩) الشفا (٢/١٠٧١).
(١٠) مجموع الفتاوى (٢/٣٦٨).
(١١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٤٢٠).

٣ لا يلزم في اليقين أن يسبق شك:

فإنه يمكن أن ينظر الإنسان وقد استقر رأيه كما تقدم.

بل الشك مؤد لفوات العلم وعدم صحة النظر ولذا سأل التوحيدي ابن مسكويه عن هذا فقال: (لمَ صار اليقين إذا حدث وطرأ لا يثبت، والشك إذاً عَرَض رَبَض؟ يدلك على هذا أن الموقن بالشيء متى شككته نزا فؤاده، والشاك متى أرشدته وأهديت الحكمة إليه لا يزداد إلا جموحاً ولا ترى منه إلا عتواً ونفوراً).

وقد أجاب ابن مسكويه مصححاً نظرته لليقين أولاً فقال: (السائل عن اليقين لم يعرف حقيقته، وظَنَّ أن لفظة اليقين تدل على المعرفة المرسلة، أو الاقتناع اليسير، وليس الأمر كذلك، فإن مرتبة اليقين أعلى مرتبة تكون في العلم، وليس يجوز أن يطرأ عليه شك بعد أن صار يقيناً... وإذا كان الأمر كذلك فليس يردُ على قلب المتيقن أبداً شك ينزو منه فؤاده، بل هو مقرٌ وادع، لا تحرك منه الشكوك بتَّة). ثم أجاب عن مسألة كون الشاك لا يزداد إلا شكاً وترددا بأن قوى الهوى أغلب فينا من قوى العقل[١].

وقد قرر عدد من أهل العلم أن الشك لا يزيد الإنسان إلا شكاً[٢]، وأنه لا يؤدي لعلم، (بل حصول العلم في النفس قد يحصل حصولاً ضرورياً، مع توهمه أنه لم يحصل؛ لأن وجود الشيء في النفس شيء، والعلم بوجوده شيء آخر.. وهكذا عامة المؤمنين إذا حصل أحدهم في سن التمييز يحصل له من الأسباب التي توجب معرفته بالله ورسوله ما يحصل بها في نفسه علم ضروري ويقين قوي، والعلم الحاصل في النفس لا تنضبط أسبابه)[٣].

فالفطرة راسخة في نفس الإنسان فطر الله – تعالى – الناس عليها من معرفة وجود الله والإقرار بربوبيته والشعور بألوهيته، وليست مسبوقة بنظر ولا استدلال ولا شك.

فالأدلة الدالة على الحق مع تنوعها واختلافها ليس شيء منها يشترط في الاستدلال به انعدام الإيمان أو الاعتقاد السابق.

(١) الهوامل والشوامل ص ٢٨٨.
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٤٢٠).
(٣) تضمين من المصدر السابق (٧/ ٤٢٤).

٤ الواجب على الإنسان الجزم بالإيمان:

ومن لم يجزم به فليس بمؤمن كما سبق.

ولا فرق في حصول الجزم بالإيمان واليقين به أن يكون مبعث ذلك الفطرة السليمة، أو تقليد الآباء والمربين، أو التأمل في الكون والأشياء، أو النظر في القرآن الكريم وآياته، أو الاستدلال العقلي، إذ المهم هو حصول المقصود وهو الإيمان جازماً، وإن كانت درجات الإيمان تتفاوت بين الناس.

والشك وإن كان ضد الإيمان إلا أنه يستعمل عند الناس للدلالة على معنيين قد يختلطان في الذهن:

أولهما هو: الريبة وهو عدم اليقين المقتضي لكمال التصديق.. وهذا الشك هو المنافي للإيمان؛ لمنافاته لتصديق القلب المطلوب[٤].

وثانيهما هو: الوسوسة وهي ما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهيته صريح الإيمان، والوسوسة لا يؤاخذ عليها الإنسان فهي ممَّا رفع الله المؤاخذة عليها. قال ابن تيمية – رحمه الله –: (لفظ الشك يراد به تارة ما ليس بيقين وإن كان هناك دلائل وشواهد عليه، حتى قد قيل في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»، إنه جعل ما دون طمأنينة القلب التي طلبها إبراهيم شكاً، مع أن إبراهيم كان موقناً ليس عنده شك يقدح في يقينه، ولهذا لما قال له ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠])[٥].

(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٠٨)، تفسير ابن كثير (١/ ٧١).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١١).

ومن قرأ كلام أهل العلم المحققين في المراد من طلب إبراهيم عليه السلام وقوله: ﴿بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ علم أن المراد إما ورود الوساوس على قلب إبراهيم كما قال عطاء ابن أبي رباح، وإما طلبه لمرتبة أرفع في اليقين، فالإيمان واليقين ونحوهما من أعمال القلب قد تتفاوت.

قال ابن عطيَّة: (الشك يَبْعُد على من ثبتت قدمه في الإيمان، فكيف بمرتبة النبوة والخلّوة، والحديث الذي ورد فيه: «ذلك محض الإيمان». إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، أما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر وذلك منفي عن الخليل عليه السلام)[1].

ولما جاء الحافظ ابن حجر - رحمه الله - لشرح قول النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي»[2].

قال: (اختلف السلف في المراد بالشك هنا، فحمله بعضهم على ظاهره، وقال: كان ذلك قبل النبوّة، وحمله الطبري. على وسوسة الشيطان التي لم تستقر، ولم تزلزل الإيمان الثابت عنده، واستند في ذلك إلى ما أخرجه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: هذا لما يعرض في الصدور ويوسوس به الشيطان.. ثم ذكر ما قيل في أسباب طلبه وذكر أسباباً استبعدها ثم قال: وقيل: أراد طمأنينة النفس بكثرة الأدلة، وقيل محبة المراجعة في السؤال، ثم اختلفوا في معنى قوله ﷺ: (نحن أحق بالشك) فقال بعضهم: معناه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم، وقيل معناه: إذا لم نشك، نحن فإبراهيم أولى ألَّا يشك، أي: لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعاً، فقد قيل: إنه لما نزلت الآية قال بعض الناس: شك إبراهيم ولم يشك نبينا، فقاله، وحكى بعض علماء العربية أن صيغة «أفعل» ربما تأتي لنفي المعنى عن الشيئين نحو قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧]. أي لا خير في الفريقين، ونحو قول القائل: الشيطان خيرٌ من فلان: أي لا خير فيه)[3].

وإنما ذكرت ذلك لئلا يكون هذا النص محل إشكال فالواجب على الإنسان الجزم بالاعتقاد الصحيح والله الموفق.

(١) المحرر الوجيز ص ٢٣٩.
(٢) صحيح البخاري (٢٧٣٣).
(٣) فتح الباري (٦/ ٤٧٤).

٥ كل من سلك للمعرفة طريقاً غير صحيح فحاصله التعب والضلال:

وطرق المعرفة في الشريعة هي ما أقرَّها الشارع من الوحي بنوعيه: القرآن والسنة، والفطرة السليمة والعقل الصحيح، فمن أراد أن يسلك للمعرفة طريق الشك في اليقينيات، أدخله ذلك في سخافة الآراء من السفسطة والحيرة، ولذا وصل ببعض الفلاسفة أن نفوا أن يكون للأشياء وجود موضوعي متحقق، وأنكر بعضهم حجية الاستدلال بالحواس الخمس، ولذا فإن من اطلع على مناقشاتهم وأدلتهم ليعجب من ضياع أعمارهم فيما لا طائل من ورائه.

وهذا ما جعل طائفة منهم تعود فتوقن أن من الأمور مالا يدرك إلا بالإلهام الإلهي وطريق إعلام الله تعالى لنا بذلك. فيقول ديكارت: (إنَّ فيَّ مشاعر لا أبعثها في نفسي كلما شئت، بل إن هناك شيئاً يبعثها فيَّ، وقد يُقال: إن الله هو الذي يبعث فينا إحساساً بوجود هذا الشيء...)[4].

وكذلك الرازي بعد تتبعه لطرائق الفلاسفة، وحجج المتكلمين وكثرة مطالعته لها - وهو من القائلين بلزوم الشك كأول واجب على المكلف -[5]. عاد فقال في وصيته: (لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن)[6].

وقال أيضاً: (واعلم أني بعد التوغل في هذه المضائق، والتعمّق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق: رأيت الأصوب والأصلح في هذا الباب: طريقة القرآن العظيم، والفرقان الكريم)[7].

اللهم إني أسألك أن ترزقنا تدبر كلامك، والعمل بما فيه، أحيينا على ذلك وأمتنا عليه.

(٤) بواسطة: المعرفة في الإسلام مصادرها ومجالاتها. د. عبد الله القرني ص ٣٥٩.
(٥) مواقف ابن تيمية من الأشاعرة. د. عبد الرحمن المحمود (٢/ ٦٧٠).
(٦) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/ ٩٠).
(٧) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص ١٩٤.

من معالم الانحراف الأصولي

مشاري الشثري

ثمَّة إشارات مبكرة تستشرف وجود انحرافٍ في التعامل مع الملف الأصولي، من ذلك ما جاء في سنن أبي داود من حديث أبي رافع - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِه يَأتِيه الأَمرُ مِن أَمرِي مِمَّا أَمَرتُ بِه أَو نَهَيتُ عَنهُ فَيَقُولُ لاَ نَدرِي مَا وَجَدنَا فِى كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعنَاهُ).

هذا التوجيه النبوي المبكر يقضي بصيانة مصدرٍ من مصادر الاستدلال من أي محاولة تحجِّر من وظيفته، وعلى ذلك - أعني صيانة مصادر الاستدلال - درج أهل العلم، فأقاموا علم (أصول الفقه) وجدُّوا في إحكام فصوله ومسائله، وسأسعى هنا - بإيجاز - في تقييد بعض معالم الانحراف الأصولي.

علم أصول الفقه من أجلِّ علوم الشريعة، إذ به يُتوصَّل إلى معرفة أدلة الشريعة وكيفية استثمارها لكشف الأحكام الشرعية وتوليدها، ولولاه (لم يثبت من الشريعة قليل ولا كثير، فإن كل حكم شرعي لا بُدَّ له من سبب موضوع ودليلٍ يدل عليه وعلى سببه، فإذا ألغينا أصول الفقه ألغينا الأدلة، فلا يبقى لنا حكمٌ ولا سبب، فإن إثبات الشرع بغيرِ أدلته وقواعدِها بمجرد الهوى خلافُ الإجماع)[1]، ومن هنا تبرز ضرورة صيانة هذا العلم من كل دخيل، فإنه بمنزلة المقدمات لبيان مراد الله ورسوله، وإذا فسدت المقدمات اعوجَّت النتائج.. وللخلل إلى هذا العلم مداخل، من أخصِّها:

1. إقامة أدلةٍ محدثة لم يرد في الوحي ما يدل على اعتبارها.
2. توظيف الأدلة المعتبرة توظيفًا فاسدًا.
3. تضييق العمل بالأدلة المعتبرة وإبطالها.

(١) نفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي (١: ١٠٠).

وبين هذه الثلاثة قدرٌ من التداخل، فمن الأول جَعلُ الخلاف دليلاً على الإباحة، وعدُّ الإلهام والمنامات من أدلة الأحكام، ومن الثاني إسراف بعض أهل الرأي في استعمال دليل القياس، ومبالغة بعض المُحدَثين في إعمال المقاصد حتى أفضى بهم الحال إلى إبطال جملةٍ من الأحكام المنصوصة، ومن الثالث حسرُ النصِّ بمسلك التأويل، وإبطال القياس والإجماع.. ولدفع غائلة هذه المداخل عُني أهل العلم ببيان ما كان معتبراً من الأدلة، وأقاموا شروط إعمالها؛ ليستقيم بناء الحكم الشرعي عليها، كما أوضحوا مراتب الأدلة وخطوا سبيل النظر حال تعارضها، وفصَّلوا القول فيمن يسوغ له التكلم في دين الله، ورسموا حدود الاجتهاد وبينوا المشروع منه والممنوع.

ينبوع الانحراف الأصولي:

الجهلُ بالأدلة المعتبرة ومراتبها - وأسُّها: الكتاب والسنة والإجماع والقياس - ينبوع الانحراف الأصولي، فمهما قصَّر الناظر في دراية واحدٍ منها فقد اقتبس شعبة من الانحراف، واضطرَّه الحال إلى سوء استثمارها، أو اجترار ما ليس معتبراً، وفي المقابل فإن من استحوذ عليها أغناه ذلك عن غيرها، ووُقي زلَّةَ النظر، فـ (مَن كان متبحراً في الأدلة الشرعية أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام بالنصوص والأقيسة)[2]، ولم يحتج معها

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩: ٢٨٩)

إلى تكلُّفٍ في الرأي أو استحداثِ أدلةٍ لم يعتبرها الشارع.. وهذا المعنى طاف حوله الإمام الشافعي - رحمه الله - في صدر رسالته حين قال: (فليست تنزل بأحدٍ من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها)، وليس يعني - رحمه الله - دلالةَ النص القرآني على عين النازلة، ولكنه يشير إلى مركزية القرآن الكريم في تقرير الأحكام، وذلك أن المسألة تكتسب حكمها من كتاب الله بتنصيصه على خصوصها، أو بإلحاقها بما كان منصوصاً، أو باندراجها في مدلول نصٍّ عام، أو من خلال دليل آخر دلَّ الكتاب الحكيم على اعتباره.

والمراد أن العلم بدلائل الوحي يعصم من الزيغ، والجهل بها جسر موصل إلى سلسلة انحرافات يتفاوت خطرها بقدر بعدها عن رحاه، فكلما ابتعد المرء عن دائرة الوحي سارت به أهواؤه، ليبني أحكامه على أنقاض النصوص، وهكذا ترى العلاقة بين الحق والباطل علاقةَ مدافعة ومغالبة، وليس للحق الخالص قَرارٌ بجوار الباطل الخالص، فكما أن ضمور السنن قاضٍ بظهور البدع، فكذا الأدلة الصحيحة إذا انطمرت صالت الأدلة الفاسدة وراجت سوقها.. قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: (لو جاز تعطيل القياس جاز لأهل العقول من غير أهل العلم أن يقولوا فيما ليس فيه خبرٌ بما يحضرهم من الاستحسان)[1]. والاستحسان - في اصطلاح الشافعي - من القول بالباطل، إذ هو تشريع من قائله، ولما قصرت طوائف من أهل السلوك عن درك بعض دلائل الوحي نزع أصحابها إلى الاعتماد على الأذواق والمواجيد والمنامات، ولما بعدت الشقة بين أهل الكلام والسنن المروية كان من سمت مقالاتهم الشطط عن نهج السابقين الأولين.

من النص إلى المقاصد:

وثمة إشكالية أخرى تتعلق بسوء التوظيف الدلالي، تتولَّد من إجراء الدليل المعتبر في غير سياقه - وفي ضمن ذلك إبطالٌ لأدلة معتبرة أخرى - ولفقه ذلك يحسن التنبيه على مقدمةٍ ضرورية، وهي أن الدليل الشرعي إنما يؤتي ثمرته بإعماله في موقعه، وإلا كان أرضاً خصبة لأحكام باطلة، فدراية مراتب الأدلة من أجلِّ مقامات الناظر في مسائل الشريعة، وذلك لئلا تضطرب آراؤه ويضرب بعضها بعضاً، فالوحي من كتابٍ وسنةٍ أساس الأدلة، وبه تُعلم أحكام المسائل، والإجماع متكئ على أحدهما فلا استقلال له، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «فلا يوجد قط مسألة مجمعٌ عليها إلا وفيها بيان من الرسول ﷺ، وقد استقرأنا موارد الإجماع فوجدناها كلَّها منصوصة»[2].

ثم إن عُدِم النصُّ الدال على حكم عين المسألة نُظر في شمول مدلول النصوص للمسألةِ محلِّ البحث، فإن لم يلح للفقيه هذا الشمول بحث لها عن حكم منصوص يضارعها في مناط الحكم حتى تمدَّ حبالها إليه، وذلك القياس، فالقياس إنما يستقيم تركيبه بعد انتفاء النص المعين، ولذا قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: «ولا يكون لأحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب»[3]، ثم هو مفتقر بعد ذلك إلى فهم مخارج كلام الشارع، وقابليته لاستخراج العلل من عدمه، ثم في إمكان تعديتها أو يُصار إلى قصرها على محلها[4].

فإن لم يك للمسألة أصلٌ تشاركه العلة الجزئية انتُقِل بها إلى إطار أوسع، وهو ما كان من المسائل مشاركاً لها في جنس المعنى، وذلك ما يدعونه بالمصلحة المرسلة، فالمصالح معتبرةٌ فيما لا يزاحم النص، إذ إنه ينطوي ضرورةً على المصلحة المعتبرة المقصودة، فإعمال النظر لتلمس حكم مبني على مصلحةٍ ما؛ مع وجود النص ضربٌ من العبث، ولتقرير ذلك يقول الطوفي الحنبلي في نصٍّ عزيزٍ مخبوء: «ولا شك أننا وغيرنا من المذاهب وإن قلنا باعتبار المصالح والمناسبات لكنها مناسبات شهد لها الشرع ودلَّ عليها الدليل، فأما مجاوزة الحد في اعتبار المناسبات إلى أن يعتبر منها ما لاشاهد له أو لا دليل عليه بل قد يخالف النصوص، فليس ذلك من اعتبار المصالح»[5].

فإن تعذَّر قياس الجنس نُظر في المعاني الكلِّية المحصَّلة من مجموع نصوص الشريعة، فيسعى المجتهد في ردِّ تلك المسألة إلى أقرب معنى كلِّيٍّ يطوِّقها، وتلكم المعاني هي مقاصد الشريعة.. فإعمالُ المقاصد مقيَّدٌ بشروط ثقال، من تَخلُّفِ النص - جزئياً كان أو عاماً - وتعذر القياسِ على المنصوص، وقياسِ الجنس (المصلحة المرسلة)، فتُدفع المسألة بعد انعدام هذه الأُطُر لتُطوى في ظرفِ مقاصد الشريعة، وكلما تأخرت مرتبة الدليل كان إعماله أكثر عُرضة للخطأ، ولذا قال ابن عاشور: «حقُّ العاميِّ أن يتلقَّى الشريعة بدون معرفة المقصد؛ لأنه لا يُحسن ضبطه ولا تنزيلَه، ثم يُتوسَّع للناس في تعريفهم

(١) الرسالة: ٥٠٥.

(٢) مجموع الفتاوى (١٩: ١٩٥-١٩٦).

(٣) الرسالة: ٥١٠.

(٤) انظر: الواضح في أصول الفقه لابن عقيل (١: ٤٩-٥٣).

(٥) درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح: ١٢٣.

المقاصدَ بمقدار ازدياد حظهم من العلوم الشرعية، لئلا يضعوا ما يُلقَّنون من المقاصد في غير مواضعه فيعود بعكس المراد»[1].

هذه المقامات لا بدَّ من حذقها؛ لينضبط للفقيه ردُّ المسألة إلى الظرف اللائق بها، والمدلولُ يأخذ في الضعف بقدر بُعد المسألة عن دائرة الدليل الخاص، فكلَّما انزاحت المسألة عن دليل الكتاب والسنة تراها تسعى في التشبث بأقرب دلالة تحكمها.. إذا تقرَّر هذا فمن أعظم الخلل تقديم الدليل الإلحاقي (القياس - المصلحة - المقاصد) على الدليل النصِّي، وما دامت المسألة قد ظفرت بدليل خاصٍّ فلا مناصَ من لزومه، ولا بدَّ من ضمور العملية الاجتهادية بقدر ظهور دلالة نصوص الوحي على حكم أعيان المسائل، ومن هنا افترع العلماء قاعدةً ضابطة لذلك، وهي: (لا اجتهاد في مورد النص).. وهذا مفرَّعٌ عن حقيقة التسليم لحكم الله ورسوله، فما دام النص جاء بالبيان، فلا داعي لإطلاق العقل في ميدان الاجتهاد، إذ الغاية من الاجتهاد: الوصول إلى حكم الله ورسوله ﷺ، فإذ قد لاح الحكم قريبًا فمن العبث إعمال المطي للوصول إليه!

وتبرز في هذا السياق إشكالية العلاقة بين الكليات والجزئيات وأيهما المقدم، وهي من أبرز الإشكاليات حضوراً في السجال الفكري المعاصر، ومصدر الخلل في التعاطي مع هذه القضية كامنٌ في عدم فهم طبيعة العلاقة بين الكلي والجزئي، فطائفة من المعاصرين ترى أن الكلي مقدم على الجزئي، وجعلت من ذلك مطيةً لإهدار شريحة عريضة من الجزئيات المنصوصة بحجة رعاية الكليات! وهذا من قلة الفقه في شريعة الله، فإن الكليَّ محصَّلٌ من الجزئيات المنصوصة، فهو يستمد قوته واعتباره منها، وبالتالي فخَرْمُ الجزئي خرمٌ للكلي بداهةً، (وبيان ذلك: أن تلقِّي العلم بالكلي إنما هو من عَرْض الجزئيات واستقرائها، وإلا فالكلي من حيث هو كليٌّ غيرُ معلوم لنا قبل العلم بالجزئيات، ولأنه ليس بموجودٍ في الخارج، وإنما هو مضمَّنٌ في الجزئيات حسبما تقرر في المعقولات، فإذًا: الوقوف مع الكلي مع الإعراض عن الجزئي وقوفٌ مع شيء لم يتقرر العلم به بعدُ دون العلم بالجزئي، والجزئيُّ هو مظهر العلم به، وأيضاً فإن الجزئي لم يوضع جزئيًا إلا لكون الكلي فيه على التمام وبه قوامه، فالإعراض عن الجزئي من حيث هو جزئي إعراض عن الكلي نفسه في الحقيقة، وذلك تناقض)[2].

(١) مقاصد الشريعة: ٥١.
(٢) الموافقات للشاطبي (٣: ١٧٤-١٧٥).

أصول الفقه.. ومآرب أخرى:

المسلك الأصولي مسلكٌ دقيقٌ يحتاج فقهُه إلى نظرٍ فاحص، وليس لأحدٍ من الناس أن يسعى في بناء الأحكام إلا بعد استيفاء الشروط المؤهلة للاجتهاد، ورأسُها الاطِّلاع على الكتاب والسنة وتراث السلف؛ لتتحقق الملكة المحصَّلة من الدربة والممارسة، وفي هذا من العنت ما حدا بطائفة من المفكرين المعاصرين إلى المناداة باستئناف العملية الأصولية، وعزَّز ذلك أن الوضع الأصولي لا يُسعف بتحقيق مآربهم.. فصار من المطلوب عند هؤلاء (إعادة بناء منهجية التفكير في الشريعة انطلاقاً من مقدمات جديدة ومقاصد معاصرة، وبعبارة أخرى: إن المطلوب اليوم هو تجديدٌ ينطلق لا من مجرد استئناف الاجتهاد في الفروع، بل من إعادة تأصيل الأصول، من إعادة بنائها)[3]، بل بلغ ببعضهم أن صار يتعامل مع النص كما لو كان صائلاً يُتدرَّج في دفعه، فإن لم يستقم مراده إلا بإبطاله فليكن، وعليه (فإذا قررنا مثلاً إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج علينا تأويل الأحكام التي يناقض ظاهرها هذا الاختيار، وإذا استحال التأويل وجب تعطيل هذه الأحكام، وذلك لأن الاختيارات الكبرى هي التي تحدد طبيعة القوانين لا العكس)[4]! ولهذه النكسة الأصولية شواهد كثيرة في كتب العصرانيين، والشأن عندهم ليس في انضباط منهج البناء الأصولي بقدر ما هو تحقيق لمرادات النفوس، وقد تسرب ذلك إلى الداخل الإسلامي، فصرت ترى من يدعو إلى (اعتماد الفهم المقاصدي للإسلام بدل الفهم النصي، فالنصوص يجب أن تُفهم وتؤوَّل على ضوء المقاصد «العدل - التوحيد - الحرية - الإنسانية» ونصوص الحديث يُحكم على صحتها أو ضعفها لا بحسب منهج المحدثين في تحقيق الروايات، وإنما بحسب موافقتها أو مخالفتها للمقاصد)[5]، وحسبك من شرٍّ سماعُه، وإن ترد المزيد من أمثال هذه الانحرافات فلن تخطئها عينُك في حديثهم عن قضايا العقل والنقل، والظن واليقين، وفهم السلف، واعتبار المصالح والمقاصد، وتحكيم الواقع.. ومن مائها نبت إبطال حد الردة، وحُرِّفت أحكام أهل الذمة، وغُيِّبت شريعة الولاء والبراء، ووجدت المرأة طريقها إلى الولايات العامة، وجُعلت الأهواء أمارة على حكم الله من بين الأقوال المنثورة.

(٣) وجهة نظر للجابري: ٥٩.
(٤) ظاهرة اليسار الإسلامي لحسن حنفي: ٣٦-٣٧.
(٥) من بحث لـ د. راشد الغنوشي بعنوان: (تحليل للعناصر المكونة للظاهرة الإسلامية بتونس).

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

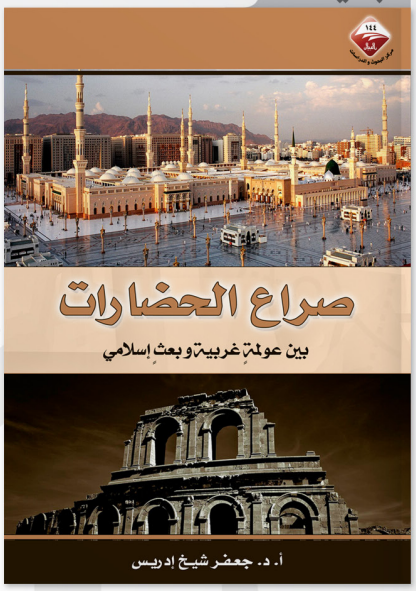

جديد ..

جديد ..

جديد ..

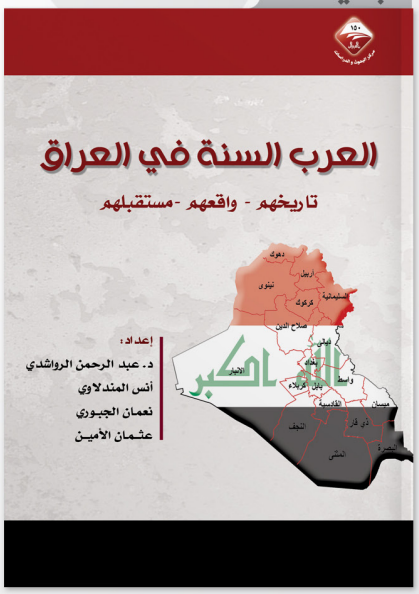

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

«تفجيرات لندن 2012م»
بين الحقيقة والوهم

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

مؤسسة روكفلر Rockefeller Foundation، اسم لامع في عالم «العولمة الذكية» كما تسميها المؤسسة، ومن أثرى المنظمات غير الحكومية في العالم. تأسست عام ١٩١٣م على أيدي أجيال من عائلة روكفلر القَبَّالية الصهيونية، ومقرها نيويورك.

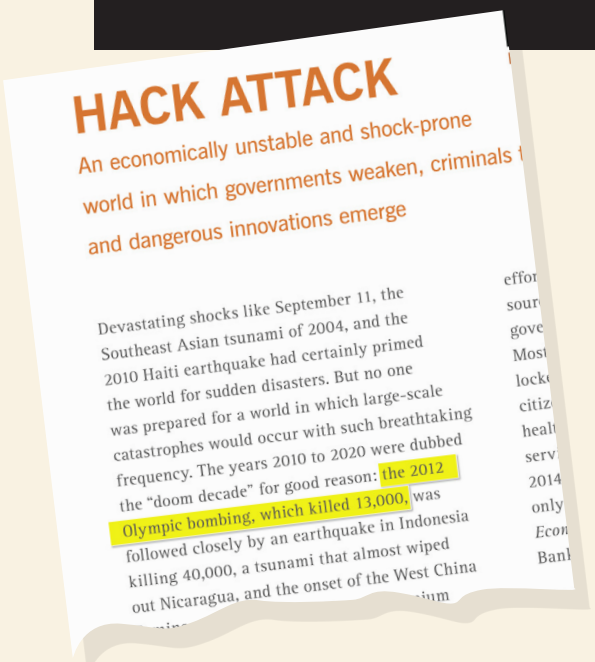
HACK ATTACK

An economically unstable and shock-prone world in which governments weaken, criminals and dangerous innovations emerge

Devastating shocks like September 11, the Southeast Asian tsunami of 2004, and the 2010 Haiti earthquake had certainly primed the world for sudden disasters. But no one was prepared for a world in which large-scale catastrophes would occur with such breathtaking frequency. The years 2010 to 2020 were dubbed the "doom decade" for good reason: the 2012 Olympic bombing, which killed 13,000, was followed closely by an earthquake in Indonesia killing 40,000, a tsunami that almost wiped out Nicaragua, and the onset of the West China

ليس حديثي هنا عن مؤسسة روكفلر بل عن تقريرها الذي أصدرته بالتعاون مع «شبكة الأعمال العالمية» في شهر مايو عام ٢٠١٠م بعنوان «سيناريوهات مستقبل التقنية والتنمية الدولية». تقرير يتألف من ٥٤ صفحة، وهو جدير بالقراءة والتأمل. لكن الذي يعنينا منه هنا ما ورد في ص٣٤ تحت عنوان (Hack Attack) أو «هجوم اختراقي». يقول التقرير:

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

«إن الصدمات المدمرة كالحادي عشر من سبتمبر، وتسونامي ٢٠٠٤م في جنوب شرق آسيا، وزلزال هايتي ٢٠١٠م، قد هيَّأت العالم فعلاً للنكبات المفاجئة. لكنَّ أحداً لم يكن متهيئاً لعالم تتوالى فيه القوارع العظام بهذه السرعة المثيرة. لقد أطلق على الأعوام ٢٠١٠م إلى ٢٠٢٠م اسم «عقد الهلاك» لأسباب وجيهة: تفجيرات أولمبياد ٢٠١٢م التي ذهب ضحيتها ١٣ ألفاً، أعقبها زلزال في إندونيسيا أودى بحياة ٤٠ ألفاً، وتسونامي كاد أن يمحو نيكاراجوا، ونشوء مجاعة الصين الغربية من جراء جفاف يحدث مرة في كل ألف سنة، مرتبط بالتغير المناخي.»[1]

هل لفت ناظريك ما لفت ناظري؟ كلا إنها ليست خطأ مطبعياً! إنه تقرير أُعدَّ منذ عامين من قِبل مؤسسة روكفلر في محاولة من قبل بعض العولميين لاستشراف المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله – عزَّ وجلَّ – في ذلك السياق يتحدث التقرير بصيغة الماضي عن «تفجيرات أولمبياد ٢٠١٢م التي ذَهَب ضحيتها ١٣ ألفاً.»

ولكن هل هذا يعني أننا نمسك بخيط مؤامرة جديدة من قبل تنظيمات نخبوية للزجِّ بالعالم في أتون فتنة عظيمة شبيهة بما حدث في نيويورك قبل عشرة أعوام؟ هذا ما ألمحت إليه صحيفة الـ «ديلي تلجراف» البريطانية في نسختها الإلكترونية تحت مقالٍ نشر في الأول من مايو من العام الجاري بعنوان «صواريخ الدفاع عن الأولمبياد لا تعمل في الأجواء السيئة».

يشير الخبر إلى حالة الاستنفار التي تعيشها الحكومة البريطانية تحسباً لأي اعتداء على أراضيها في أثناء دورة الألعاب الأولمبية، كما يصرِّح باحتمال الاستعانة بنظام (Sta – streak and Rapier) الصاروخي إذا استدعى الأمرُ «إسقاط أي طائرة تحلق على ارتفاعات منخفضة وتعتزم القيام بعملية انتحارية على غرار هجمات الحادي عشر من سبتمبر في أحد مُدرَّجات الألعاب الأولمبية.»[2]

نحن إذاً أمام سيناريو «إرهابي»، وهو الأول في سيناريوهات عدة يستعرضها تقرير وزارة الداخلية البريطانية الذي نشر في شهر يناير ٢٠١١م ويعرف اختصاراً باسم (OSSSRA). من هذه السيناريوهات:

- «الهجمات الإرهابية»: وتشمل الهجمات التقليدية على الأماكن المزدحمة، أو نظام المواصلات، أو الهجمات غير التقليدية بأسلحة كيميائية أو بيولوجية أو إشعاعية.
- الجرائم المنظمة.
- التطرف الداخلي على أيدي نشطاء يسعون من خلال الحدث إلى تمرير أجندات معينة.
- الاضطرابات الجماهيرية: كالمسيرات الحاشدة ونحوها.
- هجوم إلكتروني على المواقع المرتبطة بالأولمبياد.[3]

وعلى الرغم من أهمية هذه السيناريوهات جميعاً إلا أن السيناريو الأول – أعني «الهجمات الإرهابية» – يبقى الأكثر احتمالاً عند كثير من المتابعين وهو الذي يحتفي به «العوليون» عادة لأن فُرص الاستفادة منه أكبر بكثير من مجرد تظاهرة أو جريمة يمكن السيطرة عليها.

إن الذي يعنينا من تقرير «مؤسسة روكفلر» وما يعضده من تقارير وأخبار وتحليلاتٍ أمورٌ منها:

أولاً: الأحوط لكل مسلم حصيف أن ينأى بنفسه عن مواطن الفتنة في دينه، فلا يأتي تلك الديار في أثناء «الثورة» الأولمبية إلا مضطراً.

ثانياً: إن صدقت هذه التقارير والأخبار ولم تكن إرجافاً عُلِم من كان وراء «هجمات سبتمبر» التي كثر حولها لغط كبير – وأحسب أنها من صنع أمريكا وحدها، وليس هذا موطن إيراد الأدلة – فقد تسربت حينها وثائق وإشارات شبيهة بما ذكرتُ أعلاه تحدثت أو ألمحت إلى هجمات «إرهابية»، ولم يُتفطن لتلك الإشارات إلا بعد التفجيرات بسنين.

ثالثاً: رداً على أحداث سبتمبر تحركت أمريكا على الصعيدين المحلي والدولي، فأما على الصعيد المحلي فضَيقت على الحريات في أمريكا عموماً، واتهمت المسلمين بالإرهاب إلا «المعتدلين» منهم بناء على فتاوى مجلس «الشيوخ». أما على الصعيد الدولي فأعلنت أمريكا الرومية «حملتها الصليبية» ضد المسلمين في العراق وأفغانستان على يد قائدها «جورج و. بوش»، الابن عُذِّب المسلمون في محاكم التفتيش في «أبو غريب» وغيره، ولا تزال الحرب على الإسلام باسم «الإرهاب» قائمة. فهل يمكن أن تتحول بريطانيا إلى حال مماثلة؟

(1) http://www.rockefellerfoundation.org/uploads/files/bba493f7-cc97-4da3-add6-3deb007cc719.pdf

(2) http://www.telegraph.co.uk/sport/olympics/news/9236915/Olympic-defence-missiles-dont-work-in-bad-weather.html

(3) http://www.homeoffice.gov.uk/publications/counter-terrorism/olympics/osssra-summary?view=Binary

يجدر بنا أن نستعيد إلى الأذهان مقالة «ديفيد روكفلر» العولمي الباطني عندما قال في خطاب ألقاه أمام مجلس العمل التابع للأمم المتحدة عام ١٩٩٤م: «نحن على مشارف تحول عالمي. كلُّ ما نحتاجه هو الأزمةُ الكبرى المناسبة، فتَقبلُ الأممُ النظام العالمي الجديد.»[1] فالأزمات هي التي تولد لدى الضحية استعداداً نفسياً لقبول سياط الجلاد دون مقاومة. ويمكننا أن نشتَمَّ هذا الواقع في مقال صحيفة الـ «جارديان» الذي يؤكد أن لندن في عام ٢٠١٢م «ستشهد أكبر تعبئة لقوات الشرطة والأمن البريطانية منذ الحرب العالمية الثانية، وأن آثار ذلك ستبقى طويلاً بعد مغادرة الرياضيين المشاركين.» وهو يذكرنا بحديث «بوش» عن «الحرب الطويلة على الإرهاب». كما أن ألفاً من عملاء الاستخبارات الأمريكية سيشاركون في الرقابة.

أي أن بريطانيا قد تتحول إلى حكومة فاشية تحاكم أهلها بتهمة وبغير تهمة، كما أصبح الحال في الولايات المتحدة بعد أحداث سبتمبر. وهذا بدوره يصيب الكثيرين بالهلع فيفرض عليهم الخنوع للنظام الاستبدادي العالمي الذي يستفيد من الأزمات الطبيعية والمفتعلة لتمرير أجنداته كما في إقرار «ديفيد روكفلر» أعلاه.

بقي أن أشير إلى ما قد يعدُّه بعضهم من قبيل هوس «المؤامراتيين» وهو الرمزية الباطنية الغريبة التي يوظفها القائمون على هذه المناسبة. من ذلك شعار الأولمبياد الذي يصور العدد ٢٠١٢م أشبه ما يكون بالكلمة الإنجليزية (ZION) أي «صهيون». كما أن الـ «ماسكوت» أو الشخصية الرمزية التي اختيرت للأولمبياد تظهر بصورة دمية ذات عين واحدة، وهي تمثيل للعين التي تبصر الكل (All-Seeing Eye)، أو «عين حورس» إله المصريين الذي يمجده الباطنيون من الساسة الغربيين كما فصلته في غير هذا الموضع. وهذا ليس من قبيل المبالغة في قراءة الرموز، فصحيفة الـ «جارديان» علَّقت على توظيف هذه الشخصية الرمزية الغريبة قائلة:

«في صورة مخيفة مقلقة تذكرنا عينه الواحدة التي تبصر الكل وتُطل من تحت خوذة الشرطي بعين الربِّ [حورس] التي تبصر الكلَّ وتصوَّر عادة متسنِّمةً لوحات عصر التنوير. في هذه اللوحات قامت عين الرب بدور الرقابة الكلية على رعاياه المتمردين هناك على الأرض.»[2] فهل ستقوم العين التي تطل من تحت خوذة الشرطي البريطاني بنفس الدور؟ إن الارتباط واضح لا يفتقر إلى تعليق.

مثل هذه التقارير والنتف الإخبارية المهمة التي تسربها الصحف تجعل المرء يتساءل – في حال حدوث تفجيرات – عن مدى ارتباط وسائل الإعلام الغربية بالمشروع العولمي الذي تعدُّ عائلة روكفلر الصهيونية من أقطابه. يجيب عن هذا التساؤل تصريحٌ آخر لـ «ديفيد روكفلر» عام ١٩٩١م جاء فيه:

«نحن ممتنون لـ «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» و«تايم ماجازين» وصحف أخرى حضر مديروها اجتماعاتنا ووفَّوا بوعود الكتمان لأربعين عاماً تقريباً. لقد كان من المحال أن نطوِّر خطتنا للعالم لو أننا تعرضنا للأضواء الإعلامية خلال تلك الأعوام. لكن العالم الآن أكثر وعياً واستعداداً ليسير باتجاه حكومة عالمية»[3].

أخيراً فالقصد من هذا المقال تحذير أهل الإسلام مما قد يؤول إليه الحال في بريطانيا، وهو أمر محتمل لا يجرؤ بشر على الجزم به، ولا أقصد من ذكره التهويل والإرجاف، ولكن لئلا يُصدق أهل الإسلام هذه المرة – إذا ما حلت قارعة – أنهم هم من قام بها أو دعمها، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. وإن من المؤسف حقاً أن تجد من أحرار الغربيين من ينفي عن المسلمين تهمة تفجيرات برجي التجارة في نيويورك، ثم يصرُّ بعض المسلمين على أنها من بطولاتهم!

(1) Jim Hunt. They Said What?: Astonishing Quotes on American Democracy, Power, and Dissent (Sausalito, CA: PoliPointPress, LLC., 2009), p. 40.

(2) http://www.guardian.co.uk/sport/2012/mar/12/london-olympics-security-lockdown-london

(3) Mark Rich. Hidden Evil (Morrisville, NC: Lulu Enterprise, Inc., 2008), p. 49.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات

تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان

دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

وقفات مع حديث
«أحصوا لي كم يلفظ الإسلام»

د. عمر المقبل(*)

إن في أحاديث النبي ﷺ، وسيرته الشريفة من المواقف المليئة بالدروس والعبر، التي تتجدد وكأنما هي غضة طرية من في رسول الله ﷺ؛ مما يوجب على محبي هذا النبي الكريم أن يبذلوا جهدهم في استنباط تلكم الدروس، ويبينوا ما انطوت عليه من عبر، وتقديمها لعموم الأمة؛ ليقتبسوا من نورها، ويهتدوا بهديها.

ومن تلكم المواقف: ما رواه الشيخان عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «أحصوا لي كم يلفظ الإسلام؟»، قال: فقلنا: يا رسول الله! أتخاف علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة؟ قال: «إنكم لا تدرون لعلكم أن تبتلوا»، قال: فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً[1].

إن هذا الحديث مع كونه قليل الكلمات، ويحكي قصة قصيرةً، إلا أن له دلالات إيمانية وفقهية وتربوية، أقف معها باختصار:

أولاً: إن الحق لا يعرف بكثرة أتباعه:

فهؤلاء الستُمئة أو السبعمئة[2] إذا ما قارنت عددهم بعدد الكفار في الجزيرة، فضلاً عن بقية الكفار في العالم لوجدتَ البون شاسعاً!

وفي هذا درسٌ ـ أيضاً ـ في عدم الاغترار بالكثرة، وخاصةً في أزمنة الفتن، واختلاط الحابل بالنابل، وتبدُّل المفاهيم عند كثير من الناس.

والموفق من يطلب الأقوى والأصح منهجاً وقولاً وعملاً، ولا يكون ذلك إلا باقتفاء منهج سلف الأمة في الاعتقاد والسلوك!

ومما يتصل بهذا الدرس، أن الإعجاب بالكثرة لذاتها قد يعاقب عليه الإنسان، كما استنبط ذلك بعض العلماء[3].

ثانياً: إن حال الرخاء والقوة لا تدوم:

فهذا حذيفة – رضي الله عنه – الذي مات في أول خلافة علي – رضي الله عنه –، أي: سنة ٣٦ هـ ـ يقول: فابتلينا، حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سراً! وكأنه يشير بذلك إلى الفتنة المحزنة الخبيثة التي تبناها البغاة على أمير المؤمنين عثمان – رضي الله عنه –[4]!

(*) أستاذ الحديث المشارك في كلية الشريعة بجامعة القصيم.

(١) البخاري (٣٠٦٠)، مسلم (٢٣٥).

(٢) وقع اختلاف في الروايات في التحديد، وليس هذا موضع تحرير ذلك، لأن هذا ليس مقصوداً هنا، بل المقصود هنا: بيان قلتهم، ولتوجيه هذا الاختلاف ينظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ١٧٩)، فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٧٨).

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٥/ ٢٢١).

(٤) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٦/ ١٧٨).

وحذيفة – رضي الله عنه – يقول هذا وهو لم يدرك زمن الحجاج، الذي أهان من أهان من صحابة حصلت منه مواقف لا تليق بأصحاب رسول الله ﷺ!

ويقول هذا، على الرغم من أنه كان أحد الذين أوردوا على النبي ﷺ السؤال ـ حينما طالبهم بعدّ المسلمين: أتخشى علينا ونحن ما بين الستمئة إلى السبعمئة؟

وهذا درسٌ عظيم في اغتنام أوقات الأمن، والصحة والفراغ للقيام بكل ما يمكن من صالح الأعمال الخاصة والمتعدية، فإن الإنسان لا يدري ما الذي يستقبله من أمور.

وفيه درسٌ للمؤمن ولمن تحت يده ممَّن تولى تربيتهم: في الاستعداد للمتغيرات التي لا يملك الإنسان أمامها خياراً، ولا يملك أمامها إلا الصبر، والسعي في إصلاح ما يمكن إصلاحه، أو يأتيه أمر الله وهو ثابت على ما يحب الله ويرضاه، ومن أعظم الزاد لهذه الأحوال: التربية الجادة وقت الرخاء.

ولهذا كان النبي ﷺ يهتبل الفرص، ويغتنم المناسبات؛ لتربية أصحابه على المتغيرات التي ستواجههم؛ ليكون تلقيها أيسر من مفاجآتها، ولعل من أشهر تلك المواقف خطبته الشهيرة التي خاطب فيها الأنصار – رضي الله عنهم – بعد غزوة حنين، حين وجد بعض الأنصار في نفوسهم من عدم إعطائهم من الغنائم ـ فقال لهم: «إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» متفق عليه[1].

ومما هيأهم له النبي ﷺ: أن الدنيا ستفتح عليهم، وحذَّرهم من الافتتان بالدنيا، وخصَّ بعضهم ممن يتوقع أن يجد شدة أكثر من غيره كما سبق في خطابه للأنصار – رضي الله عنهم –.

إن الحالة التي يعيشها شبابنا اليوم عامة، من الانغماس الشديد في الترف، والانهماك في توافه الأمور، وسفاسفها لا تبشر بخير، وآثار الترف على الأمة في تاريخها وحاضرها لا يخفى، وإن لم تكن هناك وقفات جادة في التربية ـ بدءاً من المنزل ومروراً بالمسجد والمدرسة ـ فقد تخرج أجيال يحتاج المربون معها إلى جهودٍ مضاعفة في إزالة هذه الآثار السيئة.

ومن قرأ في تاريخ الأندلس فسيدرك هذه الحقيقة، وأن انغماس الأمة في الترف كان من أسباب سقوط الدول، والتاريخ شاهد لا يكذب.

أما من قرأ القرآن فإنه سيجد أن الترف لم يذكر في القرآن إلا مذموماً في ثمانية مواضع، بل هو بوابة مشرعة إلى النار، فهل يعي المربون والمصلحون هذا المعنى؟ وهل يعي الشباب هذه الحقيقة؟

حقيقة أن السرف من دواعي الترف وأن الترف من أسباب التلف.

وفي الوقت ذاته، ففي الحديث إشارة إلى اغتنام حالة النشاط والفرصة المواتية قبل تغير الحال في نفسك أو في الظروف التي حولك.

كم من شاب وشيخ كبير في السن سوَّف في التوبة وسوَّف وسوَّف حتى فاجأه الموت وهو لم يصنع شيئاً!

كم من شاب قال: سأطلب العلم.. سأحفظ.. سأفعل وأفعل، ومضى الوقت ولم يصنع شيئاً!

وكم من شاب من أصحاب الطموحات الجيدة ضاعت عليهم الأوقات بالأماني الكاذبة!

وما أجمل أن نجعل حديث اغتنام الفرص نُصب أعيننا: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك»[2].

ثالثاً: مشروعية الإحصاء:

فقد بوّب البخاري على هذا الحديث بقوله ـ في كتاب الجهاد ـ «باب كتابة الإمام الناس»[3] ففيه أصلٌ شرعي للإحصاء، الذي يترتب عليه أمورٌ كثيرة في التخطيط، كما هو معلوم في موضعه، وتزداد الحاجة له، كلما قوي أثر الجهة التي يطبق عليها الإحصاء، كما في الجهات العسكرية، والتعليمية والصحية.

وهذا وإن كان من أمور العادات التي أصلها الحلّ، ولا تفتقر لنص خاص، إلا أن وجود أمثال هذه الأحاديث تجعل المؤمن يزداد يقيناً بشمولية هذا الدين.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) البخاري (٤٣٣٠)، مسلم (١٠٦١) والمتتبع لألفاظ الحديث في الصحيحين يجد أن النبي ﷺ قال ذلك في أكثر من مناسبة.

(٢) يروى من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما –، لكنه خطأ، كما نبه على ذلك البيهقي في «الشعب»، وأن الصواب في حديث ابن عباس: «نعمتان مغبون...» والمعروف في إسناد هذا الحديث كونه من رواية عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ، عن النبي ﷺ، وعمرو بن ميمون تابعي، فالحديث مرسل.

(٣) صحيح البخاري (٤ / ٧٢) ك: الجهاد، باب كتابة الإمام الناس.

المؤشرات: قوة وضبط

عاصم محمد حسن

تشيع عند المشتغلين بالتخطيط عبارةُ: "ما لا يمكن قياسه، لا يمكن إدارته!" عند ذكرهم للأهداف، وهي عبارةٌ صائبةٌ إلى حدٍّ كبير، ذلك أن للأهداف أبعاداً واسعة، يصعب الإحاطة بها كلها، ولا تتمكن جهة ما من إدارتها ما لم تُحطها بإشارات تبين غاية المراد منها. إن أهدافاً -على سبيل المثال- كتعزيز ثقافة الإنفاق، أو القضاء على الفقر، أو نشر الفضيلة، تظل مفتوحة الجوانب إلا أن تحدَّ بدلائل تشير إلى مستوى راضٍ يوصل في فضاء السفر القاصد إليها، وعلامات الطريق[1] هذه هي المؤشرات التي أعني. قال - جلَّ من قائلٍ سبحانه -: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

إنّ التخطيط في ختام الأمر إنما هو سلوك طرق مثلى للانتقال من وضع معيّن إلى وضع مرغوب، إجابةً عن السؤال المشهور الجامع لأطراف التخطيط كلها: أين نحن الآن؟ وماذا نريد؟ وكيف نصل إلى ما نريد؟ ورحلة الإجابة عن تلك الأسئلة تتطلب علامات طريق، ومنهجية واضحة للقياس.

وقد ظهرت في فترات متباعدة أهمية أن تكون الأهداف محدّدة ومقيسة، ونظَّمَ أصحاب هذا الفنّ اختصارات تدّلل على أهمية القياس[2]. وجُلُّهم يتفق على أنه عند غياب المنظومة القياسية التي تستند إليها المؤسسة في وصف أهدافها؛ ينشأ -بالتزامن- قلقٌ حيال النتائج.

إلى جوار الاحتياج إلى القياس كمعيار على جودة العمل وإحكامه، فإن حاجةً إلى التقييم الصادق للعاملين وأعمالهم تبرز كذلك، إذ سيظل حاضراً أمامهم دوماً ما يدلّهم على تقدمهم أو تأخرهم[3]، وحاجة أخرى تتعلق بتصديق ما تدعيه المؤسسة من نجاح في عملها أو قصور، ولا شكّ أن حسماً للادعاء سيفتقر إلى برهان ناجزٍ يوفره ما يُقرأ من نتائج للمؤشر.

(١) يشار أحياناً إلى المؤشرات بمصطلح: Milestones، أو علامات الطريق (حرفياً: أحجار الطريق)، وهي تلك العلامات التي يجدها المسافر على جنبات الطريق تحدد كم من الكيلومترات أو الأميال تبقى من أقرب حاضرة إليه.

(٢) مثل SMART: للإشارة إلى أن يكون الهدف: محدداً - قابلاً للقياس - قابلاً للتحقيق - معقولاً - محدداً بزمن.

(٣) خاصة إن عمدت المؤسسة إلى تصميم نظام لوحات قياس الأداء Dashboards وهي قارئات إلكترونية ترتبط بها المؤشرات من خلال نظام حاسوبي وتعطي قراءات مستمرة، ويشيع منها ما هو متدرج بألوان ثلاثة أحمر وأصفر وأخضر للتدليل على خطورة الموقف أو استقراره، بطريقة أشبه ما تكون بقارئات الوقود والسرعة والحرارة في لوحة السيارة.

ماهية المؤشرات:

بعد هذا يمكن القول: إن المؤشـــرات هي مجموعة من الدلالات التي تظهر عند حدوث شيء معيّن أو عند وجوده، كالأثر الذي يدلّ على المســـير، والظلّ الذي يدلّ على وجود جســـم ما، أو تغيب عند وجـــوده أو غيابه، وهنالك مفاهيم تدور في فلك واحد مع المؤشرات مثل:

الآثـــار:

والآثار دلالات على وجود الشيء أو عدمه[1]، وتقفي الآثار من طرق الإثبات كما قال الناظم- وهو يدلّل على أهميته في الإيمان-:

وطـــرقُ المعـــرفـةِ الـكـبـارُ
عِيـَانٌ أو مـثالٌ أو آثـــارُ
فـــالأوّلُ منـعـهُ الجـــَـــبّارُ
إذ قال: (لا تُدْرِكُهُ الأبـْصَارُ)
والـثـاني أيضاً منعه بالنقلِ
إذ ليس له سبحانه من مثلِ
لـم يـبـقَ بـعـد ذا سِـوَى آثـارِ
قُدرتـــه في العالم السيّار[2]

وأجـــلّ من ذلك وأجلى، قولـــه - جلَّ وعلا -: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُـونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقوله سبحانه: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

(١) يراجع للاستزادة: معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار الجيل- بيروت، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، الجزء الأوّل، باب الهمزة، ص: ٥٤

(٢) جزء من نصّ مفرّغ لمحاضرة بعنوان: «معرفة الله» للعلامة محمد الحسن الددو الشنقيطي والنظم لمحمد الفالو المَتّالي:
http://audio.islamweb.net/audio/index.php?page=FullContent&audioid=152689

المعايير:

والمعايير هي النماذج العليّة التي تقاس عليها الأشـــياء، فيحكم على جودتها قربـــاً أو بعداً منها[3]، وإن الحاجة إلى المعيار الذي تُحاكم إليه جودة الأشـــياء أمر ركيزٌ في الفطرة البشـــرية؛ التي تنحو دوماً إلى تأكيـــد تفوقها، وتربيتنا في هـــذا الاتجاه لا تصادم ما فطر البارئ - ســـبحانه - عليه الناس، غير أنها تهذبه وتوجّهه إلى ما ينبغي أن يكون، ولعلّ الأمرَ بالتأســـي بالنبيّ ﷺ في الدّقيق والجليل من الشأن، يدلـــك على عمق هذا المفهوم في ثقافة المســـلم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللّـهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأمـــره ﷺ الناس بالصلاة على طريقته: (صلوا كمـــا رأيتموني أصلي)[4]، وبالنســـك على نهجه: (خذوا عنّي مناسككم)[5]، دالّ على ذلك.

وتظهر أهمية المؤشـــرات في عالـــم اليوم في مجالات الدراســـات الاجتماعية، التي تحـــاول إدراك ظواهر بعينها تشير إلى اتجاهات محدّدة من خلال إحصاءات تُعدّ وأرقام تُقرأ، ويُستنبط المؤشر من هذه الإحصاءات، كأن يُقسم عددُ أحـــداثٍ مخصوصةٍ على مجموع الأحـــداث من ذات النوع؛ لتنتج نسبة الحدث إلى مجموعه، فيكون الناتج (قلة أو كثرة) مؤشراً على حالة ما،وتُصدر المؤسسات اليوم كمّاً هائلاً من المؤشرات الرئيســـة والفرعية، من منظور ثقافتها. وسيظلّ المؤشر يفتقر إلى الصدقيّة دوماً، بمعنى هل يدلّ هذا المؤشر فعلاً على الاتجاه المقصود أم لا؟

يعرض القرآن كثيراً أنماطاً من اختلال المعايرة لدى أهل الضلال عندما يقايســـون اتجاهات معيّنة بمؤشرات لا تدلّ عليها! ومن ذلك - على سبيل المثال -:

١ - اعتراض الملأ من بني إســـرائيل من بعد موســـى على تولية طالوت عليهم ملكاً بافتراض مؤشـــر ضروريّ في نظرهم للملك: سعة المال!: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

(٣) يراجع للاستزادة: ابن فارس، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص: ١٩١
(٤) رواه والبخاريّ
(٥) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

٢ – تكذيب المشـــركين لرسل الله تعالى وأنبيائه لمؤشرات افترضوها هم لتصديق النبيّ تشمل:

أ – مؤشر بشرية النبيّ ابتداءً: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَـاءِ الآخِـرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَـرٌ مِّثْلُكُمْ يَـأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْـرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣ – ٣٤].

ب – مؤشـــر القوّة والمُكنة الســـابقة للنبيّ من رياسة أو زعامة: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣٠ – ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود: ٩١].

ت – مؤشـــر الموافقة: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِـمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَـالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَـا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِـي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَـا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَـافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيـمٍ ﴾ [يونس: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٣].

ث – مؤشـــر المكانة الاجتماعيـــة للأتباع: ﴿ قَـوْمَ فِرْعَـوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴾ [الشـعراء: ١١]، ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَـرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

واليوم يجد المتأمل في الهجوم (العولميّ) فَرْض مؤشرات عديدة للحكم الصالح، أو مؤشـــرات للتنمية، وغيرها، منها ما يرضاه المســـلم، وأكثرها يصادم عقيدته، ولكن التيار الجارف للقوة الناعمة التي يعول عليها الغرب في مرحلة صراعه القادم تجعل كثيراً من الدول – فضلاً عن المؤسســـات – تذعن صاغرة إلى تلك المؤشـــرات[1]، بـــل ويحتفي بعضهم بإنجاز تقدّم ملموس فيها، على الرغم من التهاوي الظاهر لمؤشراتهم من خلال الحراك – الذي لم يتصوره الغرب – في العالم الإسلاميّ اليوم، الأمر الذي يجعلهم يعيدون حساباتهم حول ما زعموا قطعيته من قبل[2]. إنه ليقع على علمائنا ومثقفينا اليوم واجب جمّ في محاولات اســـتخلاص مؤشرات من شرعنا الحكيم،تدلّ قطعاً على مراداتها، وينتفي عنها زيغ أهل الإبطال والتحريف، وتكسب صدقيتها وثباتها من صدقية مصدرها وثباته.

(١) انظر كتاب: القوة الناعمة، وسيلة النجاح في السياسة الدولية. جوزيف س. ناي، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، العبيكان للنشر، الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٧م، ص: ٩٢ وما بعدها.

(٢) من ذلك على سبيل المثال قطعهم بأن مؤشر الديمقراطية ضروري لحدوث التنمية وقد اثبت الواقع اليوم عدم ضرورة ذلك، بل وانقلاب ذلك رأساً على عقب فقد ذكر جاك أتالي وهو من أبرز المختصين في شؤون التنمية، معلقاً على ما حدث في تونس: (إن الانخراط في نظام السوق، كما فعلت تونس، يخلق الإمكان لولادة الديموقراطية)! انظر كتاب: ثورات القوة الناعمة في العالم العربي: نحو تفكيك الأصوليات والديكتاتوريات، علي حرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص: ٣٢–٣٣.

كيف نصمم المؤشرات؟

إن مجموعة القياســـات التـــي تدلّ على حالة ما، تسمى "بالمنظومة القياسية"، فدرجة الحرارة ومستوى ضغط الدم، وعدد النبضات في الدقيقة، يمكن أن تكون منظومة قياســـية لهـــدف التأكد مـــن توافر الصحـــة الأولية للشخص، ومع تطوّر العلوم، صار هناك الكثير من المنظومات القياســـية الجاهزة، وما ظهور الأجهزة الطبية ســـهلة الاســـتخدام إلا أمثلة على ما أعنيه هنا.

ولا يكفـــي مؤشـــرٌ واحد–فـــي الغالب– للقياس، فمؤشر درجة حرارة الجسم لا يكفي وحده لتأكيد وجود الملاريا مثلاً، ما لم تضفْ إليه مجموعةٌ أخرى من المؤشـــرات، كفقدان الشـــهية، أو ظهور جرثومة الملاريا في الدم، بل يعدّ الاعتماد على مؤشر واحدٍ مضللاً في كثير من الأحيان.

ويكمن التحدي في أنَّ من يضع هدفاً ما، سيكون مسؤولاً عن وضع مؤشرات تدله على التقدّم تجاهه، أي ســـيحتاج إلى تصميم حزم خاصّة، تفسّر الهدف وتشير إلى درجة تحققه.

لنبدأ من علٍ: سيظل من المعقول أن يكون للمؤسســـة أهدافٌ عامّة تنطلق من رؤية، تنتج هـــذه الأهداف من تســـاؤل منطقيّ: ما الذي يحقق هذه الرؤية؟

مثلاً: مؤسسة خيريّة ما، تعمل في مجال التنميـــة الاجتماعية، رؤيتهـــا: "بحلول العام ١٤٥٠ هـ– إن شـــاء الله– منطقتنا خالية من الفقر"

يُشـــرَع مهنيّاً أن يتســـاءل المُخَطِّطُون: ما المســـائل الضرورية التي بتحققها تتحقق هذه الرؤية، ألا وهي القضاء على الفقر في المنطقة فـــي تلك الفترة المحـــددة؟ يتوقّع أن تكون من نتائج عصفها الذهني لمسببات الفقر في تلك المنطقة ما يلي:

١. ضعف التديّن وانتشار الربا والفواحش.
٢. انخفاض معدّل التعليم (الجهل).
٣. انهيار الوضع الصحّي.
٤. سوء سياسة إدارة الموارد.

ومن معالجاتها المعقولة التي يمكن طرحها:

١. رفع مستوى التدين.
٢. تعزيز التعليم.
٣. تهيئة وضع صحي ملائم.
٤. إدارة رشيدة للموارد.

تصير هذه المعالجات الأربع بمنزلة الأهداف العامة لهذه المؤسسة، ويصطلح عليها في عرف التخطيط: الأهداف الإستراتيجية، أو الغايات.

ثم يجب على المخططين أن يتعمقوا في كل هدف إستراتيجي ليحدّدُوا بالضبط ما المطلوب ليتحقق، مثلاً:

ليتحقق الهدف الثاني: (تعزيز التعليم)، فإن علينا التفكير في التالي:

أ - تعميم التعليم الأساسي لثمانين في المئة (٨٠٪) على الأقل من غير المتعلمين بحلول العام ١٤٤٠هـ.

ب - وضع مؤسسات التعليم العام والعالي على أسس الجودة الحديثة المعتمدة في التعليم.

هذان الأمران المقترحان لتحقيق (تعزيز التعليم) يسميّان في أدبيات التخطيط بالأهداف الفرعية، أو المرحلية، أو التكتيكية. ولكن ليس هذا كلّ شيء، وإشكال كثير من المؤسسات أنها تقف عند هذا الحدّ وتظنّ أنها قد أكملت تخطيطها، وأن وثيقة خطتها وافية وكافية.

لنتذكر أن ما لا يمكن قياسه، لا يمكن إدارته! كيف يمكننا أن نعرف أننا نمضي قُدماً في هدفنا الفرعي؟ كيف يمكننا أن ندرك أن جودة مستوى التعليم العام والعالي قد ارتفعت؟ هنا، وللإجابة عن هذه الأسئلة تبرز أهمية المؤشرات:

لنقيس تقدمنا في هدف: رفع مستوى جودة التعليم العام والعالي، يمكن تتبع ما يلي على سبيل المثال:

١ - نسبة العاطلين عن العمل من مجموع الخريجين: بافتراض أن التعليم الجيّد يحدث كفاءة في الخريج، وبالتالي تتوفّر له وظيفة.

٢ - مقارنة المناهج التعليمية مع مناطق أخرى متقدّمة: بافتراض أنّ التعليم الجيّد يقوم على منهج جيّد، ولا سبيل لمعرفة جودة منهج ما في إطار التقدّم في معالجة الفقر، ما لم نقارنه بالمعايير المعتمدة لجودة المناهج في الدول التي أحدثت رفاهية منضبطة لشعوبها، وهو ما يسمى أحياناً في أدبيات التخطيط بالمقارنة المعيارية Benchmarking.

٣ - درجة توفّر البنى الأساسية للتعليم: عدد المعامل- عدد المراجع المهمة لكل قسم وكلية وجامعة ومدرسة- نسبة توفّر الكتاب المدرسي لكل طالب، بافتراض أنها أساسيات حاسمة لتعليم جيّد.

وستحتاج المؤسسة إلى قياس وضع المستهدفين الحالي تجاه كل مؤشر من التي وضعتها، ومن ثمّ تحديد الوضع الذي ترغب في الوصول إليه: فعندما تنتدب المؤسسة فريقاً بحثياً لمعرفة نسبة العاطلين عن العمل من الخريجين في تلك المنطقة ، تجد أن نسبتهم -على سبيل المثال-: ٤٠٪ من مجمل الخريجين. وهو ما يسمى بالوضع الحالي للمؤشر. وتستهدف المؤسسة - بحسب تحليلها لإمكاناتها- أن تقلل النسبة إلى النصف خلال فترة الرؤية أي تصير نسبة العاطلين في مجتمع تلك المنطقة ٢٠٪، وهو ما يسمى بالوضع المستهدف، عندها يبرز سؤال مهم جداً، وهو: كيف ستسهم المؤسسة في تقليل نسبة العاطلين عن العمل إلى النصف خلال خمس سنوات؟

في هذه المرحلة تأتي أهمية طرح برامج ومشروعات تقلل نسبة العاطلين من ٤٠٪ إلى ٢٠٪، ولعلها تقترح مثلاً:

١. برنامج المشروعات الصغيرة للخريجين.
٢. مشروع التدريب الاحترافي والفنّي للخريجين.
٣. تصميم قاعدة بيانات عن الخريجين وإمكاناتهم العلمية والمعرفية والفنيّة ونشرها في الصحف المجانية.

ولنلخص ما ذكر في جدول واحد، وسنفصّل في هدف واحد فقط، مَثَلاً لبقية الأهداف:

الرؤية: (بحلول العام ١٤٥٠ هـ منطقتنا خالية من الفقر)					
الأهداف الإستراتيجية	الأهداف الفرعية	المؤشرات	الاستهداف		البرامج والمشروعات
			الحالي	المستهدف	
رفع مستوى التدين					
تعزيز التعليم	١- تعميم التعليم الأساسي لـ٨٠٪ لغير المتعلمين				
	٢- رفع مستوى جودة التعليم في مؤسسات التعليم العام والعالي	نسبة العاطلين عن العمل من الخريجين	٤٠٪	٢٠٪	١- برنامج المشروعات الصغيرة لخريجين. ٢- مشروع التدريب الاحترافي. ٣- تصميم قاعدة بيانات.
		اعتمادية المناهج			
		توفر البنى الأساسية للتعليم			
تهيئة وضع صحي ملائم					

ولكن مهـــلاً! هل انتهـــى الأمـــر؟ كلا، ليس بعد، لأن المؤشـــرات التي وضعت تظلّ افتراضية، وانبنت على هذه المؤشـــرات الافتراضية البرامج والمشروعات! وسيظلّ ملحّاً سؤالٌ مهم: هل حققت تلك البرامج والمشـــروعات تقدّماً في المؤشـــرات الموضوعة؟ وهل تعكس تلك المؤشرات الافتراضية فعلاً تحقّقُ الهدفِ من عدمه؟ وللإجابة عن هذين الســـؤالين، يجب أن تســـتصحب المؤسسةُ أهمية إنشاء وحدة مهمتها الرئيســـة: متابعة مسار هذه المؤشرات وتقييم المشروعات والتأكد من جدواها.

لقد أخذنـــا مثالاً واحداً لهـــدف واحد فقط ومؤشـــر واحد، وعندمـــا نجري هـــذه الطريقة على الأهداف كلها ســـتتوفر منظومة متكاملة من مؤشـــرات القياس، ومجموعة متآزرة من البرامج والمشـــروعات التي يفترض أن تحقـــق تقدماً في المؤشـــرات الموضوعة، ومن ثمَّ تقدماً في الأهداف الفرعيـــة، والتي يحقّـــق التقدم فيهـــا تقدّمٌ في الأهداف الإستراتيجية، التي لو تحققت، ستتحقق الرؤية بإذن الله. هكذا بذات الترابط.

أمور فنيّة تحسن مراعاتها عند وضع المؤشرات:

١ – تبنى المؤشرات وفق إطار منطقي يحقّق فعلاً قياس الهدف المطلـــوب، ويذكر المختصون في التخطيط أموراً من المهم توفرها في المؤشر وهي:

أ – القابلية للقياس: ويعني ذلك أن يكون المؤشر – قدر المستطاع – عدداً، أو نسبة، أو معدّلاً، أو حجماً، أو قيمة.

ب – الحساســـية: أي أن يكون المؤشر حساساً للقضية التي يقيسها.

ج – الارتبـــاط: أي أن يكون المؤشـــر مرتبطاً بالموضوع المراد قياسه، فلا يعقل أن يوضع مؤشر من مؤشرات سوق الأوراق الماليـــة (البورصة) ونحن نريـــد قياس تقدمنا نحو مدينة معيّنة.

ث – القابلية للتعميم: بحيث يمكن قياس الغرض في كلّ مرّة أردنا أن نقيسه فيها.

٢ – المؤشـــر في ذاته محايد، فليس من المهنيّ أن نضع مؤشراً موصوفاً بقلة أو كثرة، كأن يُقال مثلاً: من مؤشراتنا: تقليل نســـبة الذين لا يجيدون الكتابة والقراءة إلى النصف بحلول عام كذا، بل المؤشـــر هو: نســـبة الذين لا يجيدون الكتابة والقراءة، ثم يكون الاستهداف تقليلهم إلى النصف، إذ سيظلّ المؤشر – إن توافرت فيه الشروط اللازمة– قائماً ليـــدلّ على التقدّم أو التأخر فـــي الهدف المحدّد، ومن هنا جاءت أهمية أن يكون المؤشر محايداً.

ختاماً:

يتضـــح من هذا الســـرد المختصر أنّ المؤسســـات الخيرية تحتاج ما يلي لإحكام هذه الطريقة:

١ أن يستصحب القياس من لحظة البدء في التخطيط، باختيار المنهجية الملائمة، وتخصيص وقت لتحديد المؤشرات المناسبة. إنّ أحد الأسباب الجوهرية التي تجعـــل نتائج قياس الأثر ضامرة، لا تعكس الصورة الحقيقية للمجهود، هو عدم اســـتصحاب منهجية القياس مع مرحلة البدء في وضع خطة، وفي أثناء التنفيذ، على الرغم من تشديد الإداريين دائماً على مبدأ "الرقابة"، وعلى الرغم من وجود قسم "المتابعة والتقييم" في بعض المؤسســـات الخيرية؛ ولكن لا تغني هذه المبادئ أو الأقسام شيئاً إن لم تستصحب القضية منذ البدء.

٢ أن تخصّص المؤسســـات الخيريـــة موازنة للبحوث والدراسات، لأن معرفة الوضع الحالي من المؤشرات يتطلب دراسة اســـتقصائية، فإذا أرادت المؤسسة معرفة نســـبة الأمية الحالية أو الفقر، أو تفشـــي الجرائم التي تحاربها فلا بدّ لها إذاً من تخصيص موازنة للبحث والدراســـة لتضع مشـــروعاتها على بيّنة.

٣ وعلى هذا يجب أن تدرك المؤسســـات الخيرية أن بناء المؤشـــرات نفســـه أمر مكلف، ولكنه في نهاية الأمـــر مربح جداً، إذ ســـتوجّه الجهـــود بناء على إشارات معيّنة، وتبذل المؤسسة نفقات واضحة تجاه قضايا قابلة للقياس.

٤ سيحتاج الأمر ولا شكّ قدراً من الابتكار في صياغة المؤشرات، وذلك لتميز مؤشرات العمل الخيري عن غيرها من معهود المؤشرات في العمل الربحيّ.

٥ يظهر بوضوح أن إنتاج مؤشـــرات صادقة تدلّ على الأهداف، هـــو أمر توفيقٍ إلهـــيّ يُلزم الحريصين على وضع مؤشـــرات جيدة بسؤال ودعاء لله العليم الحكيـــم أن يلهمهم الرشـــد في ذلـــك، إذ هو نوع هداية، ومن يهدِ الله فهو المهتدي.

والله الموفق وعليه التكلان.

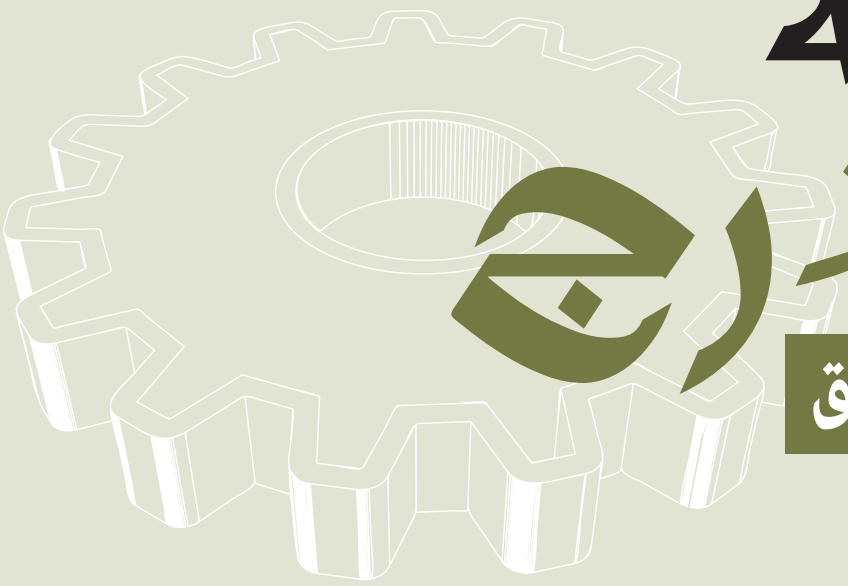

فقه التدرج

وإشكالية التطبيق

د. أمين الدميري
amindemery51@hotmail.com

من قوى الإسلام الدافعة، ومن سننه الباعثة على قبوله وبقائه سنة التدرج؛ وهي سنة ربانية في كل شيء؛ في الخلق والتكوين، وفي التربية والإعداد، وفي الدعوة والتشريع، وهي في ذلك تنسجم مع فطرة الإنسان؛ كما أن البلوغ إلى التمام وتحقيق الكمال لا يكون بجرة قلم، ولا بالطفرة؛ وإنما يكون خطوة خطوة، وشيئاً فشيئاً؛ إذ لابدَّ من التهيئة والبدء بالأهم والأساس، وفي الدعوة إلى الله – عزَّ وجلَّ –؛ فإن الأساس هو توحيد الله – عزَّ وجلَّ –، ولهذا لما بعث رسول الله ﷺ معاذاً إلى اليمن أمره أن يبدأ بالدعوة إلى التوحيد، لأن البيئة بيئة شرك، ولأن معرفة بيئة الدعوة وتوصيفها هو الذي يحدد نقطة البدء؛ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ لما أرسل معاذاً إلى اليمن قال: "إنك تأتي قوماً أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإنْ هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أجابوك؛ فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ على فقرائهم..." (أخرجه البخاري في كتاب المغازي ومسلم في كتاب الإيمان).

وفي الحديث بيان أن الدعوة في الأصل هي الدعوة إلى توحيد الله – عزَّ وجلَّ –؛ لأن التوحيد هو الأساس للبنيان؛ كما جاء في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما –: "بُني الإسلام على خمس..." أخرجه البخاري في باب (دعاؤكم إيمانكم) ومسلم في باب (أركان الإيمان)؛ فإذا خلص التوحيد واستقر في القلب، كان الانقياد بمجرد الإعلام؛ لذا قال ﷺ لمعاذ: "فأعلمهم".

ومن هنا كان العمل بشرائع الإسلام فور العلم بها، هو الدليل على الإيمان..... ومن حكمة العليم الخبير – سبحانه – أنه لم يفرض التكاليف إلا بعد أن استقر التوحيد في القلوب، وصار سلطان الإيمان أقوى من سلطان الهوى والنفس!! وفي هذا تقول السيدة عائشة – رضي الله عنها –: «كان أول ما نزل من القرآن آيات من المفصل فيها ذكر الجنة والنار،

فلما ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام...» أخرجه البخاري في باب (أركان الإيمان)، وقولها – رضي الله عنها – يفسر لنا أن مرحلة الدعوة المكية كانت معنية بشرح

التوحيـــد، وبيان مقتضياته؛ وأهمها الانقياد لأوامر الله – عزَّ وجلَّ – والرضا بحكمه، و ترويض النفوس لقبول التشـــريعات والتكاليف، والتي عَنِيَ بها القرآن المدني؛ وهاجر المســـلمون لإقامة الدين؛ لأنه لا قيام للدين إلا بإقامة الدولة، و في أقل من عامين (سبعة عشر شهراً) وقبل غزوة بدر، نزلت حزمة من التشريعات منها؛ فرض الـــزكاة، والصيام، والتوجه ناحية الكعبة (تحويل القبلة؛ للاستقلالية والتميّز؛ فلا يشترك المسلمون واليهود في توجه واحد حتى لو كان في الصلاة!!)،

ومنها فرض القتال وردُّ عدوان مشركي مكة – بعد نجاة عير أبي ســـفيان – بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وبعد انتصار بدر نزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُـمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]؛ فقد كان من أهداف هذه المرحلة؛ توطيد أركان الدولة الناشـــئة، وتحقيق أمن وتماســـك الجبهة الداخلية؛ وكيفية التعامل مع المعارضين ســـواء أكانوا يهوداً أم منافقين أم مشـــركين؛ وقد تم ذلك بما يلي:

١- بناء المسجد.

٢- المؤاخاة بين الأنصار، وبين المهاجرين والأنصار.

٣- كتابـــة الوثيقـــة التي نظمت العلاقة بين المســـلمين وغيرهم.

٤- إرسال سرايا الاستطلاع (سبع سرايا) لتأمين الطرق حول المدينة المنورة (على منورها الصلاة والسلام) والتي كان آخرها ســـرية عبد الله بن جحش؛ والتي نزل بشـــأنها – بحســـب ما جاء في كتب التفاسير والسير– قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾ [البقرة: ٢١٧]!

ثم تتابع نزول التشـــريعات والتكاليف بحسب سنة التدرج؛ وإذا كان ترتيب النزول (من اقرأ حتى النصر!!) هـــو منهج تربية علـــى العقيدة والأخـــلاق؛ فإن ترتيب المصحف هو منهج تشـــريع قائم على التدرج سواء أفي فـــرض التكاليف أم في تحريم المحرمـــات؛ وبيان ذلك فيما يلي – على سبيل المثال لا الحصر –:

١

فـــرض الصيام: فقـــد كان الحكم على التخيير أولاً، في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْـرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ ثم على ســـبيل الحتم والإلزام، في قوله تعالى: ﴿شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيـهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّـاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَـهِدَ مِنكُمُ الشَّـهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٢

فـــرض الحـــج: كان الفرض على مـــن نوى وتجهز؛ فعليه الإتمام، في قوله تعالى في ســـورة البقرة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ثم كان الإلزام في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٩٧].

٣

تحـــريم الخمـــر: فقد حرمت علـــى مراحل متدرجة – بحسب ترتيب المصحف – كما يلي:

أ– في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

ب– في ســـورة النســـاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣].

ج– في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّـنْ عَمَلِ الشَّـيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائـدة: ٩٠]، والحديث عن التدرج لـــه أبعاد كثيرة ومجالات متعددة؛ كالتدرج في الدعوة (البدء بالأهم وبالأقربين، ومراتب الاحتســـاب، والمرحلية..)، والتدرج في التربية (على أســـاس المراحـــل العمرية، وتزكية النفـــس للوصول إلـــى أعلى درجات الإيمان والإحســـان..)، وغير ذلك؛ غيـــر أن الحديث عن التدرج قد شـــاع في هذه الأيام، خاصة في قضية تطبيق الحدود الشرعية، التي غابت وأقصيـــت في معظم البلاد الإســـلامية منذ حوالي قرن من الزمان!!

واختلفت الرؤى حول كيفية التطبيق؛ هل يكون فورياً أم متدرجاً وعلى مراحل؟ وهل الآن أم بعد مرور هذه المرحلة التى يسمونها انتقالية؟.... وجدت لزاماً علىَّ أن أدلوَ بدلوي المتواضع في هذه القضية؛ خاصة أنها كانت موضع دراستي واهتمامي على مدى عشر سنوات (فقد كانت رسالة التخصص "الماجستير" في الدعوة عام ٢٠٠٤م بعنوان "خصيصة التدرج في الدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ -)، وما أريد أن أشير إليه الآن هو ما يلي:

١ توصيف المرحلة (بيئة الدعوة كما في حديث معاذ: "إنك تأتي قوماً أهل كتاب.. ")؛ فهل المرحلة مرحلة تمكين أم غير ذلك من المراحل؟ (فمراحل الدعوة أربع: التكوين التبليغ – الاستضعاف – التمكين)؛ وقد أحلت مسألة التوصيف للاجتهاد الجماعي!!

٢ الأخذ بالحكم النهائي؛ ففي مسألة الخمر كان الحكم الثاني في قوله تعالى: ﴿ **لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى** ﴾ [النساء: ٤٣]، هو حكم مرحلي؛ مع أنه حكم نهائي للصحابي "فقط "وقت نزول هذا الحكم؛ لأن من الصحابة من مات في هذه المرحلة ولم يعش حتى نزل الحكم النهائي؛ وفيمن ماتوا في هذه المرحلة نزل قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...** ﴾ [المائدة: ٩٣]، وهذه الآية جاء موضعها بعد آية التحريم (المائدة: ٩٠) "الحكم" النهائي؛ لأن بعض الصحابة – كما جاء في التفاسير – سألوا عمَّن ماتوا وقد شربوا الخمر لعدم نزول الحكم النهائي إلا بعد وفاتهم – رضي الله عنهم –! فكان حكمهم رفع الحرج والعفو عنهم.. ومن هنا نشأت قضية الأخذ بالحكم النهائي أو الحكم المرحلي عند التطبيق؛ خاصة بعد أن استحلت الخمور في كثير من بلاد المسلمين؛ وسمحت بعض الأنظمة بتعاطيها وتصنيعها والاتجار فيها وجمع ضرائبها!! وعاد الناس يسألون عن الخمر؛ كيف نطبق التحريم؟ وهل نأخذ بالتدريج؟

خاصة مع ضياع الوازع الديني، وانعدام التربية الإيمانية؛ فقد أفرزت الأنظمة الغاشمة، في كثير من البلدان، أجيالاً يصعب إعادتها إلى رشدها – إلا بقدرة الله وهدايته – وهي في حاجة إلى إصلاح الرأس والجسد!! وأرى أن التطبيق هنا يسير في اتجاهين:

الأول: إلغاء التراخيص ومنع المسلمين من الاتجار بالخمور!!

(ثمة قوانين وضعية – كما في مصر؛ وهو قانون رقم ٦٣ لسنة ١٩٧٦م مادة ١١ – تحظر الخمور في الأماكن العامة أو المحال العامة، ويستثنى من هذا الحكم: الفنادق والمنشآت السياحية..!!

أما العقوبة؛ فينص قانون العقوبات المصري – الحالي – في الفقرة ثانياً من المادة ٣٨٥، على أن يعاقب بعقوبة المخالفة؛ وهي الغرامة التي لا تتجاوز جنيهاً مصرياً، أو بالحبس مدة لا تزيد على أسبوع؛ كل من وجد بحالة سكر بيّن في الطرق العامة أو في المحلات العامة": الفقه الجنائي الإسلامي للمستشار محمد بهجت عتيبة ١٩٩١م ط. معهد الدراسات الإسلامية ص.٣٤٧").

الثاني: إقامة معسكرات للمدمنين (علاج. تعليم. تثقيف. رياضة. مزاولة أنشطة إنتاجية وخدمية...)؛ لتحويلهم إلى صالحين مصلحين ومنتجين!!

٣ بـــين التدرج والأولويات:-- التدرج هو تأصيل لمرحلية العمل؛ وهو فقه الانتقال من مرحلة إلى أخرى؛ وقرار (أو فتوى) الانتقال إنما هو قرار محوري (إستراتيجي)؛ يتوقف عليه تحويل الأهداف إلى وسائل وبالعكس، كما يتوقف عليه مدى ما تقدمه الحركـــة من تضحيات ومن ثمـــن!! إذ إن لكل مرحلة أهدافها ووسائلها (الموافقة للشرع)؛ وقد تتحول الأهداف في مرحلة ما إلى وسائل في مرحلة أخرى؛ كما في حال مرحلة الاستضعاف؛ فـــإن الصبر مـــع التهيئة المعنوية للجهاد؛ يُعـــد هدفاً، ثم يكون الجهاد - مع الصبر- في مرحلة تالية وســـيلة لغاية أخرى؛ هي إقامة الدين، وإعلاء كلمة الله - عزَّ وجلَّ -.

أمـــا الأولويات فهـــي تأصيل لنوعية العمـــل داخل المرحلة الواحـــدة (بعد توصيفها)؛ بحســـب قاعـــدة: "واجب الوقت" و "أفضـــل الأعمال؛ أفضلها لوقتها"، كمـــا هو معلوم.. ففي حال عدم التمكين يكون الصبر وتحمل الأذى وضبط النفس، مع ترك الانشـــغال بالأهداف الجزئية، والاهتمام - فقط - بالأهداف الكلية، كما يكون الإعداد والتهيئـــة لقبول التكاليف، وفي حال التمكين يراعى - في الناس وفي البيئة - حداثة العهد بالشرك وبالمعاصي؛ فقد ألف الناس - على مدى ثلاثة أجيال - الأحكام البشـــرية الوضعية، وقضية التحول مـــن النظام «الديمقراطي المدنـــي»؛ إلى النظام الإســـلامي؛ لابدَّ أن يراعـــى فيه ما ألفه الناس وتشـــربوه على مدى ســـنين طويلة، ودرجت عليه أجيال متتابعة، ولعـــل ما قاله وأراده النبي ﷺ لعائشـــة كان من هذا القبيل؛ فقد بـــوب البخاري - رحمه الله تعالى - في باب (من تـــرك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهـــم بعض الناس عنه، فيقعوا فيما هو أشـــد منه) كقول النبي ﷺ: "يا عائشة؛ لولا أن قومـــك حديث عهدهم ـ أي بكفـــر ـ لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، باباً يدخل منه النـــاس، وباباً يخرجون منه "؛ يقول ابن حجـــر - رحمه الله تعالى -: (وفي الحديث معنى ما ترجم له، لأن قريشاً كانت تعظم أمر الكعبة جداً، فخشي ﷺ أن يظنوا - لأجل قرب عهدهم بالإســـلام - أنه غيّر بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك..؛ ويســـتفاد منه تـــرك المصـــلحة لأمن الوقوع في المفســـدة، وفيه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع فما هو أشد نكراً (والإمام - ولو كان مفضولاً - إنما يســـوس رعيته بما فيه إصلاحها ما لم يكن محرماً..) انظر: فتح الباري جزء١ ص١٨١ - دارإحياء التراث العربي بيروت.

ومن هنا نـتبين أهمية مراعاة حال الناس وما درجوا عليه، وكـــذا حال الفئة المؤمنة؛ وهي التي تتحمل تبعات التغيير، ويناط بها إمكانية الانتقال من مرحلة إلـــى مرحلة؛ وهو فقه المرحلية؛ وهي (أي المرحلية) سنة التدرج.. وأختم بما ذكرته من حكمة التدرج:

١ تسهيل قبول الدعوة؛ وهو تيسير من الله تعالى على عباده؛ لأنه يعلم طبائعهم وضعفهم..

٢ الإعانـــة على الإعداد والإحكام؛ فما من دعـــوة أو جماعة تقوم بنشـــر فكرة أو مذهب أو عقيدة بين النـــاس أو تريد إقامة نظام، إلا وهي تحتـــاج إلى إعداد كبير وتهيئـــة للبيئة التي تريد أن تغـــرس فيها بذور دعوتهـــا؛ لتنبت منها خيراً وتوفيقاً..

٣ علاج النفور من كثرة التكاليف؛ فلا يغيب عن بال قليل الخبرة بالناس أن التكاليف بالكثرة ممَّـــا لا يطيقه الناس، ولا يتحملونه؛ فيدعو ذلك للنفور والإدبار... فكانت الحكمة قاضية بالتدرج.

الثقة واليقين برب العالمين

عبد العزيز الشامي(*)
Omarez1973@hotmail.com

عندما ينظر الإنسان في نفسه وأحوال الناس من حوله يجد أموراً عجيبة، فكثير من الناس قد لا يجد من الدنيا كثير مال، ولا كثير متاع، ومع ذلك فهو ساكن النفس، راضٍ مطمئن القلب، مستريح البال، بينما غيره ممن ملكوا الأموال والوظائف والأرصدة والحسابات، تجدهم أصحاب أنفس قلقة، وقلوب وجلة، فواعجباً من اطمئنان مع القلة، وذلك طريق من طرق اليقين، وواعجباً من قلق مع الكثرة، وذلك من أسرع طرق الشك والريبة.

حكى أحد العاملين في الحقل الدعوي عن نفسه قائلاً: قديماً كنت أخرج مع مجموعة من أقراني ونحن فتية نعمل في أعمال المزارع والحقول بالأجرة، وكنا نعمل يوماً بيوم، كنا نخرج لمكانٍ ما يجتمع فيه الفتيان وأصحاب المزارع، فيأخذ أصحاب الحقول من العمال ما يريدون، ثم ينصرفون بهم إلى مزارعهم، يقول: ومع أن العمل كان يوماً بعد يوم، كنت تجد حسن توكل على الله، ورضاً ويقين في الله، واليوم .. يوم صار للفرد الوظيفة والراتب، لا أجد هذا اليقين الذي كنت أجده في الشباب أيام العمل في الحقول!!

ما أحوج الأمة في هذه الأزمان إلى اليقين في الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى، السماء بناها، والجبال أرساها، والأرض دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، يبسط الرزق، ويغدق العطاء، ويرسل النعم - سبحانه وتعالى -.

اليقين بالذي كلّ يوم هو في شأن: يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين، يحيي ميتاً، ويميت حياً، ويجيب داعياً، ويشفي سقيماً، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، يجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلّم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويُرشد حيراناً، ويغيث لهفاناً، ويفك عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مبتلى، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويؤمن روعةً.

اليقين في الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأوجد وأبلى، ورفع وخفض، وأعز وأذل، وأعطى ومنع، ورفع ووضع. وحده لا شريك له.

اليقين في التواب الرحيم رب العالمين الذي مَن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب، ومن ترك من أجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد رضاه أراد ما يريد، أهل ذكره هم أهل مجالسته، وأهل شكره هم أهل زيادته، وأهل طاعته هم أهل كرامته، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته؛ إن تابوا إليه فهو حبيبهم، وإن لم يتوبوا فهو رحيم بهم، يبتليهم بالمصائب ليطهّرهم من المعايب، الحسنة عنده بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عنده بواحدة، فإن ندم عليها واستغفر غفرها له، يشكر اليسير من العمل، ويغفر الكثير من الزلل.. سبحانه وتعالى.

(*) باحث شرعي وكاتب ومدقق لغوي- مصر.

وعندما يستسلم العبد لله – جلَّ وعلا –، ويوقن به، ويستشعر العزَّ في وحدانيته، والقوة في أن ربه واحد أحد فرد صمد، لا شريك له ولا ولد، عزَّ عن النظير والشبيه، ما اتخذ من ولد وما كان معه من إله، يستشعر الفخر والعزة؛ إذ ليس فيه شركاء متشاكسون، بل هو سَلَم لسيد واحد ورب واحد، فلا آمر له سواه، ولا متصرف فيه غيره، ولا مدبر للأمور إلا الله الواحد الأحد، – سبحانه وتعالى وعز وجل –.

لا بدَّ لنا من اليقين بأن في القلب شعثاً لا يلمّه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى لقائه، وفيه فاقة لا يسدّها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبداً – سبحانه وتعالى –.

وكثيراً ما توقظ آيات القرآن الكريم القلب البشري للتأمل والتدبر، واستجلاء العجائب في هذا الكون الهائل، غير أنه لا يدرك هذه العجائب، ولا يستمتع بالرحلة في هذا المتاع، إلا القلب العامر باليقين؛ قال رب العالمين: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

منزلة اليقين وعلاماته:

إن اليقين، والرضا بقضاء الله وقدره من أعظم الأسباب المعينة على الثبات؛ ذلك أن اليقين هو جوهر الإيمان، فاليقين روح أعمال القلوب، التي هي روح أعمال الجوارح. ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل ريب وشك، وكل سخط وحيرة، وكل همّ وغمّ. وإذا وصل اليقين إلى القلب امتلأ بمحبة الله.. والخوف منه.. والرضا به.. والشكر له.. والتوكل عليه.. والإنابة إليه.. والتوجه إليه.. والأنس به.. وعدم الالتفات إلى غيره. واليقين لا يساكن قلباً فيه سكون لغير الله. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد ذكر النبي ﷺ اليقين، وحض عليه، ورفع من شأنه في كثير من الأحاديث، فجعل من أهم أسس صلاح الأفراد والأمة كلها حصول اليقين، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل"(١).

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٨٤٤) وصححه الألباني.

وقام أبو بكر أول خليفة لرسول الله ﷺ مذكراً الأمة بأهمية اليقين، فقد قام على المنبر بعد وفاة النبي ﷺ، ثم بكى، فقال: قام رسول الله ﷺ عامه الأول على المنبر، ثم بكى، فقال: اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية"(٢).

وكان ﷺ يوصي أصحابه باستصحاب اليقين في العمل، فكان يقول: "واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً"(٣).

وكان ﷺ كثيراً ما يدعو ربه بصحة اليقين وسلامته ودوامه، فعن أبي جعفر أن رسول الله ﷺ كان يقول: "اللهم إني أعوذ بك من الشك بعد اليقين"(٤).

وحذَّر ﷺ من ضعف اليقين الذي يؤدي بالإنسان إلى إرضاء المخلوق بما يسخط الله، فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أنْ تُرْضِيَ الناسَ بِسَخطِ الله تَعالى، وأنْ تَحْمَدَهمْ على رِزْقِ الله تعالى وأنْ تَذُمَّهُمْ على ما لمْ يُؤْتِكَ الله تعالى، إنَّ رِزقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ إلَيْكَ حِرْصُ حَرِيصٍ، ولا يَرُدُّهُ عنك كَرَاهَيةُ كارِهٍ، وإنّ الله بحِكْمَتِه وجَلالِه جَعَلَ الرَّوْحَ والفَرَجَ في الرِّضا واليَقِينِ، وجَعَلَ الهَمَّ والحُزْنَ في الشَّكِّ والسُّخْطِ"(٥).

وكان النبي ﷺ يرشد أصحابه إلى سؤال الله اليقين، فاليقين بالله والثقة به تخفف المصائب، فعن ابْنِ عُمَرَ – رضي الله عنهما – قَالَ: " قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا..."(٦).

والصبر على المصائب من مقامات اليقين، فأحسن الناس صبراً عند المصائب أكثرهم يقيناً، وأكثر الناس جزعاً وسخطاً في المصائب أقلّهم يقيناً. فشدة الغمّ على فوت الدنيا دليل على حبّها، وعلامة ضعف اليقين بمحبوبه، وسهولة الغمّ على فوتها دليل على الزهد فيها وقوة اليقين بربّه. وقد قال سفيان الثوري: "اليقين ألَّا تتهم مولاك في كل ما أصابك"(٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)، وابن ماجه (٣٨٤٩)، والنسائي في الكبرى (١٠٧١٨) وصححه الألباني.
(٣) أخرجه أحمد (٢٨٠٤) والطبراني (١١٢٤٣).
(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٩١٤٤).
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦)، وضعفه الألباني.
(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٢٥).
(٧) حلية الأولياء ٧/٩.

وإذا استحكم اليقين في القلوب، فإنَّ صاحبه لا يعرف اليأس مهما طال الليل، وأهل اليقين لا يعرفون اليأس، وبالتالي فمهما وقع عليهم كأفراد أو الأمة كلها من مصائب، وبلايا، ومحن ونكبات، وتسلط الأعداء، ومهما امتد الظلام، فهم يثقون في الله، ويوقنون بربهم، فالليل مهما طالت ساعاته ومهما اشتدت ظلمته، فإنه يزول وينفلق عن بياض الصبح، فمع الفقر غنى، وبعد المرضِ عافيةٌ، وبعد الحزنِ سرورٌ، وبعد الضيق سَعَةٌ، وبعد الحبسِ انطلاقٌ، وبعد الجوعِ شبعٌ، فسوف يبدل الحال، وتهدأُ النفسُ، وينشرحُ الصدر، ويسهل الأمرُ، وتحل العقدُ، وتنفرجُ الأزمةُ.

وإن اليقين يورث صاحبه أموراً جليلة عظيمة، ويؤثر في سلوكه فوائد جمة: فهو يزيد العبد المسلم قرباً من الله – عزَّ وجلَّ –، وحبّاً، ورضاً بما قدره وقضاه، وهو لُبُّ الدين، ومقصده الأعظم، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعاً لربه وخالقه – جلَّ جلاله –، كما أنه يكسبه رفعة، وعزة، ويبعده عن مواطن الذل والضعة، كما أنه يحمل صاحبه دائماً على الإخلاص والصدق، وتحرّي ذلك في كل أعماله، واليقين يضبط العلاقة بين العبد وربه، ويجعل العبد يلتزم الإخلاص، والصدق، والمراقبة، وفعل ما يليق، وترك ما لا يليق في تعامله مع ربه، ومع الآخرين.

اليقين عند السلف:

وقد عظم السلف – رضوان الله عليهم – اليقين ورفعوا من شأنه، فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: "الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"(١).

وكان عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – يقول: "وخير ما أُلقي في القلب اليقينُ، وخير الغنى غنى النفس، وخير العلم ما نفع.. وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع، فلا تُملُّوا الناس ولا تسأموهم"(٢).

وكان سفيان الثوري – رحمه الله – يقول: "لو أن اليقين استقر في القلب كما ينبغي لطار فرحاً وحزناً؛ شوقاً إلى الجنة، أو خوفاً من النار"(٣).

قال ابن القيم –رحمه الله–: "إن أفضل الأحوال: الرغبة في الله ولوازمها، وذلك لا يتم إلا باليقين والرضا عن الله، ولهذا قال سهل: حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر رغبتهم في الله"(٤).

وحصول اليقين في القلوب علماً وعقيدة وثقة واطمئناناً، يجعل بعض الناس أئمة وسادة وقادة بين الناس، فقد كان السلف يقولون: "بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين"، قال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤](٥).

مفسدات اليقين:

إنَّ ممَّا ينافي اليقين أن يكون القلب متطلعاً إلى غير الله – عزَّ وجلَّ –، متعلقاً به، ملتفتاً إليه، ولهذا قال بعض السلف: "حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه السكون إلى غير الله – عزَّ وجلَّ –، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء ممَّا يكرهه الله – جلَّ جلاله –"(٦).

ومما يضعف اليقين في القلوب: الإصغاء إلى الشكوك، والريب، والأمور التي تجلب ذلك: بسماع الشبه، وسماع كلام المخذلين، والمثبطين الذين يثبطون عزائم المؤمنين، ويوهنونهم، ويحثونهم على القعود عن التزام صراط الله – عزَّ وجلَّ – المستقيم، فهؤلاء الذين قَلَّ يقينهم إذا استمع العبد منهم؛ فربما سبّبوا له شيئاً من ضعف اليقين، حين ذلك يورثه قلقاً، وانزعاجاً، واضطراباً، وهذا يخالف اليقين؛ لأن اليقين طمأنينة، وثبات واستقرار، كما قال ابن القيم – رحمه الله –: "الشك مبدأ الريب كما أن العلم مبدأ اليقين"(٧).

فكن –أخي– على يقين بربك، وثقة فيه، فلا تحمدَنَّ أحداً على فضل الله، ولا تذمنَّ أحداً على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره. سبحانه، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله، ولا يعترض عليه ذو عقل بعقله!!

سبحانه، قد يعطي وهو يمنع، وقد يمنع وهو يعطي، وقد تأتي العطايا على ظهور البلايا، وقد تأتي البلايا على ظهور العطايا. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٧٤).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٩٨).
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٨).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٢).
(٥) مدارج السالكين ٢/ ١٩٦ ، والفوائد ص ١٩٩.
(٦) روضة المحبين ص٤٣٩.
(٧) بدائع الفوائد ٤/ ٩١٣.

جوال

الكبير

للإشتراك
ارسل رسالة فارغة

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

zain ٧٠٤٠٤٧

رسائلنا تحكي أهدافنا

ضغط اللحظة الراهنة

فهد بن صالح العجلان
Fsalehajlan@hotmail.com
@alajlan_f

كانت قضية (المعجزات) في مرحلة زمنيةٍ قريبة من أسخن القضايا التي أربكت عدداً من المؤلفين والمفكرين في الفكر الإسلامي المعاصر.

قبل هذه المرحلة، لم يكن مكوث قضية المعجزات في دائرة القضايا الشرعية البدهية يثير أي إشكال، حيث إنها من دلائل صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كما قال ربنا - تعالى - عن موقف كثيرٍ من الكفار ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥] وقد قصَّ الله - تعالى - في القرآن الكريم عدداً من معجزات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كمعجزة موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - قال - تعالى -: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه: ٦٩] وقال أيضاً: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] كما اختص نبينا محمد ﷺ بمعجزات كثيرة تضافرت في تأكيدها الروايات الصحيحة.

كان القلق ناتجاً من هبوب موجة استنكارات عنيفة من المثقفين الغربيين عن حال المعجزات التي ما عادت جذابة للعقل الغربي، فهي لديهم أقرب لفكر الخرافات والأساطير التي تجاوزها الزمان، فما عادت مستساغة في زمن تأليه العقل، وتقديس الفكر المادي التجريبي، غدت معه المعجزات مادة تندُّر واستهجان من رجالات الغرب، وكنز أسئلة يلاحقون بها من يلتقون به من العلماء والمثقفين المسلمين.

هذا المزاج الغربي صاحبه حال إلحاد وجحود عن الدين لدى أوساط كثيرٍ من المثقفين المسلمين، بما عزز في وعي كثير من المؤلفين ضرورة تقديم خطاب عقلاني مناسب يحفظون فيه الدين الإسلامي من سياط النقد الغربي، ويحمون شباب الإسلام من حال التفلت عن الدين، فكان لا بدَّ من إعادة قراءة التراث الإسلامي؛ لتخليصه من قصص المعجزات التي غدت معيبة في تلك اللحظة.

كتب حينها محمد حسين هيكل كتابه الشهير (حياة محمد) جرَّد فيه سيرة النبي ﷺ من كافة الآثار والسنن الواردة في معجزاته ﷺ، وجعل معجزته الوحيدة هي القرآن الكريم فقط،

وقد قدَّم له أحد العلماء المشهورين ووافقه فيما ذهب إليه.

وأما الروايات الصحيحة فلا اعتبار لها لأن (مضرة الروايات التي لا يقرُّها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة).[1] فضرورة الواقع تفرض تجاوز مثل هذه الأخبار (ولو أنهم – أي رواة الحديث- عاشوا إلى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الإسلام ما ذكروه منها حُجَّة على الإسلام وأهله لالتزموا ما جاء به القرآن الكريم)[2].

وكان المزاج العصري الرافض لقضية المعجزات حاضراً حتى في تفسير آيات القرآن الكريم، فالآيات التي تتضمن معجزات سابقة يتم التعامل معها بطريقة تزيل عنها وصف الإعجاز حتى تكون حكماً معتاداً على وفق سنن الطبيعة، كمثل تفسير هلاك الفيل بالطير الأبابيل الوارد في كتاب الله ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٣ – ٥] بأنها جراثيم الطاعون إذ لا مانع من تسميتها طيوراً، أو أنهم قد أصيبوا بمرض الجدري أو الحصبة حتى ماتوا، فالطير الأبابيل إنما هو بعوض أو ذباب ناقل للأمراض.[3]

وحتى ما لم يصبه التحريف من المعجزات السابقة، فلم يسلم من حال التهوين منها كتفسير المعجزات السابقة بأنها أدلة مناسبة لضعفاء العقول؛ فكانت المعجزات (لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان).[4]

وعلى نفس المنوال جرى الكلام على بقية المعجزات الواردة في القرآن الكريم، وتبع ذلك تأويل عدد من المغيبات التي لا يتقبلها المزاج المادي الغربي كتأويل الملائكة بأنها قوى وأرواح مودعة في الكائنات الحية وهي قوى الطبيعة، وتأويل الشيطان بأنه ما يدفع إلى الشر، ومن النتيجة البدهية بعدها أن يتم تأويل وإنكار أخبار الدجال والسحر ونزول عيسى وأشراط الساعة وغيرها [5].

هذه الحال آلمت عدداً من العلماء الذين شعروا أنها حال عبث وتحريف لأحكام الإسلام، وجزموا بأنها ثمرة انهزام أمام مدِّ الثقافة الغربية، فكتب في تلك الحقبة بكل قوة وثبات شيخ الإسلام مصطفى صبري موسوعته الشهيرة (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) ومن الملفت للنظر أن أغلب مباحث هذا الكتاب كانت في مناقشة قضايا الغيب والمعجزة بما يكشف عن حجم تأثير وقلق هذه القضية في تلك المرحلة.

لم تكن الحركة النشطة آنذاك لتأويل المعجزات نابعة من رفضٍ للشريعة أو انتقاص من مكانتها؛ بل ظاهر جداً أن الحفاظ على الإسلام والدفاع عن حرماته، والخوف عليه وضرورة تقديم صورة حسنة إلى الغرب هو الهاجس العميق الذي كان يسكن قلوب كثيرٍ ممَّن تأثر بهذه الموجة، فهم يشعرون كما يقول السيد رشيد رضا: «إن المعجزات هي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»[6]

وكانت قلوبهم معلقة بهداية الغربيين، ولو وصل ذلك إلى تجاوز خطير بلغ حدَّ القول: «إنه لولا حكاية القرآن الكريم لآيات الله التي أيدَ بها موسى وعيسى – عليهما السلام – لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر واهتداؤوهم به أعمُّ وأسرع)[7].

طبعاً هذا لا ينفي خضوع العقل لسطوة المفاهيم الغربية لحد القول (ممَّا يدلُّ على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات تكذيب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة وهو وإن كان تهوراً منهم إلا أنهم مصيبون في قولهم إننا في زمان لا يجدي فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي).[8]

ومضت تلك الحقبة، ورصد التاريخ مقولاتها وإشكالاتها التي تكشف عن طبيعة المؤثرات التي كانت توجه الفكر الإسلامي.

فتش الآن عن حضور قضية المعجزات في الفكر الإسلامي المعاصر، هل سؤال المعجزة من القضايا القلقة والأسئلة المشكلة التي تتزاحم الدراسات والمؤتمرات في مناقشتها وإزالة الشبهات عنها؟

المسلم المعاصر الآن يدرك بوضوح أن هذا السؤال – وإن بقي حاضراً عند بعض الفئات- فما عاد له ذاك التأثير، ولا تكاد كثير من البحوث والدراسات الإسلامية المعاصرة تتطرق للموضوع من الأساس، وربَّما يشدُّ المسلم حاجبيه متعجباً من حال التحفز والتعسف في تأويل المعجزات، فلا يجد في الأمر ما يستحق كل هذا.

---

(١) حياة محمد ٥٤.

(٢) حياة محمد ٥٤.

(٣) انظر بعض هذه الأقوال في منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير للدكتور فهد الرومي ٧٢٢–٧٢٤.

(٤) تفسير المنار ١/٣١٥.

(٥) انظر عدداً من هذه التأويلات في: التجديد في الفكر الإسلامي لعدنان أمامة ٣٩٤–٤٠٠.

(٦) تفسير المنار ١١/١٥٥.

(٧) تفسير المنار ١١/١٥٩.

(٨) الإسلام والمدنية لفريد وجدي ٧١–٧٢ نقلاً عن منهج المدرسة العقلية الحديثة ٥٤٩.

إنه قلق مرحلة زمنية، وضغط حـال مؤقتة، ضعف دافعه فذهبت معه كافة الإشكالات المصاحبة له.

وعاش الفكر الإسلامي بعده مراحل زمنية أخرى انتعشت فيه قضايـا أخرى وأحدثت من الإرباك ما أحدثته المعجزة في تلك الفترة، فجاءت قضية الاشتراكية والقومية وغيرها، وتكرر في كل قضية منها نفس المشهد: تشكيك في الأحكام الشرعية المعارضة لهذه الهزات المؤقتة، يتبعه اسـتنكار شائع، ثم حركة تأويل وتعسف من قبل بعض الناس، ثم لا يسلم من الخطأ فيها بعض أهل العلم والفضل.

حين تضع هذه الصور التاريخية أمام عينيك وتدقق النظر فيها يتجلى لك هذا المعنى العظيم:

ضرورة (الاستمسـاك بالأصـول الشـرعية والمحكمات الإسـلامية) وأهمية (التماسـك المنهجي فـي الأخذ بأحكام الإسـلام) وألَّا يخضع المسـلم لضغط مرحلة زمنية ما، فتكون سـبباً لتحريف الأحكام والعبث بالتصورات وإحداث أشـكال التلفيق بين مفاهيم الإسلام والمفاهيم المزاحمة، فالعبرة باتباع الحـق وليس بموافقة المـزاج العام، فهذا المـزاج والجو العام عرضة للتقلبات السـريعة والهزات العنيفة فلا يليق بمَن يعظِّم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ -خاصة من أهل العلم المؤتمنين على بيان الشريعة- أن يكون ضغط هذا المزاج مؤثراً على تصوراته ومفاهيمه الشرعية.

إنك حـين تتحدث عن قضايا شـرعية فأنت تتحدث في الدين الذي يريده اللـه للناس جميعاً، فلا تكن حبيس اللحظة الراهنة التي تعيشها، وأسـير الفضاء الذي يحيط بك ، فلعل من يقرأ كتابك ممن يعيش في أزمنة لاحقة وأمكنة مختلفة هم أضعاف من قرأه وكان متفهماً لحالة القلق التي عاشها الكاتب، ولعل هذا يفسـر بعض حالات الشـذوذ الفكري والفقهي التي نستنكرها ونتعجب من صدورها.

إن الرؤيـة التي تكون أمام منظار المسـلم هي (البحث عن مراد الله ومراد رسـوله ﷺ) وخارطـة التفكير لديه يجب أن تكون السـير خلف الدلائل الشرعية، والابتعاد عن أي صوارف عارضة.

فالمنهج الشـرعي فـي إصابة الحق ليـس مرتبطاً بكثرة قـال - تعالى -: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ [**الأنعام**: ١١٦] وقال أيضـاً: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [**يوسف**: ١٠٣] ومن المفاهيم المتقررة في وعي المسلم مفهوم الطائفة المستمسـكة بالحق التـي: (ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللـه) ومن مأثور الصحابة : (الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك) فرسـوخ هذا المعنى في وعي المسلم يجعل البحث عن الحـق هو المعيار الوحيد الذي يبـدد كل المؤثرات التي تضغط على العقل المسلم.

ثم إن عوارض كثيرة تصرف المسـلم عن إصابة الحق، ومن المهم أن يجتهد كل مسلم في محاولة التخلص من كافة دوافعها قدر المسـتطاع، ومنها العوارض المتعلقة بالواقع الذي لا يتقبل بعض الأحكام الشـرعية، فمثل هذا الواقع يدفع المسـلم لئن يتخففَ مـن بعض الصرامة العلميـة الواجبة، وهو من جنس الهوى الذي نهت الشريعة عنه قال - تعالى -: ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ [**ص**: ٢٦] ﴿**فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**﴾ [**ص**: ٢٦].

إن الدفاع عن الإسـلام، وضرورة تقديم صورة حسنة له، وضرورة حماية الشـباب من الانحراف مقاصد نبيلة وغايات شـريفة؛ لكنها لا تبرر التهاون في تحريف أي حكم شـرعي، كمـا أن التحرز من ضغـط اللحظة الراهنـة لا يعني إهمال الاجتهـاد المبني على المنهج الفقهي في الوقائع المتجددة للنظر في متغيراتها وأوصافها المؤثرة، وما يطرأ عليها من ضرورة أو حاجة، فهذا اجتهاد فـي الواقع وليس خضوعاً لضغط لحظة راهنة.

ضغط اللحظة الراهنة موجود فـي كل زمان ومكان، وهو دافع عميق لتجاوز عدد من الأحكام الشـرعية التي لا تنجسم مع اللحظة الراهنة، ليس لأن الدليل لا يدلُّ عليها، ولا لأن العقل لا ينصرهـا؛ بل لأن المزاج العـام لا يجعل لدلائلها ذاك الوهج المقبول، فيجد المسـلم ضغطاً عميقاً في نفسه، يجعله يتخفف مـن الصرامة العلمية ومنهجية التحري والتدقيق المطلوبة، فإنْ كانت لمن قبلنا لحظات مع المعجزات والاشتراكية والقومية، فإن لحظتنا الراهنة قد اندفعت نحو مفاهيم أخر، ما زالت تمارس عبثها في عقول كثير من المسلمين، فأعملوا عقولهم في أحكام الإسلام تلفيقاً وتأويلاً وتغييراً برؤية غير علمية، ولا منسجمة مع الأصول والقواعد الشـرعية، وهـي مرحلة زمنية لا بدَّ أن تنتهي فيتضح من كان سـائراً مع النص وبراهينه ودلائله ممَّن وقع تحت أسر ضغط لحظةٍ راهنةٍ قد انتهت!

الانتخابات المصرية... رئيس أم مرؤوس؟

كلمة رئيس، مأخوذة من (الرأس) والرأس دائماً هو الذي يقود الجسد إلى ما يصلحه، أما إذا كان الجسد أو بعض أعضائه هو القائد المسير للرأس، فهذه صورة تخيلية هزلية، ولكنها - وللأسف - كانت في بعض مواضع التاريخ والجغرافيا حقيقة واقعية!

هل سيكون المسؤول الكبير القادم على قدر المسؤولية، هل سيكون رأساً في الأمر، يستشير ثم يدير، أم أنه سيكون ناقص الصلاحية مائع الشخصية، يسيره أصحاب الرتب العسكرية، أو الشباب الثائر لمجرد الثورة بلا روية؟ أم توجهه كيانات لها علاقاتها ومصالحها في الداخل أو الخارج؟!

الانتخابات القادمة في مصر، هي الحَكَم الفاصل على نجاح الثورة المصرية أو عدمه، وهذا الحكم - بلا شك - سيظل سراً مكتوماً يكتب بحروف قليلة داخل الصناديق الشفافة، أو التي ينبغي أن تكون شفافة، حتى يتم الإعلان عن مستقبل الثورة في مصر، وربما في غيرها يوم ٢١ يونيو ٢٠١٢م.

من أحكام السياسة الشرعية
في الانتخابات الرئاسية المصرية

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

من النتائج المهمة التي أسفرت عنها الثورات العربية المعاصرة بعث الحياة في علم كاد أن يذبل ويُقْتَصر الكلام فيه على قاعات الدرس في الجامعات والمعاهد العلمية وهو علم السياسة الشرعية، فبعد أن طغى الدخيل من السياسات وغيرها على الساحة في بلدان المسلمين ممَّا حجم من الالتفات إلى علم السياسة الشرعية والاعتناء به، إذا بالثورات تعيده إلى صدارة الأولويات فصرنا نسمع عنه في الدروس العلمية والمحاضرات والندوات والأسئلة والاستفسارات وفي البرامج الفضائية بعد أن كان نسياً منسياً.

من المسائل التي تحتاج اليوم للنظر إليها من وجهة نظر السياسة الشرعية مسألة الانتخابات الرئاسية في مصر.

الانتخاب الرئاسي: يعني اختيار شخص من بين عدة أشخاص يسبقه قبل ذلك وجود أكثر من طالب أو مرشح للرئاسة يكون الاختيار من بينهم، وهذه المسألة تعني وجود أكثر من قضية متعلقة بأحكامها فمن ذلك:

أولاً: حكم طلب الولاية.

ثانياً: صفات من يجوز توليته.

ثالثاً: صفات من يختار أو ينتخب.

رابعاً: ما العمل إذا تعارض الواقع المعمول به مع الحكم الشرعي.

أولاً: حكم طلب الولاية أو الترشح لرئاسة الجمهورية:

الأصل الذي تدلُّ عليه النصوص الشرعية أن المسلم ليس له أن يطلب الدخول في الولاية؛ لأنه باختياره هذا الأمر يُعرِّض نفسه لبلاء قد لا يطيقه ثم لا يجد على ذلك عوناً من الله تعالى:

وإذا لَمْ يكُنْ عَونٌ من اللهِ للفَتى
فأوَّلُ ما يَجني عليه اجْتِهادُهُ.

أما إذا طُلِب لها أو فُرضت عليه فإنه ما يزال معه من الله معين:

وإذا كان عون الله للمرء شاملاً
تهيأ له من كل شيء مراده.

وقد دلَّ على ذلك الحديث المشهور عندما قال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة - رضي الله عنه -: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها»[1]، وقوله لأبي ذر - رضي الله تعالى عنه -: «يا أبا ذر، إني أحب لك ما أحب لنفسي، وإني أراك ضعيفاً، فلا تأمرنَّ على اثنين، ولا تلينَّ مال يتيم»، وقوله ﷺ لأبي ذر عندما سأله: «ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[2]، وقال لعمه العباس - رضي الله عنه - حينما قال له: «يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فقال: يا عباس يا عم رسول الله ﷺ؛ نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها»[3].

كما دلَّت النصوص على أن من طلبها فلا ينبغي أن يُجاب طلبه كما جاء في حديث أبي موسى: «قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أمرنا على بعض ما ولاك الله - عزَّ وجلَّ -، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «إنا والله لا نولي على هذا العمل أحداً سأله، ولا أحداً حرص عليه»[4]، ومنهج الإسلام في ذلك أن الولاية الصغرى يتولاها المرء بتولية صاحب الولاية الكبرى له، وأما الولاية الكبرى التي هي الرئاسة العليا للدولة فلا يطلبها المرء وإنما تعرض عليه ممن له الحق في إسنادها إليه، ومن هذا يتبين أن طلبها أو الترشح لها - سواء أكانت صغرى أم كبرى؛ ليس طريقاً مقبولاً من وجهة النظر الشرعية، غير أن هذا الحكم ترد عليه بعض الاستثناءات فمن ذلك:

١- عندما ينحصر الصلاح للولاية في شخص واحد بحيث يكون هو الصالح الوحيد لها وما عداه لا يصلح لها، ولا ينبغي أن يكون التفاوت هنا تفاوتاً في مزيد الصلاح ولكنه تفاوت في أصل الصلاح كأن يكون أحدهما جامعاً لأركان الصلاح وواجباته، ويكون ما عداه ناقصاً عنه إما في الأركان وإما في الواجبات وإما في كليهما، أما إذا كان التفاوت في مزيد الصلاح بعد أن يستويا في أركانه وواجباته فإن المزيد في الصلاح لا يجيز لأحد الصالحين طلبها ما دام أن هناك من يشاركه في الصلاح الواجب، على أنه لا ينبغي أن يقتصر رؤية انحصار الصلاح للولاية في شخص على مجرد رؤية الشخص نفسه لأن الإنسان قد يرى في نفسه ما ليس حقيقياً لفرط ثقته في نفسه ومزيد تقديره لها، بل ينبغي أن يراه الناس كذلك أو يقدم هو من البراهين والأدلة التي يقتنع بها الناس على صدق رؤيته لنفسه، والأصل في هذا الاستثناء طلب يوسف - عليه السلام - من ملك مصر في زمنه الولاية التي بمقتضاها يتصرف باجتهاده في خزائن مصر، وقد كان الملك وقتها يراه كذلك أي أن الصلاح منحصر فيه لسابق تأويله للرؤيا التي تدلُّ على علمه وكفاءته، وقد ذكر هو من الدليل على مقدرته وكفاءته أنه حفيظ عليم قال يوسف - عليه السلام - عندما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝٥٤ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٤ - ٥٥]، ومن هنا فإذا كان من هؤلاء الذين أظهروا رغبتهم في الترشح من انحصر الصلاح فيه فهو الذي يجوز له الترشح، أما إن كان الصلاح لم ينحصر في واحد منهم؛ بل الصلاح موجود في أكثر من واحد منهم، فلا ينبغي له أن يتقدم لأنه فقد مسوغ مخالفة الأصل، ولا شك أن ميادين الصلاح كثيرة وعلى رأسها أو ذروة سنامها الإيمان الكامل التام بصلاحية الشريعة، ووجوب تحكيمها والتمسك الصريح بها، وعقد العزم على إنفاذها وتحكيمها، وهذا ليس كلمة تقال أو وعد يعطى من غير أن تكون هناك دلائل على صدق التمسك به والعزم على إنفاذه، ويتبين ذلك من خلال الكلام التفصيلي الذي لا يناقض الكلام العام أو المجمل بالتمسك بالشريعة، كما يتبين بعدم صدور أقوال ورؤى تخالف الكلام المجمل، وإذا كانت لبعض المرشحين كلمات سابقة تدلُّ على بعده عن التمسك الصريح الصحيح بالشريعة، فالغالب أن تكون كلماته اللاحقة المخالفة للمتقدمة من باب الدعاية الانتخابية أو لكسب الأصوات الإسلامية، ولا يكون هذا من قبيل التوبة والرجوع عمَّا قاله سابقاً إلا أن يعلن ذلك فيعلن رجوعه عمَّا سبق أن قاله مناقضاً لما يعلنه حالياً، فلا يمكن لمن كان يقول سلفاً إن الشريعة كانت مطبقة في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه رقم ٦٢٤٨ ومسلم في صحيحه رقم ١٦٥٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٨٢٥.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة رقم ٣٢٥٤٤، والسنة لأبي بكر الخلال رقم ٦٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ١٧٣٣ والبخاري في صحيحه رقم ٧١٤٩.

زمن النظام البائد وما كان من أمور لا تحمد لا يعدو أن يكون خللاً إدارياً، وأن الداعين إلى تطبيق الشريعة إنما هم يزايدون بذلك، لا يمكن أن يحمل قوله اليوم على تطبيق الشريعة على المعنى الحسن إلا أن يتراجع عن قوله السابق، كما لا يمكن لمن كان يقول: إنه ليس بين المسلمين والنصارى خلاف في العقيدة أن يحمل قوله اليوم على تطبيق الشريعة على المعنى الحسن إلا أن يتراجع عن قوله السابق، ولا شك عندي في أن من خلا كلامه عن التصريح بالتمسك بالشريعة وتحكيمها قولاً وفعلاً فقد فقد ركناً ركيناً من أركان الصلاح للمنصب حتى لو كان مستكملا لبقية الأركان.

وانطلاقاً من هذا الاستثناء يمكن القول: إنه لو تقدم رجل للمنصب وانحصر الصلاح فيه وكان ممن حصل له قبول أو ركون ظاهري من جمهور الناس، فإنه لا ينبغي لأحد بعده أن يتقدم؛ لأن استثناء طلب الولاية مبني على عدم وجود من يصلح لها لذا أجيز للصالح أن يتقدم لها فإذا تقدم من هو صالح لها؛ وظهر ركون الناس له وقبولهم له، فإن تقدم الثاني من بعده يكون تقدماً بغير مسوغ يجيزه.

٢- الحال الثانية التي يجوز فيها التقدم لطلب الولاية أن يخلو مكان الإمارة بموت مفاجئ أو نحوه، ولا يكون هناك مجال لاختيار الأمير بالطريق الاعتيادي نظراً لظرف طارئ بالأمة فإنه يجوز لمن آنس من نفسه قدرة على القيام بمهام الإمارة أن يطلبها ممن يملك إعطاءها؛ بل يجوز له أن يستولي عليها إذا شغر المكان وكان في تقاعسه عن التقدم لهذا المنصب إضاعة للناس، فإنه يجوز له التقدم بل ربما يجب، لكن هذا لا يمنع من محاولة الحصول على موافقة من يتيسر اجتماعهم ممن له حق التولية بغير إخلال بمتطلبات الظرف الطارئ، ودليل ذلك فيما كان من غزوة مؤتة عندما استشهد الأمراء الذين ولاهم رسول الله ﷺ وبقي الجيش في أرض بعيدة بدون قائد أو أمير في مواجهة جيش محارب، وفي هذا الظرف الطارئ العصيب لا يكون طلب الإمارة من باب الحرص على المنصب؛ لأن الإمارة في تلك الحال من باب المغارم وليس من باب المغانم، أخرج البخاري في صحيحه وغيره عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: خطب رسول الله ﷺ، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح عليه»[1]، وقد بوب عليه البخاري بقوله: «باب من تأمر في الحرب من غير إمرة إذا خاف العدو»، فهو بذلك يشير إلى حال الضرورة التي حملت القائد الهمام خالد على التقدم وتحمل المسؤولية من غير أن يسبق تأميره وهو مما يبين جواز الإقدام على ذلك في مثل تلك الأحوال.

٣- الحال الثالثة التي يجوز فيها التقدم لطلب الولاية أن يكون النظام غير ملتزم بالضوابط الشرعية في تولية الولايات حيث يتيح لكل أحد أن يتقدم لطلب الرئاسة مما يترتب عليه إمكانية أن يتولى الأمر من ليس هو صالح له، وحينئذ يكون تقدم المسلم لها من باب دفع من ليس صالحاً لها عن توليها وإن لم يكن صلاح المسلم لها تاماً فهو من باب احتمال أخف الضررين، فلو لم يتقدم مسلم لها وإن لم يكن كامل الصلاح؛ لأدى ذلك إلى تقدم مَن ليس صالحاً لها أصلاً وحينئذ يكون إحجام المسلمين عن التقدم لطلبها بمنزلة تيسير الطريق وتسهيلها أمام غير الصالحين لها.

ومن خلال هذه الاستثناءات يتبين لنا أن تقدم بعض المسلمين لتولي هذا الأمر مما يجوز الإقدام عليه في ظلِّ الظروف القائمة في مصر، فإذا كان الاستثناء الأول يقصر جواز التقدم على من انحصر الصلاح فيه، فإن الاستثناء الثالث يوسع الباب أمام من لم ينحصر الصلاح فيه للتقدم لهذا الأمر وذلك حتى يمنع من ليس صالحاً أصلاً لتولي هذا الأمر.

ثانياً: صفات من يجوز توليته:

الصفات المطلوبة فيمن يتولى أمر الأمة تنقسم إلى عدَّة أقسام:

- منها ما يتعلق بالحواس: كالبصر والسمع ونطق اللسان فمما لا يخفى على الناظر ضرورة سلامة الحواس المذكورة كي يتمكن الوالي من القيام بواجباته التي نصب من أجل تحقيقها، وإن الإخلال بتلك الحواس أو أحدها كأن يكون أعمى أو أصم أو أخرس فإنه يعسر عليه جداً القيام بتلك الواجبات مما يمتنع معه تولية من هذا حاله.

(١) أخرجه البخاري رقم ٣٠٦٣.

- **ومنها ما يتعلق بالأعضاء:** كفقد الرجلين أو اليدين فهذا ممَّا ينزل منزلة العمى والصمم والخرس لأنه عائق كبير لولي الأمر عن القيام بما يجب عليه، ويكون مانعاً من قيامه بواجباته التي نصب من أجل القيام، فيها فلا ينبغي أن يُولَّى والحال هذه.

- **ومنها ما يتعلق بالصفات اللازمة:** وهي أن يكون الإمام من قريش، وهذا الشرط إنما هو في حق الإمام أو أمير المؤمنين، ورئيس مصر ليس أميراً للمؤمنين جميعهم فلا يشترط فيه هذا الشرط ولا يعدُّ تخلفه قادحاً في ولايته.

- ومن الصفات اللازمة المجمع عليها: الذكورة - الحرية - العقل - البلوغ، فلا رئاسة لامرأة، ولا رئاسة لعبد، ولا رئاسة لفاقد أو ناقص العقل، ولا رئاسة لصبي، وممَّا يلحق بالصفات اللازمة الشجاعة: فلا يصلح أن يكون الرئيس والقائد الأعلى للبلاد خواراً جباناً، وكذلك الشهامة فلا يصلح ألا يكون عنده صبر ولا جلد ولا صلابة في مواجهة الشدائد والأزمات.

- **ومنها ما يتعلق بالصفات المكتسبة: وهي:**

١- العلم وهو لا حدَّ لأكثره وأما أقل ما يُعتدُّ به من قدر العلم ما يتمكن به الرئيس من استقلاله بنفسه في تدبير الأمور الدينية، والدنيوية، والقدرة على فهم ما يحال إليه ممَّا هو متعلق بتلك الأمور والنظر فيه على نحو يستطيع معه الموازنة بين الأقوال المختلفة والوصول إلى رأي هو أقرب ما يكون إلى الصحة والصواب، وتحقيق هذا الحد من العلم لا يمانع أو يعارض وجود مجلس شورى للرئيس في مختلف التخصصات يستشيره فيما يريد البتَّ فيه.

٢- التقوى والورع وهي صفة في النفس تحمل صاحبها على مجانبة كبائر الذنوب والحياء، والبعد عن التظاهر بصغارها، فمن لم يقدر على كفِّ نفسه عن الوقوع في هذه الأمور فلن يقدر على سياسة أمة خاصة وهو في حاجة إلى أن يكفها عمَّا لم يقدر على كفِّ نفسه عنه فأنَّى له ذلك.

٣- توقد الرأي في عظائم الأمور، والنظر في مغبات العواقب (كما يقول الجويني في الغياثي): فالرئيس نظراً لما يقوم به من أعمال وتصرفات جسيمة فإنه في حاجة أكيدة إلى الرأي النافذ، والقدرة على استشراف القادم، والنظر في مآلات الأحداث التي ربما تكون مباديها غير ظاهرة للعيان.

٤- ويأتي على رأس هذه الصفات الدين فيشترط بالإجماع أن يكون الرئيس في بلاد المسلمين مسلماً، والمقصود بكونه مسلماً ليس أن يكون له اسم من أسماء المسلمين أو يكون مولوداً لأبوين مسلمين أو يكون مدوناً أمام خانة الديانة في شهادة الميلاد أنه مسلم؛ بل المراد بذلك أن يكون منسوباً لحقيقة الإسلام في أصوله وفروعه وعقيدته وشرائعه وهذا يقتضي منه الانحياز التام إلى شريعة الله تعالى كلِّها واليقين الجازم بكمالها وعمومها، وأنها العلاج التام لكل أدواء المجتمعات سواء أفي السياسة أم الاقتصاد أم القضاء أم الحقوق والحريات، والجهر بذلك في كل مناسبة ولا يكون ذلك مجرد عقيدة يسرُّها في نفسه والسعي بكل طريق في سبيل تحكيمها في أرض الواقع.

وعندما ننظر اليوم في واقع المرشحين اليوم سواء أكان ممَّن يُقال عنه إنه مرشح إسلامي أم لا يُقال عنه ذلك؛ لا نجد واحداً منهم تتحقق فيه كل هذه الصفات، ومن ثَمَّ فلا مناص من الموازنة بين المرشحين واختيار أكثرهم قرباً من هذه الصفات.

ثالثاً: صفات من يختار:

طالما أن الحديث عن دولة إسلامية ينص دستورها على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع فكان مقتضى ذلك أن يجري كل شيء فيها وفقاً لما تقضي به الشريعة، ومنها ما يتعلق بنظام الحكم وإقامة النظام السياسي، لكن الواقع بخلاف ذلك حيث يتيح النظام لغير المسلم وللمرأة الترشح لمنصب الرئاسة، ومن باب أولى إعطاؤهم الحق في اختيار من يتقلد هذا المنصب، والأحكام الشرعية في هذا الجانب واضحة وهي معلومة مذكورة في النصوص الشرعية وفي مصنفات أهل العلم في كتب السياسة الشرعية أو الأحكام السلطانية،

حيث من يحق لهم الاختيار هم طائفة من الناس لهم صفات تؤهلهم للاختيار الصحيح من حيث العلم الذي يمكنهم من معرفة من توجد فيه الصفات المؤهلة للولاية على نحو أكمل من غيره، ومن حيث العدالة التي تحجزهم عن اتباع الهوى في الاختيار، وهذه الطائفة معروفة في كتب السياسة الشرعية بأهل الحل والعقد، والأمر في الأنظمة المعاصرة التي تؤخذ بالنظام الانتخابي ليس كذلك حيث تتيح أغلب هذه الأنظمة لمن بلغ سن الثامنة عشرة من مواطنيها المسلم منهم والكافر الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، الحق في اختيار من يشغل منصب الرئيس.

وهنا نقطة نودُّ أن نثيرها في هذا الصدد وهو تصور بعض الجماعات الإسلامية أن لها الحق في أن تملي على أفرادها اختيار من تراه الجماعة أهلا لمنصب الرئاسة، ويعدون ذلك داخلاً تحت السمع والطاعة التي بين إمارة الجماعة وأفرادها، ومن غير دخول في مناقشة القضية الأصل أعني مسألة السمع والطاعة بين الجماعة وأفرادها فإنَّا نقول: إن مسألة اختيار رئيس البلاد ليست داخلة تحت السمع والطاعة فليس يلزم أحد ينتمي لجماعة ما أن يتقيد بما تختاره الجماعة لهذا المنصب، لأن الاختيار هنا يعبر عن رأي عضو الجماعة عن مدى اقتناعه بصلاحية ذلك المرشح لهذا المنصب، وهذا لا يدخل فيه السمع والطاعة، فلا يمكن لأحد أياً كان أن يأمر أحداً بأن يقتنع بصلاحية مرشح ما لمنصب الرئاسة، فالاقتناع والتصور والرؤية ليست مسألة تنفيذية يتصور فيها الأمر والنهي ومن ثم السمع والطاعة، والمتكلمون في التكييف الفقهي للانتخاب بعضهم يقول : إنه من باب الشهادة والشاهد لا يجوز له أن يشهد إلا بما يراه هو صواباً، ومن ثم فلا معنى للسمع والطاعة في الشهادة، وبعضهم يقول عن الانتخاب إنه من باب الوكالة أو الإنابة والمسلم لا يوكل أو ينيب إلا من يراه هو ويرتضيه ليكون وكيلاً أو نائباً عنه، ومن ثم فلا يدخل في ذلك أيضاً السمع والطاعة، فكيفما كان تكييف الانتخاب فلا يدخله الأمر والنهي من أمير الجماعة ومن ثم السمع والطاعة.

رابعاً: ما العمل إذا تعارض الواقع المعمول به مع الحكم الشرعي:

نظراً لأن الأمور تدار في غالب البلاد الإسلامية بموازين ليست مرتبطة بالشريعة في كثير من الأحيان، فإنه من المتوقع أن تكون التنظيمات المتعلقة بإدارة الانتخابات في كثير من جوانبها ليست متفقة مع الأحكام الشرعية التي جاءت في النصوص، والتي أوردها أهل العلم في مصنفاتهم، ومن هنا ظهر من يقول بعدم خوض هذه الانتخابات والمشاركة العامة في العملية السياسية؛ لأن ذلك سوف يوقع حتماً في مخالفات شرعية أو على الأقل الموافقة عليها والإقرار بها.

وهذا القول لا شك له حظ من النظر وهو خلاف معتد به، لكن هناك أكثر من محدد يدعو إلى المشاركة وخوض تلك الانتخابات على الرغم ممَّا فيها من المخالفات الشرعية، فمن ذلك:

١- أن عدم المشاركة سوف يجعل الطريق سهلاً ميسراً لوصول من لا يستحق لهذا المنصب الذي سيكون له تأثير كبير على المجتمع في كافة جوانبه وقضاياه، والموازنة الآن بين منكرين:

أ- منكر المشاركة في ظل نظام به مخالفات شرعية.

ب- منكر وصول شخصية غير إسلامية لهذا المنصب تفسد البلاد والعباد وتبعدهم عن الالتزام بالشرع في كثير من الجوانب، وعلى أقل تقدير لن يكون من اهتماماته تحكيم شرع الله ممَّا يعني ضياع تحكيم الشريعة على المدى الطويل كما حدث من قبل.

والمنكر الثاني بلا شك أكبر وخطره أشد حيث سيقود المجتمع في النهاية إلى وجهة غير إسلامية، ويوقع المجتمع في مخالفات شرعية أكبر بكثير من المخالفات التي تحدث نتيجة الانتخابات الرئاسية في ظلِّ نظام به مخالفات شرعية، فضلاً عن أن مخالفات المشاركة في الانتخابات لا يلزم المرشح أو المنتخب أن يعلن عن موافقته عليها أو الالتزام بها لا تصريحاً ولا كتابة، وأكثر ما فيها ما يمكن أن يفهم من الموافقة الضمنية التي تزول بالتصريح بالصواب الذي تدل عليه النصوص وقبوله ونبذ ما خالفه.

٢- أن المشاركة تتم في ظلِّ نظام لم يستقر بعد ومن ثم فإمكانية التغيير أو البناء الجديد أبوابها مشرعة ومن المأمول أن يحدث تغيير حقيقي في الاتجاه الذي نريد وعلى ذلك تكون المشاركة لإحداث التغيير المنشود في الاتجاه الصحيح.

نماء

منهج بناء الشخصية الإسلامية
من الرضاعة إلى ما بعد الجامعة

للمربين..
..للأسرة..
..للدعاة

بمشاركة فريق من الباحثين المختصين

أولادي والتقنية

بناء قيادات اجتماعية فاعلة

كيف نبني داعية مؤثراً؟

أريد بناء الخلق الحسن لدى ابنتي

ابني المراهق وعلاقته بالله

كيف أجعل طفلي منظما.

إعداد مؤسسة
المربي
ALMURABBI

إخراج و تصميم
BN
www.BNet.ws

الإسلاميون .. هل يقدرون على الحكم؟

أحمد فهمي
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م دخل جمال عبد الناصر ورفاقه من الضباط الذين لم تتجاوز أعمار أكثرهم منتصف الثلاثينات، عالم إدارة الدولة والحكم مرة واحدة ودون سابق إنذار أو إعداد مسبق، فالنجاح الساحق الذي حققته الثورة لم يكن متوقعاً بهذه الصورة، لذا لم يفكر أحد قبل الثورة في كيفية إدارة الدولة بعد الثورة، وعن هذه المرحلة يقول عبد الناصر نفسه: «ماكنش مطلوب مني أبداً في يوم ٢٣ يوليو إني أطلع معايا كتاب مطبوع وأقول: إن هذا الكتاب هو النظرية.. مستحيل لو كنا قعدنا نعمل الكتاب ده قبل ٢٣ يوليو ماكناش عملنا ٢٣ يوليو لأن مكناش نقدر نعمل العمليتين مع بعض»[١].

(١) أزمة المثقفين وثورة يوليو، عادل حمودة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ص ٧٧.

وهكذا تحول الشعب المصري إلى ساحة تجارب تعلم فيها الأشاوس كيف يديرون الدولة، على الأقل لحسابهم..

ثم جاء السادات، وهو أيضاً من فصيل الضباط الأحرار الذين تقلدوا في زمن عبد الناصر مناصب متتالية لا عَلاقة بينها، فقد كان مسؤولاً عن صحيفة قومية، كما شارك في محكمة الثورة التي أصدرت أحكامها على جماعة الإخوان، وتسلَّم منصب رئيس مجلس الأمة - الشعب - وأخيراً أصبح نائباً لرئيس الجمهورية، ثم رئيساً، فما خبراته في السياسة والحكم والإدارة؟..

في كتابه «خريف الغضب» قدَّم محمد حسنين هيكل صورة لشخصية السادات كرئيس دولة، تكشف عن قدر كبير من العشوائية والتخبط والبعد التام عن المؤسسية والقرارات المدروسة، فضلاً عن الفقر في المؤهلات الأكاديمية والعلمية..

ثم جاء بعدهما، مبارك، بالطريقة نفسها، ويحكي د. يحيى الجمل عن بداية اختيار السادات «مبارك» نائباً للرئيس، فيقول:» جمعتنا جلسة مشتركة تضم كلاً من السادات ومبارك والباز والمحجوب، وفي أثناء الجلسة وجّه السادات كلامه لكل من المحجوب والباز قائلاً: «حسني أهو، ما يعرفش حاجة، وعليكو إنكم تعلّموه وتفهّموه». ثم قال لمبارك: «وأنت يا حسني اللي يقولك عليه الباز والمحجوب تعمله، فاهم؟؟؟»[1].

شرع مبارك في بداية توليه الحكم إثر مقتل السادات، في تلقي محاضرات ودورات تدريبية، شارك فيها د. كمال الجنزوري الذي كان يشغل منصب رئيس معهد التخطيط القومي في ذلك الوقت، ويقول د. حمدي السيد نقيب الأطباء السابق : «أذكر في أحد اللقاءات مع مبارك في بداية حكمه وكان معنا د. كمال الجنزوري، وكان يقدم محاضرة فى التخطيط، والرئيس مبارك يستمع، وفي وسط الكلام قال له مبارك: «بس كلمني على قدي علشان أنا مش فاهم اللي أنت بتقوله»[2].

بعد ثورة ٢٥ يناير تولى الحكم في مصر المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وهم ضباط عسكريون لا سابقة لهم في العمل السياسي وإدارة شؤون الدولة..

هذه المقدمة الطويلة، أسردها في سياق الردِّ على من يستفرغ الوسع والجهد في اتهام الإسلاميين بالعجز عن إدارة الدولة في مصر، وإنهم غير مؤهلين لذلك ولا يملكون القدرات ولا الكفاءات اللازمة، وقد صرح بذلك كثير من الرموز والقيادات العلمانية، وللأسف بدأت هذه المقولة تتسرب إلى عقول بعض الإسلاميين فتأثروا بها، واقتنعوا فعلاً أن الإسلاميين غير قادرين..

(١) حوار د. يحي الجمل مع صحيفة الشرق الأوسط ١٠-٩-٢٠١١م.
(٢) حوار د. حمدي السيد مع صحيفة الشروق، ٢٢-٢-٢٠١١م.

جميع الأحزاب التي تتولى الحكم في مختلف دول العالم، كان لها سابقة أولى، ومرَّت دون شك بمرحلة الصدمة عند تولي المسؤولية للمرة الأولى، ولو أنَّ كل حزب حاز أغلبية أصوات الناخبين واضطلع بمسؤولية مباشرة في إدارة أجهزة الدولة، واجه مثل هذه الاتهامات، لظل الحكم في كافة أنحاء العالم خاضعاً لسيطرة الحزب الواحد، ولتلاشى مفهوم «تداول السلطة»..

لا أستهدف الدخول في تعقيدات سياسية أو علمية، بل مجرد وضع النقاط على الحروف، إذ الهدف من المقال أساساً تقوية معنويات الإسلاميين في خضم الهجمات الإعلامية التي يواجهونها، والتي ترمي إلى إضعاف ثقتهم بالله – أولاً – ثم بأنفسهم..

فما المقومات الأساسية الواجب توفرها لكي نقول: إن حزباً ما قادر على تولي الحكم؟ ..

---

١ في البداية، يجب أن نفرق بين الأنظمة السياسية، فهناك نظام رئاسي، برلماني، مختلط... والذي يفرق بينها هو كيفية توزيع الصلاحيات بين رئيس الحكومة ورئيس الدولة.. وفي جميع الحالات لا يبدأ الحزب من الصفر، حيث يكون له سابقة تجارب برلمانية، على الأقل في الحال المصرية، فإن جماعة الإخوان المسلمين تمتلك خبرة واسعة تمتد لما يقرب من ثلاثين عاماً في العمل البرلماني، ولو أخذنا الولايات المتحدة كمثال، سنجد أن نسبة كبيرة من رؤساء الدولة كانوا نواباً سابقين..

---

٢ العنصر الأهم في تحديد قدرة الحزب على إدارة الدولة، هو امتلاكه لبرنامج قوي ومشروع سياسي مقنع، وقد تجلَّى ذلك بوضوح في الانتخابات البرلمانية -الشعب والشورى- ثم في مرشحي الرئاسة المنتمين إلى المرجعية الإسلامية، وفي كل المحافل الانتخابية يبرز الإسلاميون بوصفهم أصحاب الرؤية الأقوى والبرنامج الأكثر وضوحاً..

٣ أثبتت الأحزاب الإسلامية قدرتها الفائقة على التطور السريع والتكيف مع متغيرات الواقع، ويكفي الإشارة إلى قدرة «الدعوة السلفية» وهي التيار السلفي الأبرز في مصر، على تأسيس حزب سياسي والمشاركة، في الانتخابات وتحقيق نتائج مبهرة، في مدة زمنية يسيرة، عجزت الأحزاب العلمانية عن مجاراتها... وهذا مؤشر قوي يصلح لقياس كفاءة القوى السياسية الإسلامية في مجال إدارة الحكم..

٤ تضم التيارات الإسلامية بين صفوفها أعداداً هائلة من المتخصصين في كافة المجالات، بدءاً من المهن الصغيرة، وانتهاء بأساتذة الجامعات، ويكفي للدلالة على ذلك نتائج انتخابات النقابات المهنية، فإما أن يكتسحها الإسلاميون وإما أن يكونوا المنافس الأبرز.

٥ التواجد التنظيمي القوي للتيارات الإسلامية في الأوساط المجتمعية، تكفل لهم أمرين: التواصل المباشر مع فئات المجتمع، والشمول الجغرافي لكافة مناطق الدولة، وهذين الأمرين يترجمان عملياً في قدرة سياسية على التأثير المجتمعي والتعرف على مشكلاته وطموحاته..

٦ لم يقل أحد: إن الحزب الحاكم يكون ملزماً بتغيير كافة القيادات الإدارية العليا عند توليه الحكم حتى نتساءل عن امتلاكه للعدد الكافي من الكفاءات، ويبلغ عدد القيادات في البنية السياسية العليا في مصر نحو ٤٠٠٠ تقريباً، فلا يعقل أن يبادر الحزب المتقلد للحكم حديثاً إلى تنحية هؤلاء فوراً وتعيين بدلاء ينتمون إليه، على الأقل يجب أن يتم ذلك بصورة تدريجية حتى لا يختل العمل في مؤسسات الدولة، وحتى إن حدث التغيير على صعيد تبني «سياسة تطهير» من فلول النظام المخلوع، فإن التدرج لابدَّ أن يراعى في هذا الأمر من ناحية، ومن ناحية أخرى فلا يشترط أن يكون البدلاء منتمين إلى حزب الأغلبية..

٧ مؤسسات الدول تخدم جميع الأحزاب والقوى السياسية، وهي مهيأة أساساً للعمل تحت قيادة أي نظام سياسي، أو أي حزب أغلبية، وبالتالي فإن الحزب الذي يشكل حكومة جديدة، لن يكون مكلفاً بإنشاء مؤسسات جديدة موازية، فهو يستعين بصورة مباشرة بكافة القدرات المتاحة في تلك المؤسسات في كافة المجالات التنفيذية والاستشارية، من أجل خدمة مشروعه السياسي..

٨ يمكن لحزب الأغلبية أن يستعين بـ «التكنوقراط»، وهم المتخصصون في شتى المجالات، وغير المنتمين سياسياً، وهذه الاستعانة لا حدود لها، فهي تشمل شغل كافة المناصب القيادية بدءاً من رئاسة الحكومة وحتى المناصب القيادية الأخرى..

٩ ليس من العجلة مقارنة أي حزب إسلامي يفوز بالأغلبية في مصر، بالحزب الوطني المنحل، من حيث الإمكانات والكفاءات، فالحزب الوطني نشأ حزباً لكنه ابتلع الدولة، فتماهت الدولة في داخله، وهذه حال لا يقبل أحد تكرارها، لا للإسلاميين، ولا لغيرهم...

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

الأمّة

واقع الإصلاح ومآلات التغيير

الإصدار التاسع 1429 هـ

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

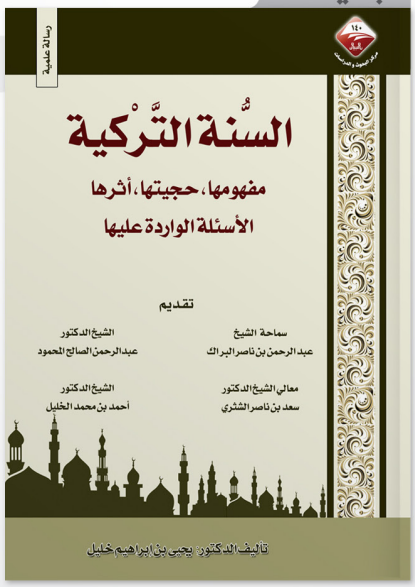

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

ماذا يريد العسكر من الرئيس؟

حسن الرشيدي(*)
istratigi@hotmail.com

«أكثر شخصية ذكية الآن في الشارع المصري هو المشير طنطاوي»

هذا تعليق سمدار بيري محررة الشؤون العربية في صحيفة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية، وتعلل الصحفية الإسرائيلية قولها هذا بأنه نجح حتى اليوم في إحراز الأهداف التي حددها لنفسه بحنكة كبيرة.

وأضافت بيري: أن ما يجري في مصر الآن يجعل قادة وخبراء الاستخبارات الإسرائيلية «الموساد» أو غيرها من الأجهزة الأمنية يشعرون بالضياع قائلة: «إن جميع هؤلاء الخبراء لا يعرفون أو يتوقعون ما الذي سيجري في مصر الجديدة بعد تنحية مبارك ومحاكمته وتواصل الثورة بهذه الصورة في الشارع».

فهل نجح المجلس العسكري بقيادة المشير حسين طنطاوي في تحقيق الأهداف التي حددها لنفسه بالفعل كما تقول الصحيفة الاسرائيلية

أهداف المجلس العسكري:

لا يستطيع أحد أن يقول: إن المجلس العسكري يرغب في البقاء بالسلطة طمعاً فيها؛ وذلك من عدة اعتبارات:

أولاً: إن السلطة في مصر لم تعد مغنماً فالصعوبات الاقتصادية والتحولات الاجتماعية والفورة الثورية التي تجتاح قِطاعات كبيرة من الغاضبين والمحبطين تجعل من حكم مصر أشبه بمن يريد الخوض في مستنقع لا يدري أيغرق به أم ينجو منه؟

ثانياً: إن المجموعة التي في قيادة المجلس العسكري ليست قيادات شبابية فمعظمها تخطى الستين، وليسوا كمجموعة يوليو ٥٢ فقد كان متوسط أعمارهم في الثلاثينات والشباب له طموح ورغبات، وهذا مالا يتوافر في المجلس العسكري الحالي؛ بل غالبيتهم على وشك التقاعد ومَن في هذا العمر أقصى طموحاته هو تقاعد مريح يحتفظ فيه بما حققه قبل ذلك.

فإذا كان المجلس العسكري لا يرغب في البقاء في السلطة فماذا يريد إذاً؟

يقع المحلل الذي يحاول استنباط الأهداف الإستراتيجية للمجلس العسكري في حيرة بالغة؛ لقلة التصريحات التي تصدر عن قادة المجلس، وتعمدِّهم في نفس الوقت الإصرار على أنهم ماضون في طريق واحد لتسليم السلطة إلى المدنيين؛ ولكن في أثناء تصريحاتهم ومواقفهم والتسريبات المتعمدة عن المقربين منهم، ثم التقارير الغربية التي تتناول خفايا المجلس، وكذلك مقارنة أنموذجهم بنماذج شبيهة في بلدان أخرى يمكن تتبع ماذا يريد هؤلاء؟

ولكن الأمر لا يخلو من إرسال رسائل مباشرة على ندرتها: من بينها التصريحات الخطيرة للواء محمود نصر مساعد وزير الدفاع للشؤون المالية في مؤتمر صحفي غير مسبوق عقده في ٢٧ مارس الماضي حيث كشف اللواء ولأول مرة أن حجم ميزانية القوات المسلحة لا تتعدى ٥ ٪ من ميزانية الدولة المصرية، وتحدث أيضاً عن النشاط الاقتصادي للجيش الذي يجعله مكتفيا ذاتياً ومعيشياً عن الدولة، والفائض يبيعه للمدنيين، وهذا الفائض هو الذي يخضع فقط لمراقبة الدولة ويدفع عنه الضرائب، واعترف بأن بعض القرارات طوال المرحلة الانتقالية لم تكن سليمة حيث إنها اتخذت في الوقت غير المناسب؛ ولكن أخطر ما قاله هو تأكيده على أن أموال الجيش ليست من أموال الدولة، ولن نسمح للدولة بالتدخل فيها لأنها ستخربها وسنقاتل دفاعاً عن مشروعاتنا، وهذه معركة لن نتركها والعرق الذي ظللنا ٣٠ سنة لن نتركه لأحد آخر يدمره، ولن نسمح لغيرنا أياً كان بالاقتراب من مشروعات القوات المسلحة.

هذا التصريح ينم عن بعض ما يصبو إليه المجلس العسكري وهو:

أن ميزانية الجيش ومشروعاته مستقلة، ولا يسمح بتدخل النظام السياسي الجديد في هذه الميزانية.

و يبرر المجلس ذلك بعدم الثقة في قدرات المدنيين على إدارة هذه الميزانية، وعلى الرغم من أن نسبة ال٥٪ من ميزانية الدولة نسبة مختلف عليها، وربما كانت رداً على تقرير نشرته صحيفة لوس أنجلوس تايمز الأمريكية قبل تصريحات اللواء نصر بيومين والذي ذُكر فيه أن الاستثمارات التي يقوم بها الجيش تبلغ من ١٠٪ إلى ٤٠٪ تقريباً من الاقتصاد المصري.

بينما يفصل تقرير غربي آخر [1] حجم الاقتصاد الذي يشرف عليه الجيش ويقول: إنه وبموجب معاهدة كامب ديفيد كان على الجيش أن يقلص قواته. وبدلاً من تسريح مئات الآلاف من الرجال أقام الجيش مصانع لتوظيفهم. وتنتج هذه المصانع الآن كل شيء بدءاً من الذخيرة وانتهاء بقدور الطهي وطفايات الحريق وأدوات المائدة. ويدير الجيش أيضاً مصارف وعمليات سياحية ومزارع ومحطات لمعالجة المياه وسلسلة من محطات البنزين وشركات مقاولات وشركات استيراد. والشركات التي يملكها الجيش منفرداً معفاة من الضرائب، ويعمل بها المجندون الذين يتقاضى الواحد منهم ما بين ١٧ و٢٨ دولاراً في الشهر؛ غير ان الجيش يتولى إطعامهم ويقدم لهم الرعاية الطبية. و يؤكد لواء في الجيش المصري على عدم الثقة في كفاءة المدنيين إذا أداروا الشأن العسكري بقوله لوكالة الأنباء رويترز في ١٤ إبريل الماضي: إن الجيش هو المؤسسة الوحيدة التي تتمتع بالكفاءة الثابتة منذ فترة طويلة، والتي تستطيع الحفاظ على العلاقات الثنائية مع الدول الأخرى.

وهذه الجملة الأخيرة تنقلنا إلى الهدف الثاني والذي يسعى إليه المجلس العسكري وهو تحكُّمه في العلاقات الدولية؛ خشية أن تتأثر بتولي قيادة غير مقدرة لضرورات الأمن القومي.

وقد تحدثت بعض قيادات الإخوان عن أن قادة المجلس العسكري سألوا الجماعة عن رؤيتها للعلاقات مع إسرائيل.

فقيادة الجيش على ما يبدو لا تريد قيادة سياسية تورطها في أمور وتعقيدات قد تؤدي إلى حرب في غير وقتها أو مكانها، فمسألة الأمن القومي هي مسألة أساسية لدى المجلس العسكري، وممَّا يؤكد على هذه الرغبة مقاومة الجيش المصري محاولات الولايات المتحدة توظيفه في الإستراتيجيات الخاصة بها مثل مكافحة الإرهاب فتقول إحدى برقيات ويكيليكس المسربة التي تعود إلى ديسمبر ٢٠٠٨م: إن واشنطن قد سعت لإقناع القيادة المصرية بتوسيع مهمة الجيش بطريقة تعكس التهديدات الأمنية الإقليمية الجديدة مثل القرصنة وأمن الحدود ومكافحة الإرهاب، وأضافت الوثيقة أن القيادة المصرية قاومت جهودنا وهي راضية عن المضي فيما تقوم به منذ سنوات: التدرب على نزاع تتواجه فيه قوتان بمزيد من القوات البرية والمدرعات،

(١) رويترز ١٤/٤/٢٠١٢م.

وتقول الولايات المتحدة: إن المسؤول عن ذلك هو وزير الدفاع محمد حسين طنطاوي الذي تصفه بأنه العقبة الأساسية لتحويل مهمة الجيش بحسب ويكليكس.

وتتجلى الحساسية في أن يراقب المدنيون الجيش أو أن يتحكموا في الترقيات والمناصب العسكرية، وفي رواية لقائد سابق للحرس الجمهوري [1] إن المشير باغته بعد العودة من اجتماع عاصف في مجلس الوزراء بعد فترة قصيرة من تولي أحمد نظيف رئاسته: هل يعقل أن أؤدي التحية العسكرية مستقبلاً لنظيف الذي بهدلته اليوم.

و بالرغم من أن أحمد نظيف وهو آخر رئيس للوزراء في عهد مبارك يختلف عن رئيس وزراء أو رئيس جمهورية يجيء باختيار شعبي، ولكن هذا الأمر لم يتعود عليه ضباط الجيش في مصر من قبل.

(١) عبدالله السناوي–صحيفة العربي الناصري–٢٣/ ٤/ ٢٠١٢

و لكن ماذا يفعل المجلس العسكري لتحقيق تلك الأهداف؟

استند المجلس العسكري إلى تنفيذ أهدافه على ركيزتين أساسيتين: الدستور والرئيس.

فوضع الجيش في الدستور، وصلاحيات تنفيذية لرئيس موال للعسكر هما الضمانتان اللتان يراهما المجلس العسكري سبيلاً وحيداً لصون مصالحه.

كانت أول إشارة لوضع خاص للجيش في الدستور فيما سمي بوثيقة مبادئ حاكمة وفوق دستورية، ثم جاءت وثيقة السلمي والتي تحدثت لأول مرة عن مادتين في الدستور هما المادة ٩ و١٠ وتنص المادة التاسعة على اختصاص المجلس الأعلى للقوات المسلحة دون غيره بالنظر في كل ما يتعلق بالشؤون الخاصة بالقوات المسلحة، ومناقشة بنود ميزانيتها على أن يتم إدراجها رقم واحد في موازنة الدولة، كما يختص دون غيره بالموافقة على أي تشريع يتعلق بالقوات المسلحة قبل إصداره، وهذا يضمن الهدف الأول للمجلس وهو الحفاظ على مصالحه الاقتصادية – وهذا ما قلناه سابقاً – بينما تنصُّ المادة العاشرة على إنشاء مجلس يسمى مجلس الدفاع الوطني يتولى رئيس الجمهورية رئاسته، ويختص بالنظر في الشؤون الخاصة بوسائل تأمين البلاد وسلامتها وهذا يحقق الهدف الثاني الخاص بالأمن القومي.

و لكن أقوى إشارات جاءت في تصريحات صريحة للواء مختار الملا عضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة الحاكم في مصر حيث شدد في مقابلة مع صحفيي الجارديان وبعض وكالات الأنباء على بقاء ميزانية الجيش بعيداً عن الرقابة البرلمانية مؤكداً أن ذلك سببه الحال غير المستقرة للبلاد حالياً بالإضافة إلى أن البرلمان لا يمثل الشعب المصري كله، وأضاف أن المجلس العسكري سيحتفظ بصلاحيات كاملة على البرلمان المقبل والحكومة وعلى الرغم من أن المجلس العسكري تنصل من هذه التصريحات بعد صدامات شارع محمد محمود ومجلس الوزراء فقد كانت هذه التصريحات نقطة الانطلاق للصراع بين المجلس والإخوان.

وبعد احتجاجات وخوفاً من انفجار أزمة جديدة لا يحتملها الزمان والمكان صرَّح طنطاوي أن وضع الجيش في الدستور القادم لن يختلف عمَّا كان عليه في الدساتير السابقة.

و عند النظر في الدساتير السابقة نجد أنه منذ دستور ١٩٥٤م وحتى آخر دستور في عام ١٩٧١م، قد نصت هذه الدساتير على وجود مجلس الدفاع الوطني، ولا تتكلم هذه الدساتير عن طبيعة هذا المجلس أو طريقة تشكيله أو كيفية اتخاذ القرار فيه، وما حجم المدنيين والعسكريين فيه؟ وما اختصاصاته؟ إلا إشارة في دستور ٥٤ أنه دور استشاري ويختص باتخاذ التدابير الدفاعية وفي إعلان الحرب وعقد الصلح.

إذاً مجلس الدفـــاع الوطني أو مجلس الأمن القومي أو أياً كانت مسمياته هو ما يطمح له المجلس من خلال الدستور على أن تتوافر فيه شروط تخدم أهداف الجيش منها: أن يكون دوره تنفيذياً وليس استشارياً ضمن هيكلة الإدارة التنفيذية للدولة.

ثم تجيء قضية الرئيس القادم حيـــث ينقل الصحفي عبد الله السناوي عن قيادة عســـكرية رفيعة أنه لا يصح أن نتسلم دولة بها دســـتور جرى تعطيله، ثم نســـلِّمها لرئيس منتخب بلا دستور لن نترك البلد لفراغ دستوري، أو أن يتحول الرئيس إلى دمية في يد البرلمان وحزب الأكثرية فيه. هذا التصريح تواترت مفرداته من قائد عسكري لآخر بحسب السناوي.

وصـــرَّح بعض رؤســـاء الأحزاب في إحـــدى الاجتماعات التي عقدها معهم المشـــير طنطاوي في أعقاب انهيار الجمعية التأسيسية أنه أكد على أنه لا انتخابات رئاسية قبل الدستور.

ويؤكد على ذلك الرأي ما قاله عصام ســـلطان نائب رئيس حزب الوســـط نقلاً عن رئيس الحزب أبو العلا ماضي من أن أحد أعضاء المجلس العســـكري اتصل بـــه داعياً الحزب إلى الحضور لتأجيل الانتخابات لحين كتابة الدســـتور، ثم حصلت مذبحة العباسية فتم الغاء الأمر.

وبالطبـــع فإن كتابة الدســـتور ووضع صلاحيات واســـعة للرئيـــس فيه يضمن ســـيطرة للرئيس المتحالـــف مع المجلس العسكري أن يحقق الجيش أهدافه.

ويعتقد قائد بارز دوراً مؤثراً في المطبخ السياسي للمؤسسة العســـكرية أن مصر في حاجة إلى فترة قد تطول إلى عشـــر سنوات على الأقل تترسخ خلالها التجربة الديمقراطية ويتراجع بعدها الدور السياسي للجيش.

وفي هذه الفترة الانتقالية ذات العشـــر سنوات يتم إسناد المهـــام التنفيذية لرئيس الجمهوريـــة إلى رئيس الحكومة الذي يســـتند إلى أغلبية برلمانية على أن تبقى في يد الرئيس وحده المهام الســـيادية في الدفاع والأمـــن والخارجية والقضاء. هذا مقترح طرحه قضاة في المحكمة الدستورية على اللواء ممدوح شاهين مسؤول الشؤون القانونية في المجلس العسكري.

ولكي يحقق المجلس العسكري هاتين الركيزتين(وضعه في الدستور والرئيس الموالي)

بنى إستراتيجيته على عدة عناصر أهمها:

- استخدام التيار الإسلامي وتطويعه.
- تبريد الحال الثورية.
- زرع الخلافات بين القوى السياسية.
- الأمن.
- الحال المعيشية.

كانت الأداة الرئيســـة لتنفيذ تلك الإستراتيجية هي أجهزة المخابـــرات التابعة للدولة بـــدءاً من جهاز المخابـــرات العامة والمخابرات العسكرية وجهاز الأمن الوطني (أمن الدولة سابقاً).

المشـــكلة الحقيقية هي أن أجهزة المخابـــرات تلك تحرك تنظيماً للبلطجية، وقد كشـــفتها الوثائق التـــي عثر عليها في أمـــن الدولة أخيراً فمع بداية تولـــي اللواء حبيب العادلي وزير الداخلية الأسبق المســـؤولية عام ١٩٩٧م اتجهت إدارتا مباحث أمن الدولة والمباحث العامة بوزارة الداخلية إلى اتباع سياســـة تجنيد فئة من البلطجية والمسجلين - خطر - في نقل المعلومات عن حركة بيع المخدرات والأســـلحة، وكذلك أماكن الفارين من الأحكام القضائية، وهم من عرفوا بين العامة باسم (المرشدين) ويكون المرشـــدون غالباً من المجرمين الذين يعملون في معاونة رجـــال المباحث مقابل غضِّ النظر عـــن تحركاتهم ومصالحهم الشخصية.

وقد شاهدت بنفسي في الأيام الأخيرة قبل مذبحة العباسية بيوم واحد وعند باب أحد أقســـام الشرطة القريبة من ميدان العباسية سيارة خاصة بالشرطة تقلُّ أفراداً يلبسون ثياباً مدنية فقلت في بادئ الأمر: إنهم مخبرون شـــرطة ولكن بالتدقيق في ملامحهم وما يرتدون من سلاســـل ذهبية في رقابهم تبين لي أنهم من فئة البلطجية الذين يجمعونهم لأمر ما.

والوضـــع في مصـــر الآن من تدبير الحرائـــق ومحاولات إســـكات المدِّ الثوري بتدبير المذابح في ماسبيرو وشارع محمد محمود، وبورســـعيد وتطور الأمر في العباسية عندما توجهت مجموعات مـــن البلطجية التابعين لأجهزة المخابرات، وبعضهم يطلق لحيته لإطلاق النار على كل من سكان العباسية والشباب المعتصمين ممَّا تســـبب في فتنة بينهـــم ظناً أن كل طرف يقوم بمهاجمة الطرف الآخر في أنموذج أشبه بما حدث في الجزائر في بداية التسعينات.

قد يجد المجلس العسكري وأدواته المخابراتية مبررات لهذه الأفعال خاصة عندما يتمـــادى المتظاهرون ويحاصرون مباني وزارات الداخليـــة والدفاع وهي منشـــآت حكومية، أو يقومون بتوجيه سباب لا يحتمله أحد إلى قيادات عسكرية؛ أو يحاولون فرض مرشح رئاسي مســـتبعد بأسباب قانونية؛ ولكن كل هذه المبررات لا تعطي صكاً لأحد لارتكاب مجازر أو نحر أو قتل في الشوارع بدون محاكمات قانونية وتفعيل لدولة القانون.

إرادة غربية:

بالتوازي مع الإرادة الداخلية للمجلس العسكري هناك نموذج تحلم به الدوائر الغربية – وعلى رأسها الولايات المتحدة – أن يطبق في مصر بعد الثورة وهذا النموذج شبيه بالنموذج التركي والباكستاني القائم على ركيزتين: العسكري المتخفي، والإسلامي المهادن وتختلف التفاصيل داخل كلٍّ مشهد بحسب الظروف والبيئة في كلٍّ من تركيا وباكستان ولكن يبقى مضمون عام يشترك فيه كلٌّ من الدولتين، ولذلك في أعقاب الثورة عينت الولايات المتحدة سفيرة لها في القاهرة آن باترسون، وقد كانت تشغل لفترة طويلة سفيرة لأمريكا في باكستان وخاصة في ذروة الحرب غير المعلنة والتي كانت تشنُّها أمريكا على باكستان بالتوازي مع حربها في أفغانستان، وحتى المبعوث الأمريكي السيناتور جون كيري الذي كان على عَلاقة وثيقة بجنرالات باكستان ودائم الزيارة إليها أصبح منذ شهور نجم الساحة المصرية والذي يجتمع بجنرالات مصر وقادة الإخوان حتى كانت آخر زياراته في أوائل شهر مايو الحالي للقاهرة في قمة تصاعد التوتر بين العسكر والإخوان.

الخروج من هذا المأزق:

لابدَّ من ثلاث طرق يجب أن يسلكها التيار الإسلامي وفي القلب منه جماعة الإخوان المسلمين باعتباره القوة الشعبية الأكبر وصاحب مشروع يتجاوز إطاره المحلي لكي ينهض بالأمة كلها:

أولاً: ضرورة إعادة اللحمة والالتئام بالقوى الثورية الشريفة مهما كانت اتجاهاتها الفكرية أو أفعالها المتهورة، والتي خاضت مع الاسلاميين غمار ثورة ٢٥ يناير فكانوا كالجسد الواحد، ولن تتم هذه اللحمة إلا ببعض التنازلات التكتيكية من جانب الاسلاميين.

ثانياً: الحفاظ على الشعلة الثورية متقدة بالنزول إلى مليونيات أو غيرها من الوسائل الثورية طيلة الفترة القادمة حتى موعد تسليم السلطة في أواخر شهر يونيو القادم فالحال الثورية تلك تجعل المجلس العسكري تحت ضغط كبير.

ثالثاً: أن يسود منطق التفاوض والسياسة وتبادل الأوراق بين الطرفين القويين في مصر: الطرف الاسلامي والعسكريين فالصراع السياسي الآن صراع إرادات بين المجلس العسكري والقوى الاسلامية، وكل طرف يضع أوراقه ما ظهر منها وما بطن ويستعرضها استعداداً للحظة فارقة..لحظة تسليم السلطة والتي في الغالب لن تكون مكتملة؛ بل تتوقف على حنكة الإسلاميين في انتزاع أكبر قدر من التنازلات من الطرف الآخر؛ حتى لا تصل الأمور إلى لحظة صراع صفرية يكسب فيها الطرف الأقوى مادياً ويخرج منها الطرف الآخر خالي الوفاض.

ستجتاز مصر أزمتها... مصر الحائرة بين أي طريق تسلكها... مصر المترددة بين الواقعية والثورية... ولكن مصر الشباب الطاهر المؤمن هي القادرة على عبور كبوتها.

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

bayan@albayan.co.uk

كيف يراقب الصهاينة مستقبل مصر بعد الانتخابات الرئاسية؟

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com

تعيش تل أبيب حالة من القلق الشديد، والانزعاج المتزايد، بعد نجاح الإسلاميين المصريين في الوصول إلى سدة السلطة التشريعية، والتقديرات الكبيرة بنجاح مرتقب لهم في الانتخابات الرئاسية، ما يعني إمساكهم بزمام الأمور الكاملة في مصر، ممَّا دفعهم للتحذير من خطورة الأوضاع فيها على الأمن الصهيوني، ومستقبل «إسرائيل» في المنطقة، الذي بات غير مضمون ومظلم.

ومما يزيد من هذا القلق المتفاقم أن نتائج الانتخابات المصرية تؤكد أن الأخطار الأمنية تتزايد، وعليها التحرك بسرعة قبل تمكن الإسلاميين من حكم مصر، مما يجعل التحرك ضد القوى المعادية في المنطقة أمراً مستحيلاً، خاصة وأن الإسلاميين المصريين يتمتعون بعلاقات جيدة مع من يوصفون بـ«أعداء إسرائيل».

التخوف الصهيوني له ما يبرره بنظر دوائر صنع القرار، خاصة وأنه يعني نهاية معاهدة السلام، وصعود حكومة ملتزمة، لها أيديولوجية إسلامية، تضع نُصب عينيها تدمير «إسرائيل»، وإذا تواجد الإسلاميون في منطقة معينة، فإن «إسرائيل» ستشهد كارثة وكابوساً كبيرين، وفي الحد الأدنى فإن الوضع بالنسبة إليها سيكون غير مستقر، ويجب متابعة التطورات الجارية حالياً.

أكثر من ذلك، فإن النتائج المتوقعة للانتخابات الرئاسية المصرية، ستدفع باتجاه اتحاد القوى الإسلامية هناك، مما سيكبل أيدي «إسرائيل» في قطاع غزة، كما أن توجهاً متطرفاً سيسود منطقة الشرق الأوسط، وعلى الرغم من أن هذا ليس أمراً مفاجئاً، بل متوقعاً، لكن القوى الإسلامية الأكثر تنظيماً في الشارع المصري، قد حصلت على مساعدات كثيرة من جهات إسلامية عربية ودولية.

(*) كاتب فلسطيني.

الهوس والهستيريا:

وعلى الرغم من أن هناك دعوة لعدم إبداء مزيد من القلق - الذي بلغ حدَّ «الهستيريا والهوس» - من تطورات الانتخابات المصرية، لكن المستويات العليا في تل أبيب تتحسب لأي تطور مفاجئ بما في ذلك أسوأ الاحتمالات، والبحث عن الفرص الكامنة في التغيرات التي تمرُّ على مصر.

في ذات السياق، طرحت أجهزة الأمن الصهيونية المتابعة لملف الانتخابات المصرية جملة من السيناريوهات المحتملة لمستقبل الوضع في مصر، جاءت على النحو التالي:

١ **تسارع الأسلمة:** حيث سينجح الإسلاميون بصياغة دستور جديد يجعل الشريعة مصدر التشريع الرئيس، وتحول النظام المصري إلى برلماني، وينزع القوة من أيدي قادة الجيش، وسنَّ قوانين إسلامية في المراحل الأولى، بحيث يدخل الإسلام في كل مجالات الحياة، وهذا احتمال عالٍ.

٢ **ذوبان الإنجاز:** من خلال اتخاذ القوى العسكرية والاقتصادية في مصر - التي تخشى أكثر من أي شيء آخر صعود الإسلاميين - سلسلة من الخطوات السياسية للمسِّ بقوتهم، وتحاول دقَّ إسفين بين السلفيين والإخوان، بحيث تجعل إنجاز القوى الإسلامية أمراً عقيماً، ولا يبقى أمام الإخوان، الذين لا يرغبون في الدخول بمواجهة، سوى المساومة على السيطرة في السلطة التشريعية، وهو احتمال متوسط.

٣ **الوضع الراهن:** الإسلاميون يفوزون في الانتخابات الرئاسية، لكنهم يحافظون على طبيعة مصر، ولا يخلطون بين الدين والدولة، الذي يتغلغل على نحو أعمق، ويحرصون على عدم تجاوز الخطوط الحمراء كيلا يصطدموا بالجيش، بحيث إن الديمقراطية في مصر تتثبت، والانتخابات تجرى كل بضع سنوات بشكل سليم، وهو احتمال منخفض.

٤ **حرب أهلية:** بعد أن يفشل الجيش في محاولاته صدَّ صعود الإسلاميين للحكم، يعلن إلغاء الانتخابات، كما حصل في الجزائر، والإسلاميون يخرجون للشوارع؛ ليقمعهم الجيش والشرطة بعنف متعاظم، مما يؤدي إلى انشقاق في صفوفه، وفي نهاية المطاف نشوب حرب أهلية، وهو احتمال منخفض.

وممَّا يزيد من احتمالات التخوف والقلق الصهيوني، أن نتائج الانتخابات المصرية قد تسفر عن «تحول إستراتيجي» للأسوأ، لأن جميع علاقات إسرائيل بمصر تقريباً، قائمة مع الأجهزة العسكرية والاستخباراتية، بينما لا تمتلك علاقات مع المؤسسات السياسية المعادية، خاصة وأنه في حال قدَّم الإسلاميون مرشحاً معتدلاً للرئاسة، فإنه سيفوز فيها، وبنسبة تأييد مرتفعة جداً.

وما يزيد الأمر خوفاً داخل إسرائيل أن تطبيق العملية السياسية في مصر يفتح الطريق أمام الإسلاميين للتحول إلى قوة سياسية مركزية، لأنهم يمتلكون نسبة التمثيل الأكبر للغاية في البرلمان، وفرصهم جيدة للفوز في الانتخابات الرئاسية أيضاً.

سيطرة الجيش:

فيما أعربت محافل سياسية عن اعتقادها بأن «إسرائيل» لن تواجه تهديداً حربياً من جهة مصر خلال السنوات القريبة القادمة، حتى لو تسلَّم الإسلاميون سدة الرئاسة؛ لأنها منشغلة حالياً بمشاكلها الداخلية، آملة أن تصان معاهدة السلام بينهما في المستقبل كونها مصلحة مشتركة للجانبين، لكن «إسرائيل» ملزمة بأن تكون دائماً على أهبة الاستعداد لمواجهة أي طارئ، في ضوء التصريحات المقلقة للجماعات الإسلامية المصرية.

أكثر من ذلك، فقد أشار المستشرق البارز البروفيسور «إيال زيسر» إلى أن نتائج الانتخابات الرئاسية المصرية ستتأثر حتماً بفوز الإسلاميين في الكويت وتونس والمغرب، في حين أنَّ المصريين يوجّهون تلقائياً أنظارهم على المدى البعيد، نحو العمليات الجوهرية المستقبلية، برؤيتهم لتقوية وترسيخ موقفهم أكثر في الشارع المصري؛ لذلك فهم مستعدون للإذعان حتى الآن لسيطرة الجيش، والوضع الذي تكون فيه الديمقراطية في مصر مسيّرة شيئاً فشيئاً على مدى فترة متواصلة، وليس دفعة واحدة.

ولذلك فإن ما توصف بـ«العاصفة» الانتخابية التي تشهدها القاهرة في هذه الأيام تثير حالة من القلق الكبير في تل أبيب، مما يدفعها لأن ترصد بقلق متزايد ما يدور، وتعترف بأن حالة فقدان اليقين والفوضى في مصر من شأنها أن تنذر قريباً بعهد جديد خطير، كما تطرح بعض التوقعات السوداء حول وضع «إسرائيل» مع جيرانها: من مواجهة مستقبلية مع مصر، عبر جمود تام في العلاقات التي حددتها اتفاقية «كامب ديفيد»، وصولاً إلى خطر يهدد أمن «إسرائيل» مع الأردن، ومستقبل اتفاقية «وادي عربة».

ولذلك فإن الوضع الجديد الذي تحياه مصر عشية الانتخابات الرئاسية يمثل لـ«إسرائيل» زلزالاً حقيقياً، وليس من الواضح أنه سينتهي في المستقبل القريب، وبأي صورة سيتم حل المشكلة، ممَّا سيقلب الأمور رأساً على عقب، وستواجه «إسرائيل» مصر أخرى، حيث ستجد نفسها في وضع سيء جداً، وقبل كل شيء، سيحدث برود في اتفاق السلام لدرجة الجمود التام في العلاقات، وبعد ذلك مخاطر متوقعة، وستطرح عندهم الكثير من علامات الاستفهام، هذا الوضع من شأنه أن يصبح معقداً ومركباً جداً.

ويزداد هذا الخطر المتفاقم إذا ما اتضح أن الاتفاق الإستراتيجي الصهيوني مع مصر، يُعدُّ الثاني في أهميته بعد العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك، وعلى ضوء السيناريوهات، يمكن التقدير بأن وضع احتمال الدخول في حرب مع مصر يجب أن يؤخذ في الحسبان.

الأمين العام للهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح لـ (البيان):
الدكتور محمد يسري: الأصل ألا يتوقف تطبيق الشريعة على شيء ولا على أحد بعد اكتمالها.

حـــــاوره: جـــلال الـشـايـب

ليس لأحد أن يقول بالتدرج في تطبيق الشريعة؛ إلا في الضرورة والاضطرار.

لسنا مع تثوير الناس ضد مؤسستي العسكر والقضاء لأنهما تمثلان أعمدة نظام الدولة.

على المصريين أن يبحثوا عن الأتقى لله والأرضى له - سبحانه- والأنفع لعباده.

قضية الرئاسة من قضايا الشأن العام التي ينبغي أن يتجرد فيها الناس لله في تقديم من هو الأنفع والأصلح والأفضل.

تُعدُّ الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح أول هيئة إسلامية تمَّ إنشاؤها عقب سقوط النظام البائد، وفيها ممثلون لكل الجماعات والتيارات الإسلامية بأسمائهم وصفاتهم، وتلعب دوراً كبيراً في تسيير دفة الأحداث في مصر سواء أكان فيما يتعلق بالانتخابات الرئاسية – وهي الحدث الأبرز على الساحة المصرية الآن- أم غيرها من القضايا المطروحة وما تحتمله من صدامات مستقبلية استناداً إلى احتقانات ماضية وحالية؛ ومن هنا جاءت أهمية الحوار مع أمينها العام الدكتور محمد يسري إبراهيم؛ لنطرح معه بعض التساؤلات المهمة في شأن الانتخابات الرئاسية؛ وخاصة بعد أن أظهرت الهيئة دعمها للدكتور محمد مرسي، مرشح حزب الحرية والعدالة؛ فإلى الحوار:

البيان: ما رؤيتكم في المشهد السياسي المصري الآن، وخاصة بعد أن جلستم مع معظم التيارات المتفاعلة في الأجواء المصرية؟

د.يسري: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وعلى آله صحبه أجمعين: هذه اللقاءات التي جرت بين اللجنة التي شكلتها الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح، ومرشحي الرئاسة انتهت إلى جملة نتائج، وتحققت من خلال هذه اللقاءات مجموعة أهداف؛ فلقد هدفت الهيئة إلى تحقيق هذا القدر المهم من التواصل بين رموز الحياة المصرية ورموز المشاركين في العملية السياسية، وقد تحقق -بحمد الله- هذا الهدف من خلال الاتصال بعشرة من كبار المرشحين الموجودين على الأرض؛ وقد عنيت الهيئة بلقاء كل من ينتسب إلى هذه البلاد بوطنية وصدق واشترطت ألا يكون ممن شارك في الحياة السياسية، أو انتسب بشكل أو بآخر إلى ما سميَّ بـ (فلول)

النظـــام البائد أو بـ (فلول) الحزب الوطني الذي ساد البلاد في مرحلة من مراحل الضعف والفساد.

وقـــد اســـتطاعت الهيئـــة أن تكتســـب ثقـــة واحتـــرام هـــؤلاء المرشـــحين نظراً لمـــا قامت به من مقابلات كشفت عن حرفية ومهنية عالية، حيث إن الهيئة شكلت لجنة من كبار المتخصصين في الجوانب السياســـية والاقتصادية وما يتعلق بالشأن العام، كانوا يهتمون بمقابلة هؤلاء المرشحين إضافة إلى أعضاء مجلـــس أمنـــاء الهيئة الشـــرعية للحقوق والإصلاح، كما استطاعت -من خلال هذا التواصل- أن تفتح باباً من أبواب التفاهم، وتسعى إلى إحداث هـــذا القدر مـــن التناغم، وتصحيـــح الصـــورة المغلوطة عند بعض المرشـــحين عـــن الاتجاهات الوطنية أو الإسلامية الموجودة في بلادنا.

معايير الاختيار

البيان: دعمت الهيئة الشرعية مؤخراً الدكتور محمد مرسي رئيساً لجمهورية مصر العربية، فما المحاور الرئيسة التي وضعتها الهيئة كآليات في نقاشها للمرشحين التي قابلتهم؟

د.يسري: مضت الهيئـــة لتحقيق هذه الأهداف عبر خطـــوات، الخطوة الأولى: قامت بتشـــكيل لجنـــة لإدارة هذه العملية، وشُـــكلت بالأصالة مـــن أعضاء الهيئة الشـــرعية؛ ولقد قامت بمراجعة المختصين؛ وعملت على وضع المعايير التي على أساسها يمكن أن يُختار رئيس البلاد.

هـــذه المعايير متعلقـــة بمختلف القضايا والمحاور الشـــخصية والمنهجية والعملية الخاصة بالشـــخصية، ووضعت أوزاناً نســـبية لـــكل معيار من هذه المعاييـــر، كما وضعت قيماً ودرجات إلى آخره بحيث إن اللقاء يخرج عن كونه كلمة يلقيها المرشـــح، أو إبداء وجهات نظره في بعض القضايا، إلى مُراجعة شـــاملة في كل محاور التفكير، وكل مسائل السياســـة الداخلية والخارجية، وبالتالي تعرض المرشـــح لنقاشـــات تفصيلية حول محاور ســـتة رأت الهيئة أهميتها وأولوياتها، فناقشـــت الهيئة المرشحين في الموقف من قضية تطبيق الشريعة، ومن المؤسسات والجهات الرسمية الدينية كمؤسسة الأزهر ومجمع البحوث الإســـلامية؛ والواجب نحو هذه المؤسسات. وكيف يمكن العمل على تطويرها؟ وما الآليات والإجراءات والتصورات الموجودة عند المرشـــح لتطبيق الشـــريعة الإسلامية؟، ثم الموقف من الكنيسة المصرية والأقباط، وكيف يمكن التعامل مع الفتنة الطائفية التي تطل برأســـها بـــين حين وآخر؟ وما موقف المرشح من الدستور المقبل؟ وكيف ينظر إليه؟ وما موقفه ممَّا يسمى بالتوافق حول الدســـتور المصري هذا كله كان في محور اســـتكمال تطبيق الشـــريعة الإسلامية.

محور السياسة الداخلية

ثم ننتقل مع المرشح إلى محور السياسة الداخلية فنسأله: كيف يمكن أن يعود الجيش إلى ثكناته مرة أخرى؟ وكيف يمكن أن تستعيد مؤسسات الدولة هيبتهـــا؟ وكيف يمكن أن يُعاد هيكلـــة وزارة الداخلية؟ وكيف يمكن للأمن أن يعود؟ وكيف يمكن القضاء على حالة الانفلات الموجودة في الشـــارع المصري ليس فقط عملياً ولكن أيضاً تنظيرياً؟ وكيف يمكن إعادة حالة الانضباط إلى الحياة المصرية؟ وغير ذلك من ملفات الشأن الداخلي للدولة.

محور الحكم وشؤون الدولة

ثم نذهب معه إلى محور آخر وهو ملف الحكم وشـــؤون الدولة، فنســـأل المرشـــح: ما موقفه من قضية المركزية واللامركزية في الحكم؟ وما رؤيته في الدولة المقبلة؛ هل تكون دولة رئاســـية أم برلمانية أم دولة مختلطة؟ ثم ننتقل إلى الحديث عن محور السياسات الخارجية، وكيف يراها المرشح؟ وما الموقف

الصحيح والمنضبط من قضية الاتفاقات والمعاهدات الدولية التي أبرمتها مصر مع العالم الخارجي سواء أكان منها المعاهدات الإقليمية أم الدولية وما يتعلق بالمعاهدات الخاصة كاتفاقية كامب ديفيد مثلاً؟.

محور دور مصر الإقليمي

ونتحاور بعد ذلك حول دور مصر الإقليمي؛ فنناقش مصر قُطرياً، وأفريقياً، وعربياً، وإسلامياً، وعالمياً، وننظر كيف يمكن أن تستعيد مصر دورها الخارجي؟ وكيف تعود إلى سابق عهدها وأثرها الملموس في العالم بأسره؟ ونناقش معه بعض القضايا الدولية ذات الصلة بالشأن المصري كقضية مياه النيل والمشاكل التي تتعلق بها، وتأثيرات ما يجري في السودان على الحياة في مصر؟.

ملف التنمية

كما نسأله عن ملف التنمية في مصر؛ لنناقش كيف تخلفت مصر؟ وكيف يمكن أن تنهض؟ وما مشاريع المرشح وخططه التي سوف يقوم بها في حال فوزه بانتخابات الرئاسة؟ كيف يستطيع أن يعود بمصر لسابق عهدها في الازدهار الاقتصادي؟ كيف يحقق لها الرواج التجاري؟ كيف ينهض بملف تنمية الإنسان واستعادة خصائصه التي فقدت عبر العهود السابقة؟

كما نتناقش معه تفصيلاً في بعض الملفات المهمة كملف الصحة والعلاج المجاني، والتعليم؛ والتعليم المجاني، والتربية؛ والرؤية التي يجب أن تُعتمد لتربية النشء وتهيئته لغد مشرق - بإذن الله تبارك وتعالى -، ورؤيته حول الخروج من الأزمات الاقتصادية الحقيقية والمفتعلة.

وأخيراً: ملف أولويات الرئيس في المرحلة الأولى من رئاسته وهي القضايا الأخطر بالنسبة إليه، فمثلاً: ما المسائل التي سوف يبدأ بها؟ وأين سيتوجه في أول زيارة سيقوم بها خارج البلاد؟ وما أجنداته في أول مئة يوم لرئاسته؟.

كل ما سبق وأكثر هو ما نديره في حوار طويل يمتد مع كل مرشح إلى بضع ساعات في اللقاء الواحد.

البيان: بعد انتهاء اللجنة التي وضعتموها لاختيار مرشح الرئاسة القادم؛ هل تحققت تلك الأهداف المرجوة قبلاً؟

د.يسري: -بفضل الله تعالى- حققت هذه اللجنة أهدافها التي توختها من مدَّ جسور التواصل مع هؤلاء المرشحين، وتصحيح الصورة عند بعضهم عن الإسلاميين، وتصحيح الصورة عنهم وعن مواقفهم أنفسهم من القضايا المختلفة، ومحاولة وزن كل مرشح من خلال المعايير التي وضعتها الهيئة وإعطائها تقويماً دقيقاً لكل شخص من هؤلاء؛ والنتيجة أن كل ذلك - بحمد الله تبارك وتعالى - قد تحقق.

ويبقى أن أذكر في هذه النقطة أمراً مهماً؛ وهو أن المشهد متغير، وما كان من قرار قد يتغير بتغير الظروف والمآلات.

رجل رفع سقف الدعوة

البيان: تابع العالم كله تقريباً؛ قضية الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل مع لجنة الانتخابات، والتي انتهت باستبعاد الشيخ من سباق الرئاسة، وأظهرته في صورة الرجل الكاذب المتجرئ على أمته بالخداع؟ فما رأيكم فكيف تقرؤون هذه القضية؟

د.يسري: فضيلة الشيخ حازم أحد الدعاة المعروفين، وأحد المتحدثين الذين يُشهد لهم بالكفاءة في القول، وممَّن ساهم في الدعوة الإسلامية بإسهامات واضحة جداً في الفترة الأخيرة من خلال لقاءاته الفضائية والتلفزيونية المصورة والمسموعة؛ فلقد استطاع من خلال سباق الرئاسة أن يحقق أهدافاً كثيرة للدعوة إلى الله - عزَّ وجلَّ - حيث إنه استطاع أن ينشر هذا المنهج الإسلامي ويكسب له أنصاراً كثيرين، وأنْ يبشر بقضية الشريعة وأن يجمع الناس حولها، وهذه من أكبر الحسنات التي تحققت من خلال الشيخ للدعوة إلى الله، وقضية الشريعة وهذا ممَّا ينبغي أن يذكر فيشكر، ولو لم يكن له من هذه الحملة الانتخابية الموسعة إلا نشر قضية القناعة والإيمان العميق بقضية الشريعة، وبقضية المنهج الإسلامي لكفاه عند الله - عزَّ وجلَّ -، وفي النهاية: إن الهيئة الشرعية تُكِنُ لعضو جمعيتها العمومية الشيخ حازم صلاح كل التقدير وتثمن كثيراً هذه المواقف التي قام بها في المرحلة السابقة.

افتراء إعلام

البيان: ما تعليقكم على تصوير الإعلام لمواقف أنصار الشيخ حازم، بأنهم إرهابيون يسعون في الأرض فساداً، فينقلون الأكاذيب عنهم، ويؤولون على ألسنتهم التصريحات والافتراءات؟

د.يسري: هذه قضية لا نقبلها؛ لأن المحيطين بالشيخ حازم أبو إسماعيل فئات متعددة ومتنوعة منهم من عامة الشعب المصري، ومنهم من المنتسبين إلى المنهج السلفي، ومنهم من ينتسب إلى جماعه الإخوان، ومنهم من ينتسبون إلى جماعات الغلو والتطرف، فلا يصلح أن يُعمَم الحكم على هؤلاء جميعاً بأنهم على هذا النحو المذكور؛ وذلك لأن الشيخ حازم بشخصه ليس ممَّن ينتسب إلى طوائف الغلو بحال لا في تاريخ ولا في خطابة.

أداء سياسي

البيان: ما تعليقكم على أداء الإسلاميين السياسي منذ اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير؟

د.يسري: هذا موضوع كبير جداً يحتاج إلى تفصيل وبسط في الكلام، كما يحتاج إلى بحث طويل؛ إنما الحركات الإسلامية المصرية - بحمد الله تبارك وتعالى - في الجملة أبلت بلاء حسناً وأدت دوراً جيداً، واستطاعت التأثير في مجريات الأحداث، ولا نستثني أحداً من هذا، فالإخوان والجماعات السلفية، والجماعة الإسلامية وجماعة أنصار السنة المحمدية، والجمعية الشرعية -على الرغم من انقطاعها للعمل الدعوي فقط - وجماعة التبليغ والدعوة... إلخ من الهيئات الإسلامية الأخرى.

فلقد استطاعت هذه الجماعات أن تملأ المشهد وأن تملأ الفراغ، وأن تحقق كثيراً من الإنجازات والإيجابيات: بعضها يتعلق بالجانب الدعوي والشرعي، وبعضها يتعلق بالجانب السياسي، وبعضها يتعلق بجانب إدارة الحياة بشكل عام، ومعظمها جماعات لم يظهر لها مشروع سياسي في الفترة السابقة فبدا الآن.

ومن واجب القول: إن بعض الهيئات أحسنت في مواقف وأساءت في أخرى، واستطاعت أن تكسب الجولة في قضية وأن تخسرها في أخرى؛ لكن التقييم العام والإجمالي هو أن هذه الطوائف والجماعات كانت على قدر المسؤولية، وهذا حكم عام لأبناء الحركة الإسلامية اليوم برفع غطاء القهر والاستبداد الذي كان يجثم على صدور وقلوب الجميع، والكل الآن في مسيرة من البناء والتنمية ومسيرة من المواجهة والمدافعة، فهم يواجهون ويدفعون كثيراً من الإشكالات وكثيراً من الافتراءات وكثيراً من الشبهات؛ وفي نفس الوقت يعملون على بناء أنفسهم وتنمية قدراتهم وإقامة هياكلهم وإنشاء حياتهم المعاصرة على شكل يحقق لمصر ما تصبو إليه من التقدم والرقي والنماء والاستقرار - بإذن الله تبارك وتعالى - الأداء العام للتيارات والجماعات والطوائف الإسلامية بالجملة أداء محمود؛ ولهذا استثناءات لكن الاستثناء كما يقال يثبت القاعدة.

ملحوظات على الأداء

البيان: هلا مثَّلتَ لنا بعض النماذج من تلك الاستثناءات التي تثبت القاعدة كما ذكرتم؟

د.يسري: يمكن أن نرصد بعض هذه الملحوظات على أداء هذه التيارات منها: أولاً: التأثر بالخلفية السابقة والتاريخية في العلاقات التي كانت بين تلك الجماعات، وقد كان هذا من عمل النظام البائد؛ كأجهزة أمن الدولة مثلاً؛ ممَّا ترتب عليه وجود حساسيات بين هذه الطوائف جعلت الكلمة مفترقة، والصف منقسم، والرايات متعددة؛ واستمرار هذه الحال أمر لا ينبغي.

والأمر الثاني: هو أن الحركة الإسلامية التي تمارس العمل السياسي أو الحزبي اليوم تستشعر قدراً من عدم النضج؛ ولتحقيق هذا النضج وتحصيله يحتاج إلى أسباب وإجراءات متعددة بدءاً من التثقيف السياسي مروراً بالتربية السياسية وانتهاء بالجهاد والحراك

السياسي، فلا بدَّ من إيجاد ثقافة سياسية عند مختلف أبناء الحركة الإسلامية، وأن يربى أبناء الحركة الإسلامية على كيفية وقوف الفرد منهم موقفا سياسياً صحيحاً من قضيه من القضايا السياسية المعاصرة أو المطروحة. وكيف تقوم الطائفة أو الفئة أو الجماعة بهذا الدور بين أبنائها حين تحسن تربيتهم سياسياً؟ ثم كيف يمكن أن تمارس هذه الجماعة أو هذا الحزب اجتهاده السياسي برشد من خلال المواجهات السياسية والمنازلات السياسية والوسائل السياسية المختلفة؟

والعمل الإسلامي يحتاج اليوم إلى هذا المعنى للحرص على النضج السياسي، والبعد عن المراهقة السياسية في مواقف أو في تصريحات أو في رؤى أو في تحالفات، وهذا يبدو لي من الأهمية بمكان تحقيق وتحصيل النضج في الممارسة السياسية، طبعاً حداثة هذه التجربة وقلة الكفاءات والكوادر المدربة، وهذا ممَّا ينبغي الاعتناء به والاهتمام به في المرحلة الآتية – بإذن الله تبارك وتعالى –.

كمال الشريعة

البيان: كيف ترون قضية تدرج تطبيق الشريعة خاصة أننا رأينا في النموذج التونسي تصريحات تنادي بعدم تطبيقها؟

د.يسري: هذه الشريعة انتهت – بحمد الله تبارك وتعالى – كاملة مكمله حين أنزل الله – عزَّ وجلَّ – قوله: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

فالأصل ألا يتوقف تطبيق الشريعة على شيء، ولا على أحد بعد اكتمالها وتمامها، وتحكيمها بالكامل، خلال ثلاثة عشر قرناً متعاقبة من الزمان، فليس لأحد أن يقول بالتدرج في تطبيق الشريعة؛ لكن الحال التي يمكن القبول فيها هي حال الضرورة والاضطرار؛ فقط في هذه الحالات: إذ لا محرم مع الاضطرار، والضرورات تبيح المحظورات؛ لكن الضرورة تقدر بقدرها، فالأصل أن تطبق الشريعة بكمالها وبجملتها إلا إذا تعذر هذا التطبيق، وامتنع فإنه يبقى هذا موضع من مواضع الضرورة التي يقدرها أهل العلم وينظرون فيها ويهيئون الأسباب لتلافي حال الضرورة ورفع حكمها حتى يتهيأ المجتمع لتطبيق الشريعة بكاملها – بإذن الله تبارك وتعالى– ولدينا من القواعد الفقهية والأصولية والنصوص الشرعية ما يشهد لهذا المعنى بتمامه وكماله.

مجلس رئاسي

البيان: نعود لقضية الرئاسة المصرية، هل ترون إمكانية التفاوض على فكرة عمل مجلس رئاسي أو رئيس توافقي إسلامي، وذلك لجمع الشمل؟

د.يسري: هذه فكرة مطروحة طبعاً؛ وهي موضع بحث الآن من مختلف الأطراف كيف يمكن أن يجمع بين المرشحين الإسلاميين في نسيج واحد وقوي ومتماسك ومتناسق؟، وكيف يمكن احتواء القوى الأخرى في المجتمع وتمثيلها بشكل معتبر في هذا المجلس الرئاسي؟؛ الذي قد يتكون من رئيس ومن نواب ومن مجموعة من المساعدين والمستشارين في نفس الوقت، وفي حال يبنى من خلالها مشروع للنهضة على خلفية هذه الشريعة الإسلامية – بإذن الله تبارك وتعالى – وهذا مما يجري فيه العمل الآن، ونرجو أن تُسفر الأيام القليلة القادمة عن وجود هذا المجلس والاتفاق عليه والتوافق عليه – بإذن الله تبارك وتعالى–.

الدستور والرئاسة

البيان: ما رأيكم في قضية وضع الدستور والرئاسة أيهما أولاً؟، ثم من وجهة نظركم لماذا يتمسك المجلس العسكري بالدستور قبل الرئاسة؟

د.يسري: في الحقيقة إن المجلس العسكري هو جهة من الجهات المؤثرة في الحياة السياسية اليوم؛ لأن الجيش المصري حكم ولمدة ٦٠ عاماً، وخروجه من السلطة بهذه السهولة ليس أمراً ميسوراً؛ وقد قال الله – تعالى –: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ٢٦] فهنا نازع للملك والنزع لا يكون بسهولة؛ النزع لا يكون إلا بمشقة فلا شك أن فيه مشقة حقيقية على الذين عاشوا يحكمون لعقود متصلة أن يتركوا الحكم ويغادروه، ولهذا أستطيع أن أفهم قلق المجلس

العســـكري على وضعه في الدستور، قلقه على الموقف من ميزانية الجيش، قلقه على استثمارات يقوم بها الجيش لحسابه؛ ربما تمثل ثلث الاقتصاد المصري. كل هذا قد يدعو إلى القلق بالإضافة إلى الامتيازات الشخصية التي قد توجد لأعضاء هذا المجلس. كل هذا ممَّا يحمل الجميع على القلق، ماذا سوف تؤول إليه الأمور؟

وينبغي على الحكماء والعقلاء أن يوجهوا هذه الرســـائل التي تطمئن المجلس العســـكري أننا لســـنا بصدد ثورة تطيح بالمجلس العســـكري، وإنما بصدد ثـــورة تحترم الجيش المصـــري، وتحترم المؤسسة العسكرية، وتعطيها قدرها، وليست في الحقيقة الخصومة والمنازعة والثورة على الجيش المصري أو على المؤسسة العسكرية.

الرئيس والعسكري

البيان: كيف ترون سيناريوهات الرئيس القادم والمجلس العسكري؟

د.يسري: لا بـــدَّ على كل حال من الأحوال أن تقوم عَلاقة متوازنة بين الرئيس وهذه الجهات التي يقوم على رئاســـتها، فهو رئيس لكل المصريين العسكريين والمدنيين على حد سواء. وهو رئيس القضاة ورئيس المحاميـــين، فلابدَّ أن يجد الرئيس المصري هذه الوســـائل التي من خلالها يحقق التوازن في التعامل مع هذه القوى الموجودة في المجتمع، وأن يســـتطيع العمل على هذا القدر المطلوب من التوازن بين السلطات، وينبغي لرئيس الجمهورية أن يكون بهذه القوة وهذه الصلاحية وهذه القدرة التي تمكنـــه من إدارة المرحلة التي تمرُّ بها البلاد بقدر عال مـــن الهدوء، وقدر عال من التـــوازن، وقدر عال من مراعاة الخصوصيـــة الموجودة من غير أن يفضي هـــذا إلى تفريغ الثورة مـــن محتواها، أو تحويلها إلى ثـــورة غير حقيقية أو هامشية.

البيان: ما تقييمكم للتعامل بين الإسلاميين والمجلس العسكري في الفترة الماضية؟

د.يسري: في الجملـــة؛ الإســـلاميون لا يريدون أن يدخلـــوا صراعاً مع العســـكريين، بل يوجهـــون خطاباً دعوياً هادئـــاً رقيقاً إلى المؤسســـة العســـكرية وإلى أفرادها وإلـــى قيادتها بأن الإســـلاميين يقدرون ويثمنون دور الجيـــش المصري، ودور المؤسســـة العســـكرية المصرية، وأنهم ينظرون إلى ما قامت به هذه المؤسسة في الثورة نظرة تقدير واحترام، وليسوا مع الذين يقولون: إن الجيـــش كان مجبراً وكان مضطراً وكان لابدَّ أن يفعـــل مافعل وأنه لم يكن له خيار آخر؛ فلقد رأينا خيـــارات أخرى للجيش في الجزائر وليبيا واليمن، ونرى له الآن خياراً آخر في سورية، نحن نُكنُّ تقديـــراً واحتراماً للجيش المصـــري الذي وقف وقفة معتبرة في هذه الثورة.

الجيش أخطأ في بعض المواقف، نعم أخطأ. كانت عليه مؤاخذات، نعم عليه مؤاخذات. المجلس العسكري أســـاء التصرف في بعض القضايا، نعم أخطأ أخطاء سياسية وميدانية. كل هذا يمكن التسليم به. لسنا مع تفجير الموقف مع الجيش، ولسنا مع تثوير الناس ضد هذه المؤسســـة الكبرى، وكذلك ضد مؤسسة القضاء؛ التي لا نراها ممثلة في هذه اللجنة الرئاســـية والتي عليها مؤاخذات كثيرة في مواقفها.

معايير التصويت

البيان: أخيـــراً هـل يـكون تـصويت الـنـاخـب لمرشحي الرئاسة مؤيداً لانتمائه الحزبي أم لضميره؛ لأنها شهادة يسأل عنها أمام الله؟

د.يسري: المصريون ليســـوا كلهم أعضـــاء في جماعات، وليـــس كل أعضاء الجماعات قـــد أخذوا بيعة على أصحابهم، وليســـت البيعة ملزمة لكل أحد فـــي كل قضيـــة، وينبغي أن يبحـــث المصريون عن الأتقى لله والأرضى له – ســـبحانه وتعالى – والأنفـــع لعباده، فهذا ممَّـــا ينبغي أن يعتني المصريون بتحقيقه بغض النظر عن الانتماءات والولاءات؛ لأن قضية الرئاســـة هذه من قضايا الشـــأن العام التي ينبغي أن يتجرد فيها الناس لله – تعالى – في تقديم من هو الأنفع والأصلح والأفضل، وينبغـــي أن تتحرر فيها إرادة الناس، فمن وافقت إرادته إرادة طائفته أو جماعته فله أن يأخذ بهذا والحمد لله؛ وإن خالف فعليه أن يســـتفتي إماماً في دائرة جماعته، أو في دائرة أوسع وهي دائرة العلم الشرعي الذي يحكم على الأفراد والجماعات والطوائف على حدٍّ سواء.

الصعود للقاع

محمود حسين عيسى

استيقظ على صوت السجان الغليظ.. وهو ينادي عليه من شراعة باب الزنزانة؛ بعد أن قرع الباب بقوة: قم للخروج للتريض؛ بدل ما تتلف عضلاتك.. إن كان عندك عضلات أصلاً.. أكيد كل جسمك لحم ودهون من أكل اللحوم.. التي حرمتها علينا؛ بعد ما وصل سعر الكيلو منها أكثر من نصف راتبي..! قم وانهض..!

لم يحرك سعيد ساكناً..!

السجان: قم.. منذ أن جئت أول أمس؛ لم تأكل شيئاً.. ولم تغادر الزنزانة.. ولم أرك إلا والدموع منهمرة من عينيك..!

لم يعره سعيد اهتماماً..!

أغلق السجان الباب..وهو يتمتم الحكمة الشعبية:(اللي يأكل على ضرسه ينفع نفسه).

• • •

جلس سعيد جلسة القرفصاء..ودفن رأسه بين ركبتيه وراح ينتحب ويشهق..! إلى أن أعياه البكاء.. وتورمت عيناه.. فأسند رأسه إلى جدار خشن أصابه بألم خفيف فتذكر رأس كرسيه الوثير في مكتبه، وسيارته، وقصره، فصرخ في نفسه صرخة مدوية أيقظت بقايا ضمير حاول القضاء عليها سنين طوالاً ليستريح منه تماماً إلا أنه أخفق في ذلك، بل فشل فشلاً ذريعاً.. رآه واقفاً أمامه في صورة غير صورته المعهودة لديه..!

سأله سعيد وهو يرتجف من الخوف: ماذا حلّ بك ؟! كيف تحولت من مارد إلى قزم..؟!

- أنت..!

سعيد مستنكراً: أنا..!

- نعم.. أنت

سعيد مستفهماً: كيف ؟

- أنسيت ما فعلت بي.. كنت في شبابك تأخذ بنصيحتي.. وتتبنى رأيي.. وتحافظ لي على حيويتي.. وكنت تشنف أذاني دائماً بقولك لمن يغريك ويرغبك في طريق الحرام، والانحلال: لا.. أنا أخاف الله.. ثم تتبعها بقولك: ضميري لا يسمح لي بذلك..!

وكنت أعمل جاهداً على استمراري يقظاً كيلا تتسلل

إليك نفسك الأمارة بالسوء، أو وسواس خناس من الجن أو الناس.. وكنت أُصَبِّر، وأشجع نفسي وأهنئها في الوقت ذاته أن جهادي هذا يأتي بالنتائج المطلوبة.. وكنت أتغافل عن الهنات والأخطاء التي كنت تقع فيها.. فالتغافل علاج في مواقف ما..!

وتجاوزنا سوياً مرحلة الشباب الخطرة، وانتقلنا إلى مرحلة ما بعد الجامعة.. وقد تم تعينك معيداً في إحدى كلياتها المرموقة.. كيف لا وأنت المتفوق.. المتميز.. وكانت سعادتي كبيرة عندما قررت أنت إكمال نصف دينك.. عصمة لنفسك.. وغضاً لبصرك..! وكنت أكثر سعادة بتقدمك العلمي؛ الذي مكنك من تحصيل الدرجات العلمية في فترة زمنية قياسية.. مما ساعدك على تبوء المناصب الإدارية في الكلية ثم الجامعة حتى وصلت إلى قمتها..!

وليتك ما وصلت..!

بدأت الأنظار تتجه حولك.. والأضواء تسلط عليك.. والحوارات التليفزيونية، والصحفية تنهال عليك كالمطر شتاءً وصيفاً..! فبدأت تدير ظهرك لنصائحي.. ولا تبالي لحديثي.. واستبدلته بحديث نفسك.. وأنصت لوسواسك الخناس الذي جثم على صدرك.. بعد أن رحبت به، وأفسحت له الطريق.. وبعد أن شغلك هواك.. وبهرتك الأضواء.. وغيرتك الشهرة.. وانقطعت عن ذكر الله.. فلم يخنس وسواسك..! فأخذ مكاني بجوارك..!

فقررت ألا أنسحب وأتركك فريسة لهم.. وأعلنتها أمامهم: حرب بيني وبينكم لا هوادة فيها.. وعزمت أن أنتصر.. وظننت أنك ستفيق وتنحاز لي، وتقف في صفي لمواجهتهم.. ولكن خاب ظني.. وانحزت لهم.. ووجدت نفسي وحيداً.. أمامكم..!

وتساءلت في نفسي: ماذا أفعل ؟ خذلني رفيق دربي.. هم أقوى منّي.. أأتركه يتحمل نتيجة اختياره.. وأنزوي كما أراد لي؟

لكن كيف أتركه وهو منّي وأنا منه ؟!

لا.. لن أتركه فريسة سهلة لهم..!

• • •

رأيتهم يغرونك بكل ما يملكون.. يزينون لك الحرام..!

نصحتك...

أشحت بوجهك عنّي..!

رأيتك تقترف جريمة رشوة مبطنة.. بعد أن أوهموك أنها مجاملة بسيطة من شركة الإنشاءات التي أرسيت عليها عملية صيانة مرافق الجامعة بالأمر المباشر..! وأنت في زهو بسلطتك..! وسعادة برصيد نقدي لم تكن تحلم بامتلاكه بهذه السرعة..!

انتحيت بك جانباً.. ذكرتك بأن الراشي والمرتشي ملعونان.. وذكرتك بماضيك المشرف..!

علا صوتك عليّ.. ونهرتني أمامهم.. وأعطيتهم فرصة الهمز واللمز بي.. والسخرية منّي..!

• • •

ورأيتك تتبوأ المنصب تلو المنصب.. وتزداد رغبتك في الامتلاك.. ويزداد طغيانك وظلمك للعباد.. لم ترع في مرؤوس لك كرامة.. ولم ترع في مال سطوت عليه حرمة.. ولم يعد همك إلا امتلاك القصور.. والسيارات الفارهة.. وكم أصبح رصيدك في بنوك الداخل والخارج الذي تسأل عنه كل ساعة..!

• • •

مرت السنون ببطء شديد عليّ.. وبسرعة فائقة عليك..! كنت أزداد إصراراً على الظهور أمامك.. ونصحك غير عابئ بما يصيبني منك ومن أعوانك..! وكنت تزداد إصراراً على التخفي منّي.. وازدراء قولي.. وكان النصر حليفك أنت وأعوانك عليّ.. فبدأت تقزمني في نفسك..! حتى صرت كما تراني..! وصرت أنت كما أراك..! لا وجود لك..! ستقضي كما يقضي كل شيء.. وسأحاجك في الموقف المشهود..! لا عذر لك عندي..! دمرت حياتك وآخرتك..! فلا تلومن إلا نفسك ووسواسك..!

ينخرط سعيد في بكاء حاد.. يكاد يزهق روحه..!

- ابك على نفسك وارثها.. فلن تبك عليك البواكي..!

• • •

[المسلمون.. والعالم]

المشروع السُنّي في سباق المشاريع
د. عبد العزيز كامل

الشريعة في دستور تونس شعار المرحلة
فتحي السعيدي

تعقيدات الأزمة السورية وآفاق الحل
محمد سليمان الزواوي

مرصد الأحداث
جلال سعد الشايب

المشروع السِّنِّي في سباق المشاريع

د. عبد العزيز كامل
d.amk@hotmail.com

في مقال سابق – عدد (٢٩٨) – من مجلة البيان، تحدثت عن مجريات (مئة عام من الحصار) الذي فرض على المشروع الإسلامي الجامع لشعوب أهل السنة، منذ إسقاط آخر صيغة عالمية له، ممثلة في دولة الخلافة العثمانية، الملغاة عام ١٩٢٤م بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، وتناولت التفاعلات الواقعة والمتوقعة من جراء ذلك الحصار المتواصل على المشروع السُّنِّي من وقتها وحتى الآن، لافتاً النظر إلى خطأ التجاهل أو التغافل عن ذلك الخطر عند قادة الرأي وأصحاب القرار من الإسلاميين، خاصة بعد موجة الثورات العربية، التي ستُصور حتماً على أنها يمكن أن تمثل قفزة هائلة للخروج من ذلك الحصار، للمشاركة بقوة في مضمار السباق بين المشاريع المتصارعة منذ عقود طويلة في قلب العالم الإسلامي المسمى منذ مطلع القرن التاسع عشر بـ (الشرق الأوسط).

مصطلح «الشرق الأوسط»، يشمل مناطق الجزيرة العربية وأقاليم الشام والعراق ومصر، وأضيفت إليها إيران لأغرض تاريخية. فبلاد الشرق الأوسط مساحة جغرافية ذات خصوصية، تميزت بين سائر بقاع العالم بأنها مهد الحضارات، ومهبط الرسالات، وملتقى القارات، ومطمع القوى العظمى الطامحة إلى الإبقاء على قوتها وسيطرتها بضمان السيطرة على مقدرات تلك المنطقة، ومستودعات كنوزها العظيمة، وممراتها المتحكمة في التجارة العالمية، ومواقعها الإستراتيجية الفريدة، ولذلك كانت عبر التاريخ – ولا تزال – أشبه بميدان سباق أو حلبة مصارعة، وقد أكسبها الأمريكيون مؤخراً أبعاداً دولية أهم، بعد أن جرى توسيع مفهوم ذلك (الشرق الأوسط) إستراتيجياً، ليضم باكستان وأفغانستان وتركيا تحت مسمى «الشرق الأوسط الكبير» أو الجديد!

إن أبعاد الصراع الاقتصادية والسياسية والعسكرية على أراضي العالم الإسلامي – وخاصة في المراكز الأربعة الأهم فيه تاريخياً وجغرافياً وهي: (بلدان الخليج العربي واليمن والشام ومصر والعراق) هذه الأبعاد؛ تزداد حدتها وشدتها بدخول البُعد الديني عليها، لتظل تلك المنطقة ملتقى تصورات متباينة من الرؤى فيما يسمى بـ (الحتمية التاريخية) عند أصحاب التجارب الحضارية، حيث إن أصحاب كل مشروع من المشاريع الدولية والإقليمية والمحلية المتنافسة فوق أراضي هذه المنطقة، يرون أنها بذاتها ستشهد (نهاية التاريخ) بانتصار مشروعهم الحضاري، أو بتعبير أدق: مسلكهم الاعتقادي، حيث إن الصراع في جوهره بين كل المشاريع على أرض الحضارات والنبوات؛ هو في جوهره صراع اعتقادي، أو بالمصطلح الأمريكي: (صراع حضارات) أو (حرب أفكار). لكن تخدمه الحروب السياسية والعسكرية والاقتصادية، بهدف هزيمة المشروع المقابل، أو على الأقل تحييده وتهميشه. ولذلك فإن أصحاب كل مشروع يعدون أنفسهم بالفعل في «سباق» قد لايتدارك، إذا سبقهم مشروع آخر منافس، وهذا فيه مافيه من جريان الأحداث وفق سنة التدافع التي قررها القرآن الكريم في أكثر من موضع: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

لذلك؛ فـإن حَمَلة المنهـج الصحيح لاينبغـي – في هذا السـباق – أن يكتفوا بمسلك (الرؤية الشرعية للأحداث) حتى يضموا إلى ذلك المسـاهمة في (الريادة الشرعية للأحداث)، لأن الفـراغ الريادي هنا؛ سـوف يملؤه من ليسـوا واضحين في الرؤية، أو مؤهلين للقيادة. صحيح أن (المشـروع السُّـنِّي) لم يتبلوربعد بصورة واضحـة في الواقع على الأرض، بل حتى الاسـم لم يشتهر في التداول لسبق الوصف العام له: (المشروع الإسلامي). لكن الأيام تثبت والتطورات تؤكد؛ أن هناك بالفعل ضرورة لتمييز المشروع السُّـنِّي القائم على الإسلام الصحيح؛ عن بقية المشروعات الهجين المنتسبة زوراً للدين.

إن المراحـل المفصلية في التاريـخ تحتاج دائماً إلى تقويم صحيح، ثم مبادرات مدروسـة، ثم خطـوات جريئة. والمرحلة الراهنة من حيـاة الأمة هي مرحلة تأسـيس عملي لانطلاق مشـروع قائم على الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ لا على الأهـواء التي حذَّره الله – تعالى – منها ومن أهلها عندما قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّـهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثيـة: ١٨ – ١٩] وواجب المتقين في هذه المرحلة أن يصطفوا حول المشـروع السُّـنِّي، مشروع الشريعة، لاسـتعادة الاعتبار لها في التحاكـم أولاً، ثم لإعادة الحكم بها ثانياً.

التأسيس النظري للمشروع الإسلامي الخاص بأهل السنة، قـد بذلت فيه جهود عمومية لابأس بها، في المراحل التي حيل فيها بين الإسلاميين والمشاركة الفعلية في مجريات الأمور في بلدانهم، لكن المنحى العملي لانطلاق ذلك المشروع يحتاج أيضاً لتحسس مواقع الأقدام، قبل الإقدام أو الإحجام، ولايكون ذلك إلا باستشراف المشهد الإجمالي لخريطة سباق المشاريع المغايرة على الأرض، بامتداداتها الماضية المتصلة بالحاضر والمسـتقبل اتصالاً وثيقاً.

خريطة المشروعات المنافسة والمتنافسة:

إن المتأمل في تلك الخريطة، سيرى أنه خلال القرن الميلادي الماضي الذي شـهدت بداياته إسقاط المشـروع السُّنِّي العالمي بقيادة الخلافة التركية؛ كانت تتحرك على أراضيها المقسـمة أربعة مشـاريع، أحدها: المشـروع الصليبي التغريبي، والثاني: المشـروع اليهودي الصهيوني، والثالث: المشـروع الاشـتراكي الشيوعي، والرابع: المشروع العلماني العربي. ثم دخل على خط المنافسة مشروع خامس هو؛ المشـروع الشيعي الفارسي. هذه المشروعات المتناقضة حضارياً وعقائدياً؛ كانت – ولا تزال – لا يجمعها شـيء سوى العداء لمشروع الإسلام السُّنِّي، والاستماتة دون عودته في أية صيغة، وتحت أي قيادة؛ عربية أو أعجمية. فمن العجيب أن كل تلك المشروعات – على الرغم من أجنداتها المختلفة – كانت كلها تتنافس فيما بينها على أمرين؛ أحدهما: من يحقق المغنم الأقصى والفائدة الأعظم لحسـاب مشروعه خصما من تركة المشروع السُّنِّي الغائب أهله، والثاني: من يلحق المغرم الأكبر والضرر الأشـد بأهل ذلك المشـروع، في هويتهم وشرعتهم وأرضهم ومقدراتهم ومستقبل أجيالهم!

والملاحظ كذلك أن بداخل كل مشروع من تلك المشروعات الرئيسية، مشاريع أخرى صغيرة، يتم استعمالها أدواتٍ مساعدة في المناكفة والمناهضة، مثل مشـاريع الأقباط والموارنة والدروز والنصيرية العلوية والزيدية الحوثية والزنج الوثنيين وأصحاب الأجندات العرقية الانفصالية.

ولنلـق نظرة مختصـرة على تفاعلات تلك التنافسـات المتواصلة ضد الإسـلام الصحيح، والمتواصيـة على إقصائه وعزلـه، وهـي نظـرة؛ وإن كان بعضها من الماضـي؛ إلا أن موضوعها هوالمستقبل:

أولا: المشروع الصليبي التغريبي

ينطلق أصحاب هذا المشـروع من «حتمية تاريخية» تقول – باختصـار– بأن حركة التاريخ تتجه نحو تفرد حضارة الرجل الأبيض بالسـيادة والتفوق على بقيـة الأمم، بما لهذا الرجل مـن خصائص خَلْقية وحضارية، زادهـا تألقاً – في زعمهم – انتسابه إلى القيم الدينية التي جاء بها المسـيح – عليه السلام – وعمل لنشرها ونصـرها، وسينتهي التاريخ – كما يتوهمـون – بتفـوق أهلها، بل بتـزعم ذلـك المسـيح – شـخصياً – لأتباعه في الفصل الأخير من التاريخ؛ ليخلصهم من كل الأنداد والمنافسـين والمعادين الذين يأتي على رأسهم: المسلمون، لأنهم وضعوا أيديهم على أرض المسـيح، وجعلوا قداستها وتحررها جزءاً من اعتقادهم!

وتحت هذه النظرة – العنصرية والدينية – لسير « التاريخ المسـتقبل»؛ جرت معظم أحداث التاريخ الماضي بين النصارى والمسـلمين وسـتجري إلى يوم الدين، كما قرر القرآن العظيم: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

لكن هذا الغرب النصرانـي عَرضَت له فترة إعراض عن الديـن، فبعد صراع طويـل مع العالم الإسـلامي في حروب صليبية متواصلة على أرض الشـام وما حولها؛ أسـس الغرب

الأوروبي مشـــروعاً ذاتياً خاصاً به، ولكـــن نتائجه لم تبعد عن التأثير الكارثي على أوطان المســـلمين، وقد بدأ ذلك المشـــروع الغربي في بلاده في القرن الســـادس عشـــر باسم (النهضة) متخلصاً من الكنيســـة وخرافاتها، وفي القرن الثامن عشـــر: أخـــذ منحى (التنوير)، بتنصيب «العقـــل» في منصب الألوهية الشاغر عندهم، بعد إقصاء فكراللاهوت الكنسي، وفي القرن التاســـع عشـــر: تحـــول المشـــروع الغـــربي – باسم التفوق العقلي – إلى التوســـع على حســـاب الشعوب الأخرى، وخاصة شعوب العالم الإســـلامي، ضمن سياســـة إعمار قارة أوروبا، بإفقار غيرها وتجريف مواردها، فيما ســـمي بـ (الاستعمار). أما في القرن العشـــرين؛ وبعد أن أضاف الغـــرب الى ثرواته التي تكفيه وتغنيه، الكثير من ثرواتنا ومقدراتنا؛ قاده التوحش الرأسمالي إلى تقنين هذه الهيمنة وتثبيتها، عن طريق اصطناع نظام دولي «دائم»، يضمن قوة الســـيطرة واستقرارها، أو على الأقل تقاسمها مع بقية الأقوياء والأثرياء، ليتقرر على مشارف القرن الحادي والعشرين تطوير للحتمية التاريخية الغربية يقول بـــ (نهاية التاريخ) بانتصار الفكر الليبرالي الغربي، وإمســـاكه بمقاليـــد العالم من خلال (العولمة) الاقتصادية، أو الســـيطرة العســـكرية، فالليبرالية اعتمدت أداة فكرية لخدمة تلك النظرة الجديدة للحتمية التاريخية.

ســـقط المشـــروع الغربي على أراضي المســـلمين في شقه القيمي ووجهه الحضاري جراء التوجهات غير الإنسانية المنافية لقيم الغرب الرئيسة التي تشدق بها منذ نجاح الثورة الفرنسية، أما الشق المادي من ذلك المشـــروع، فالنجاح الظاهر فيه، إنما كان في جزء كبير منه، مبنياً على ثروات مســـروقة، ومقدرات منهوبة، وإرادات مســـلوبة. وأكثر ذلـــك كان يجري في العالم النامي، وأغلبه إسلامي! وقد تجلَّى ذلك كله من خلال سياسات فرض التغييب باســـم (التغريب) حتى تظل تلك الشعوب غريبة في بلادها ومقادة بقادة يتكلمون بألســـنتها، لكنهم يتجهون إلى غير وجهتها.

كان واضحاً منذ البداية أن أي مشـــروع إسلامي مستقل ومقاوم ومتطلع إلى الأمام، ســـيمثل خطراً على مشروع الغرب المفلس في قيمه، والجشع في تطلعاته وطموحاته، والمصرُّ على توفير الحد الأقصى من الرفاهية – بأي ســـبيل – للإنســـان الغربي «الســـوبر» الذي لم يعد يتذكر من دينه إلا .. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

إن المشـــروع المفتـــرض أن يكون مناهضـــاً ومقاوماً لهذا الإفلاس القيمي والجشـــع المادي؛ عرف الغرب مبكراً أنه ليس شيئاً آخر إلا مشروع الإسلام الصحيح (السُّنِّي)، فلن يقوى على مقاومتهم اعتقادياً وحضارياً لا مشـــروع شيعي ولا صوفي ولا قومي، ولن يقف في وجههم ما يســـمى بـ (الإسلام الليبرالي)، ولا حتى الإسلام «المعتدل» بمعايير الاعتدال المصنعة في مراكز (حرب الأفكار) التابعة للبنتاجون!

يملك المشـــروع السُّنِّي كل عوامل الانطلاق والتحدي، من باب (القـــوة) إن لم يكن من باب (الفعل) – كمـــا يقول المناطقة – فهو يملـــك إمكانات هائلة تؤهله للمنافســـة الحضارية في مضمار السباق الواجب دخوله. ولأنه يملك إمكانات المشروع الناجح، من (الرؤية) و (الرسالة) و(الغاية) و(الأنصار) و(ووسائل الانتصار)، فقد استمات أعداء الرســـل المعاصرين كي يحُولوا دون تحوله إلى واقع حي، يحيا به الحق ويزهق الباطل، فضد قيامه تُصاغ الخطط، ولصدِّ قدومه تُرسم الإستراتيجيات، وتُدبر التكتيكات، وتُقام التحالفات، وتُبث الفتن، وتُوقد الحروب. يكفينا في هذا المقام أن نراجع إستراتيجيات وأطروحات ومصطلحات المواجهة الغربية بشكل عام، والأمريكية بوجه خاص، والتي اشتهرت في العقديـــن الماضيين فقط، كي ندرك كـــمَّ وحجم الحرص على بقاء المشروع السُّنِّي غائباً، تأمل في البعد المتعلق بالإسلام في أطروحـــات مثل (نهاية التاريخ) و (صـــراع الحضارات) وراجع إســـتراتيجيات مثل (حرب الأفكار) و (بناء شـــبكات للإسلام المعتـــدل) و (الحرب العالمية على الارهاب) و (مشـــروع القرن الأمريكي) ومشروعات التقســـيم لـ (الشرق الأوسط الكبير)، وتفحص أيضاً مصطلحات مثل: (الإسلام المدني الديمقراطي) (الإســـلام الليبرالي) و (الإســـلام العلماني)!! و(الدولة المدنية «اللادينيـــة») وغير ذلك؛ تأمل في ذلـــك كله وابحث عن المراد منه، تدرك أن (الإســـلام الصحيح) الذي يمثله النهج السُّـــنِّي، حاضـــر بقوة ومقصود بإصرار وموضـــوع بتعمد في عمق تلك الأطروحات والإستراتيجيات والمصطلحات.

الكلام يطول عند الوقوف مع كل مفردة من تلك المفردات في المشـــروع الصليبي التغريبي على أرضنا في الوقت الراهن، لكن الحقيقة الحاضرة فيها كلها، أن المشروع الصليبي التغريبي هو أقدم وأشرس وأطول المشاريع المصارعة للوجود السُّنِّي منذ بدء التاريخ الإسلامي وحتى نهاية التاريخ الإنساني، مع حقيقة أخرى ماثلة؛ وهي أن كافة المشروعات المعادية الأخرى للمشروع الإســـلامي السُّنِّي، هي إحدى ســـيئات ذلك المشروع الصليبي التغريبي المخضرم في الفساد والإفساد.

ثانياً: المشروع اليهودي الصهيوني:

يستمد ذلك المشروع خطورته من كونه يستهدف أهم مناطق العالم الإسلامي حساسية وأهمية، فمنطلقه: الأرض المقدسة في الشام، بما لها من دلالات دينية وتاريخية. ومداه الجغرافي أو السيادي المستقبلي: في الأرض الممتدة من النيل غرباً إلى الفرات شرقاً، ومن جنوب تركيا شمالاً إلى شمال المدينة المنورة جنوباً، وتدل على ذلك – بإسهاب – أدبيات وإستراتيجيات ذلك المشروع منذ بدأ، ومعلوم أن تلك المناطق تمثل قلب وعقل الوجود السُّنِّي في القديم والحديث.

لذلك فإن «الحتمية التاريخية» عند أصحاب ذلك المشروع تقول: إن التاريخ يتجه في مسار انتصار «الشعب المختار» بعد تمكنه من العودة إلى الأرض المقدسة، معيداً فيها بناء قوته، ومستعيداً فيها مقدساته، ومنتصراً فيها على أعدائه، حتى تتأهل هذه الأرض وماحولها لزمن تمكُّن اليهود، وسيطرتهم على كل العالم من (أورشليم القدس) تحت قيادة المسيح اليهودي المنتظر!

مرة أخرى؛ نرى تلك المنطقة من العالم، منطقة الوجود السُّنِّي العربي أو (الشرق الأوسط)، محط أنظار مشروع منحط آخر، هو مشروع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، المشروع الذي قام أساساً على أنقاض مشروع الخلافة، وكان لليهود اليد الطولى في إسقاطها، وهو مشروع في حقيقته صناعة غربية نصرانية بروتستانتية وكاثوليكية، أراد نصارى الغرب منه تأسيس قاعدة متقدمة لمواجهة أي مشروع إسلامي وليد، ولذلك ثبَّتوا في المنطقة على مدى عقود طويلة أنظمة موالية لهم من المنافقين الذين وافقوا اليهود على دعوى مشروعية مشروعهم، ووقفوا معهم أو بالنيابة عنهم ضد أي محاولة لإقامة مشروع إسلامي ناشئ.

حقق مشروع اليهود منذ بدأ العديد من القفزات والنجاحات، وعلى رأسها بناء كيان حديث، يملك خامس أكبر قوة عسكرية في العالم، وقف العالم الغربي بأسره وراءها، ولا يزال، لكنه – مع ذلك – وقع في كثير من الإخفاقات والانتكاسات، التي سببتها صلابة الموقف الاعتقادي الإسلامي الشعبي من مهادنة ذلك الكيان أوالصلح معه أوقبول تطبيع العلاقات مع مشروعه المعادي المرتبط وجوده وصعوده بغياب المشروع الإسلامي أوضعفه.

لقد صاغ المشروع اليهودي لنفسه نظرية للأمن القومي بدأت في الظهور والعمل منذ الأربعينيات في عهد «بن جوريون» أول رئيس وزراء في الكيان الصهيوني، وتعتمد هذه النظرية على تقسيم العالم الإسلامي والعربي المحيط إلى دوائر خطر، ينبغي العمل على مواجهتها كلها بحسب درجة ذلك الخطر، فالدائرة الأولى؛ هي دائرة (وادي النيل) وتقودها مصر، والدائرة الثانية هي دائرة (الشام) التي كانت تتناوب سورية والعراق على زعامتها، والدائرة الثالثة دائرة (الخليج العربي) ومركزها السعودية، والدائرة الرابعة: هي (الدائرة الإسلامية) التي تبرز فيها قوى كبيرة مثل باكستان وتركيا وإيران، والدائرة الخامسة هي: (الدائرة الإفريقية) وتمثلها دول منابع النيل، إضافة إلى الدول ذات التأثير على البحر الأحمر.

ووفق هذا التقسيم؛ تقيم النظرية أمن الكيان اليهودي على الأسس التالية:

– منع التقارب أو التنسيق بين الدول الرئيسة في تلك الدوائر، وخاصة دائرتي وادي النيل والشام.

– تشجيع عمليات الانشقاق والتقسيم داخل كل دائرة وخاصة دائرة الشام.

– عرقلة أي تنسيق بين الدائرة الخليجية والدائرة الإسلامية.

– إقامة علاقات وثيقة مع دول منابع النيل غير الإسلامية، لضمان الضغط على كل من مصر والسودان في مسألة حصص المياه، مع تهيئة أوضاع تسمح بحرية الملاحة الإسرائيلية في البحر الأحمر.

وفي ظل تملك أشد الناس عداوة للذين آمنوا، لأحدث أنواع الأسلحة ردعاً وفتكاً؛ يريد هؤلاء اليهود تحقيق هدفين إستراتيجيين بالنسبة إلى أمنهم القومي؛ أحدهما: توفير الحماية للدولة اليهودية وضمان قدرتها على التوسع، والثاني: تضييق الخناق على العرب حتى يرضوا بالاعتراف بتلك الدولة، وتطبيع العلاقات معها.

ثالثاً: المشروع الشيعي الفارسي:

وأصحابه يضعون أعينهم أيضاً على قلب العالم السُّنِّي، متربصين بأي مشروع ناجح لمن يوصفون عند شيعة اليوم والأمس بـ (النواصب) الذين ناصبوا آل البيت العداء! والعجيب أن المشروع الشيعي الفارسي يستهدف أيضاً الأقاليم السُّنِّية العربية الأهم التي يستهدفها اليهود، لا بغرض حمايتها منهم، بل بغرض تقاسمها معهم، والشيعة الفرس يجمعون – مثل اليهود – بين العداوة الدينية والعنصرية، فهم يحتقرون العربي ولوكان شيعياً مثلهم، لكنهم لفرط حقدهم المزدوج على العرب السنة، يعدون الشيعة العرب أدوات لضربهم وإذلالهم، كما دلت على ذلك الوقائع التي تلت غزو الأمريكيين للعراق، ثم ماتلاها من أحداث في اليمن والبحرين وغيرها.

خطورة المشروع الشيعي بقسميه: الفارسي والعربي؛ أنه موجه ضد السُّنة ومنهجهم على وجه الخصوص، ودون تقية أو مواربة، ويستهدف في النهاية الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. ومشروعهم يسير بانتظام في مخطط خطير لتطويق جزيرة العرب كلها لأجل الزحف إليهما، في مقابل استهداف اليهود للأماكن المقدسة في الشام وسيناء، ولذلك يبني الشيعة خططهم الإستراتيجية المستقبلية، وفق «حتمية تاريخية» مبنية على أساس أن أحداث التاريخ تجري باتجاه خروج من شايعوا أهل البيت من «المظلمة» التاريخية، تحت شعار (يالثارات الحسين)!.. تنتهي – كما يعتقدون – بانتصارهم على «أعداء» أهل البيت، وتحرير «مراقد الأئمة» والأماكن المقدسة منهم، بعد الانتقام من هؤلاء (الأعداء) أحياءً وأمواتاً!!

رابعاً: المشروع الاشتراكي الشيوعي:

وهو مشروع سقط في بلاده بسقوط الشيوعية السوفيتية واتحادها الإلحادي، غير أن هذا المشروع له أنصار لا يزالون يكافحون بجنون لاستئناف مسيرته في بلاد المسلمين، متعللين بأن ما سقط هو النموذج التطبيقي السوفييتي، أما النظرية فإنها لا تزال بانتظار من يقوم بها. وما انبعاث الأحزاب اليسارية وتجديد نشاطها في بلاد الثورات العربية، ودخولها حرباً ضروساً معلنة ضد قوى ورموز المشروع الإسلامي، ووصول بعضها إلى سدة الحكم، إلا دليلاً على أن المشروع الاشتراكي اليساري الذي كاد يغزو أكثر البلدان السُّنِّية في الخمسينيات والستينيات الميلادية، لا يزال يكافح للبقاء نداً للمشروع الإسلامي السُّنِّي في ساحاته ومخصصاته.

هل ستحاول بقايا المنظومة الاشتراكية – خاصة بعد إخفاق الرأسمالية – بعث الروح في الحركات اليسارية الميتة في البلاد العربية؟ هذا احتمال لا ينبغي استبعاده، في سياق السباق المحموم من حولنا، وفي عقر دارنا.

خامساً: المشروع العلماني العربي:

هذا المشروع مشروع مسخ هجين، لأنه – باختصار– هو مشروع المنافقين. وهل للمنافقين مشروع ؟! نعم بل مشاريع، لكن يجمعها جميعاً أنها مشروعات ضرار، تنطلق من كلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، مرة باسم القومية العربية، ومرة باسم التعصب للجذور الوثنية الوطنية، فرعونية كانت أو فينيقية أو آشورية، ومرة باسم الخصوصيات العرقية والعنصرية، وأكثر هذه المشاريع جاءت استلهاماً لـ «مبادئ» العلمانية الغربية، سواء أكان في صورتها الغربية (الليبرالية) أم في صورها الشرقية التي تجمعها الاتجاهات اليسارية: الشيوعية والاشتراكية. ونتج عن ذلك الاضطراب ازدواجية في المعايير، أثمرت ازدواجية في الانتماء والولاء، فهم لهذا ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

ليس لمشاريع النفاق العلمانية «حتمية تاريخية» لأنها ليس لها منهج أو مذهب تسعى لنشره في العالم، وحتى المشروع العربي في صورته القومية، لم يحلم بأكثر من وحدة العرب تحت أي راية علمانية، فليس له بعد عالمي كما هو الشأن في المشروع الغربي الرامي إلى تسييد (شعب الله المختار الأنجلوساكسوني)، و ليس لديه كذلك دين يرى عصمة أهله، كماهو حال المشروع اليهودي الهادف إلى إخضاع الناس لـ (الشعب المختار الصهيوني). لكن مع ذلك، فمشروع المنافقين الأعداء هو الأخطر بين كل هؤلاء، لأنه يقوم على الهدم من الداخل القريب، لا من الخارج البعيد، ولهذا قال الله تعالى عنهم وعمَّن يحملون مشروعهم: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

المشروع السُّنِّي: أين..؟ وإلى أين..؟

هذا سؤال المرحلة، وعنوان الظروف الراهنة، ولكن الحديث فيه يطول، ولذلك فإنه سيكون عنوان المقال القادم بإذن الله.

الشريعة في دستور تونس شعار المرحلة

فتحي السعيدي(*)

"الشريعة الآن بالنسبة إلينا هي برنامجنا الانتخابي" – راشد الغنوشي – جريدة الشروق الأحد ١ إبريل ٢٠١٢م الموافق ٩/جمادى الأولى/١٤٣٣هـ.

" البرنامج الانتخابي لحركة النهضة لا يتضمن تطبيق الشريعة... فالأولية تبقى لإقامة نظام ديمقراطي حقيقي يضمن الحريات لجميع المواطنين من دون تمييز على أيّ أساس". من ندوة صحفية عقدها راشد الغنوشي رئيس حركة النهضة، وفتحي العيادي رئيس الهيئة التأسيسية للحركة والصحبي عتيق رئيس الكتلة النيابية للحركة، بالمجلس التأسيسي.

بالمقابل، وفي نداء لتظاهرة لجعل الشريعة المصدر الأساسي والوحيد للتشريع، أطلقه عدد من الجمعيات الإسلامية الغالب عليها الوجه السلفي؛ بالإضافة لبعض جمعيات النهضة، وقد كان الشيخ الحبيب اللوز عضو المجلس التأسيسي عن النهضة من المنظمين والداعمين والمحرضين لهذا النداء، نجد:

"بسم الله الرحمن الرحيم – جُمعة نصرة الشريعة – نصرة لديننا الحنيف ومطالبة بجعل الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي والوحيد للتشريع في تونس، تدعو الجبهة التونسية للجمعيات الإسلامية إلى مظاهرة حاشدة أمام مقر المجلس التأسيسي يوم الجمعة في ٢٣ ربيع الآخر ١٤٣٣هـ، إن شاء الله، إثر صلاة الجمعة. هبّوا عباد الله صفاً واحداً لنصرة دين الله".

إذاً! كيف يُفهم هذا التباين في إزدواجية الخطاب لدى النهضة، والواضح بجلاء بين موقفي راشد الغنوشي ومجموعته، وموقف الحبيب اللوز والذين معه من الشريعة؟

هل هو صراع أطياف داخل النهضة؟

القول بوجود صراع أطياف مردود بما صرّح به راشد الغنوشي من أن عملية الرجوع عن طلب إدراج الشريعة في الدستور تمت عبر تصويت من ٧٤ قيادياً في النهضة. عبّر ٥٣ منهم عن رغبتهم في رفض إدراج الشريعة وامتنع ٨ عن التصويت.

يعني من كان مع إدراج الشريعة في الدستور ١٣ قيادياً من مجموع ٧٤. هل يمثل هؤلاء، الثلاثة عشر طيفاً داخل النهضة؟

ربما! ولكن مسألة مثل الشريعة داخل تنظيم مسمى على الإسلام، مثل النهضة، من المفروض أن تُعدَّ مبدئية، حياتية ولا يمكن أن تكون بحال من الأحوال، وتحت أي ظرف، ورقة للعبة تكتيكية، سياسياً.

لو كان هؤلاء الثلاثة عشر طيفاً يمثل هذه المبدئية في النهضة لاستقالوا أو لانشقوا. فالأمر إمّا أن هذه القيادة ليست لها الشخصية القوية لأخذ قرار الحسم في موضوع مفصلي مثل الشريعة، وإما أنّ مسألة الشريعة عندهم ليست بالمبدئية التي نعتقد، وإنما هي قراءة من ضمن قراءاتهم.

(*) رئيس جمعية الخير الإسلامية.

الشريعة بين النهضة والسلفيين:

الـــذي وقع، أن خـــذلان النهضة لجانب كبير من الشـــعب التونســـي يحلم بمصدرية الشـــريعة لقوانينه، آلمَ قسمين من الإسلاميين:

١ – قســـم كبير مـــن الســـلفيين الميالين للمشـــاركة في الانتخابات، ومساندة النهضة على أساس أنها الوجه الإسلامي في هذه الانتخابات، كان هذا القسم يخالف، في الرأي، جانباً آخر فاعلاً من السلفيين يرى بعدم شرعية الانتخابات والآليات الديمقراطية.

الســـلفيون الذين ســـاندوا النهضة في الانتخابات وجدوا أنفســـهم محبطين من النهضة. وكانت النتيجة أن انقسموا إلى ثلاثة أجنحة:

أ – جناح سئم اللعبة السياسية وانسحب إلى العمل الدعوي والمدني.

ب – جناح اقتنع برؤى المناهضين للانتخابات وهم أقلية

ج – جناح قرر إنشـــاء أحزاب، والعملَ من ناحية البرامج، بمعزل عن النهضة. وهذا ما ســـنراه عملياً قريباً إن شاء الله. حيث تعدّ مجموعتان من الســـلفيين، على الأقل، العدّة لإنشاء حزبين. أمر، إن تم، ســـيفرض على النهضة رفع سقف طرحها الديني كيلا تُســـحب من تحتها صورة التنظيم الإسلامي البارز في البلد.

٢ – القسم الثاني، من المصدومين من قرار النهضة التخلي عن مطلب الشـــريعة، هم جانب كبير من قواعد حركة النهضة نفســـها، وبعض قياداتها الميدانية الذين اهتزوا لعدول النهضة عن مطلب الشـــريعة، ولم يعودوا يفهمـــون حركتهم كما لم يعد بمقدورهم تسويغ سياساتها. هذه القاعدة تنتظر مؤتمر الحركة كي تقول كلمتها.

قامت النهضة بالتحريض لتحركات تنادي بتطبيق الشريعة عبر بعض رموزها. مســـألة لم تكن للحركة الســـلفية المبادرة السياســـية فيهـــا. وقد نأى الســـلفيون بأنفســـهم عن العمل السياسي بشكله الحزبي و"الديمقراطي" لكنهم رموا كل ثقلهم في مسبح السياســـة لما جاءت الإشارة من النهضة للعمل على إدراج الشريعة في الدستور.

لماذا انســـحبت النهضة من هذا الطرح بشكل فجائي وفظ جداً، جعل حتى قيادات الصف الثاني فيها يهتزون؟

ليس السلفيون هم من بادروا بالمطالبة بإدراج الشريعة في الدستور ولكن جمعيات وقيادات من النهضة، وساند السلفيون هذا المطلب. لماذا تراجعت النهضة؟

في بداية الثورة وقعـــت هجمة من بقايا الإلحاد والانبتات في تونس على المادة الأولى في الدستور التونسي: "تونس دولة حرة مستقلة، ذات سيادة. الاسلام هو دينها، العربية هي لغتها والجمهوريـــة نظامها" حيث أرادوا حذف "الإســـلام هو دينها، العربيـــة هي لغتها". بعدها بقليـــل أخبرنا بعض رموز النهضة بســـعيهم لإدراج الشـــريعة في الدســـتور وأنهم يمررون الأمر بصمت ويُعدون له الأرضية داخل المجلس التأسيسي.

وفعلاً أعدت هذه القيادات الخطة وشاركت في التظاهرات والمســـيرات والأنشطة الشـــعبية لحث المجلس التأسيسي على إدراج الشريعة في الدستور التونسي.

الآن وبعد التحلل الفجائي مـــن هذا المطلب، يرى بعضهم أن النهضة لم تفعل إلا تهييج عواطف الشـــعب تجاه شرع الله والإســـلام كي ترفع سقف المطالب أعلى من المادة الأولى، حتى يتمسك العلمانيون بهذه المادة كسقف لهم.

٣ – وهـــذا ما تمّ. من كان يصـــرخ، من العلمانيين، بتغيير المادة الأولى أصبح ينادي عالياً بقدسية هذه المادة.

أي، اســـتعملت النهضة شرع الله كتكتيك في لعبة سياسية رخيصة.

٤ – بالطبـــع لا يمكـــن تجاهل الضغـــط الخارجي وعمل السفارات الأجنبية في تونس خاصة الفرنسية والأمريكية التي أقامت مؤخراً دورة مدفوعة الأجر للصحافيين التونسيين.

والاعتمـــاد على تبرير ضغط القـــوى الخارجية غير كاف؛ لأنه متى كانت هذه القوى ترضى بالشريعة، ألمّ تع النهضة قول الله، – عزّ وجلّ –: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

٥ – فهـــل يعقل أن تنـــادي النهضة بإدراج الشـــريعة في الدســـتور دون أن تكون واعية بردّ فعـــل اليهود والنصارى ومَنْ والاهم؟

النهضة بين السلفيين وأعداء الدين.

"لم أكن أتوقع أن السلفيين بهذا العدد وهذا الحجم في تونس" قالها الشيخ سعد الحميد في أثناء زيارته إلى تونس لإقامة دورة علمية، ثمّ أضاف مازحاً "أمر يجعلك تطمئن على باقي الدول".

نعم. يقبل الشباب أفراداً وجماعات على المنهج السلفي وأصبحوا يمثلون رقماً مهماً في البلاد، في حين أن مَن يسمون بالعلمانيين والحداثيين يندثرون شعبياً ويتقلص حجمهم يوماً بعد يوم. ويبقى الإعلام آخر أسلحتهم.

ما الذي يجعل النهضة تراهن على أعداء الدين وتعطيهم حجماً أكبر منهم ينفخ فيهم روحاً؟

قد تكون ذاتية بعض العناصر القيادية في النهضة فرَّت لسنوات خارج تونس إلى بريطانيا وفرنسا وغيرها، حاملة معها صورة عن الواقع التونسي تنتمي إلى عقود الثمانيات والتسعينات من القرن الماضي. واقع كان فيه لأعداء الإسلام وللشذوذ الفكري الماركسي، وغيره من أطروحات التغريب، بعض وزن. واقع كان فيه لفرنسا قدرة على الفعل في تونس أكبر مما هو عليه الحال الآن.

عادوا إلى تونس بعد الثورة، وهم يعتقدون أن الأمر على حاله. عادوا وفي كوابيسهم نفس الوحوش الكاسرة. ليس في وسعهم إدراك أن تلك الوحوش الكاسرة انكسرت، بعون الله وفضله، ثمّ بإرادة وأصالة هذا الشعب التونسي المسلم.

لم تعِ كثير من قيادات النهضة التي خرجت من تونس، إلا مؤخراً، حجم التيار السلفي المترامي على كامل تراب البلاد. تيار ولد وترعرع ونما في زمن غيابهم عن تونس. تيار واجه أجهزة قمع النظام التونسي بثبات مبهر في حين أن جانباً من قيادات النهضة تراقب، ما يجري في البلد، من بعيد، من أوروبا. بينما الجانب الآخر الذي اختلط بالسلفيين في السجون مثل الشيخ صادق شورو والحبيب اللوز يقيمون علاقات دعوية وسياسية جيدة ومثمرة وذكية مع السلفيين.

٦ – ستُولد خيبة الأمل – المُرّة – التي زرعتها النهضة في أنفس الشعب التونسي بتخليها عن الشريعة، رغبة قوية لدى النخب الإسلامية في البحث، عن بديل سياسي إسلامي آخر، يُعوِّض حركة النهضة. بديلاً، يكون على قدر كافٍ من النقاء العقدي وله "مهنية مبدئية" سياسياً. وهذا ما يجب أن نراه، قريباً، بإذن الله.

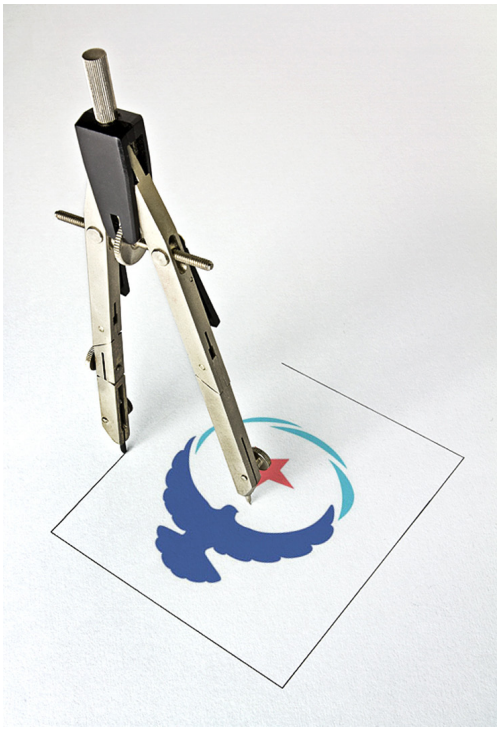

وفي المدى المتوسط، لا يمكن أن نختم هذه الكتابة دون الإشارة إلى خبر مرَّ مرور الكرام في الإعلام، على الرغم من أهميته ورمزيته التاريخية، ألا وهو حكم المحكمة الابتدائية في تونس بإعادة فتح جامع الزيتونة ونزع الأقفال عن باب إدارته، وبالتالي سيعود التعليم الأكاديمي الأصلي الزيتوني كما كان.

تكمن الرمزية القوية لهذا الحدث في هزيمة الماسوني "بورقيبة" الذي أقفل جامع الزيتونة كصرح للإسلام. هزيمة أمام الحتمية التاريخية التي تقول: إن تونس ستبقى إلى قيام الساعة، بإذن الله، منارة لدين الله. هزيمة أمام إرادة وأصالة الشعب التونسي المسلم.

وتكمن أهمية هذا الحدث في أن هذا الصرح سيعود – إن شاء الله – المرجعية الشرعية للشعب التونسي حيث سيمتص الصراعات العقدية والاختلافات العلمية داخل جدرانه وبين علمائه. وهذا هوّ الحلّ لحالة الفوضى داخل الجسد الإسلامي.

فوضى مرتبطة بغياب المرجعية العلمية الموحدة. سيعود عامة الناس والمؤسسات إلى الزيتونة في خلافاتهم ومطالبهم الشرعية.

في هذا المدى المتوسط نرجو من الله أن يعيد الزيتونة درعاً لعقيدة أهل السنة والجماعة على نهج السلف الصالح. سيكون للزيتونة – إن شاء الله – وزن ديني وسياسي قوي، كما هو وزن الأزهر في مصر. نسأل الله لتونس ولأمة الإسلام العزّة والأمن والأمان.

تعقيدات الأزمة السورية وآفاق الحل

محمد سليمان الزواوي(*)

تمثل الأزمة السورية واحدة من أكبر الأزمات التي مرَّت بها الأمة العربية في تاريخها الحديث بسبب تشعباتها الإقليمية والدولية والمذهبية والعرقية؛ فالشعب السوري الأعزل يذبح بالآلاف على يد الطائفة العلوية التي كرَّس نظام الأسد الأب سيطرتها على مفاصل الدولة السورية بأذرعها الأمنية والاستخباراتية والعسكرية، وأصبحت تلك الأزمة تهدد بابتلاع المنطقة بأسرها بسبب تشعباتها غير المحدودة بنطاق القطر السوري، فقد اجتذبت تلك الأزمة العديد من الأطراف الدولية من روسيا إلى تركيا إلى إيران إلى الغرب وإسرائيل. كما أنه من غير المتوقع على الأمد المنظور أن يرخي نظام الأسد قبضته عن الحكم؛ لأن تشبثه بالسلطة يعني له الحياة، وما دون ذلك يعني له الموت، فلا مخرج أمام نظام الأسد سوى التشبث بالسلطة والرهان على داعميه الدوليين ـ روسيا والصين وإيران ـ لتأمين بقائه في لعبة الدماء تلك.

فرهان الأسد هو كسب الوقت لكسر شوكة الجيش الوطني الحر، وأن تؤديَ المذابح البشعة إلى استسلام المعارضة في النهاية كما استسلمت لأبيه من قبل في مجزرة حماة؛ لذلك فإنه يظل يتلاعب بالأطراف الإقليمية والدولية معتمداً على كل من روسيا وإيران والصين، ومستفيداً من تشابك العلاقات بين تلك الدول والغرب وتركيا ودول مجلس التعاون الخليجي، من أجل كسب الوقت لإنهاء مهمته بتركيع الشعب السوري، كما يعتمد كذلك على انقسام المعارضة ما بين الداخل والخارج، وما بين الذراعين السياسي والعسكري، ويحاول في الوقت ذاته أن يُسخِّر آلته الإعلامية داخلياً من أجل توصيف ما يحدث بأنه مؤامرة خارجية؛ ليكسب مزيداً من التعاطف الداخلي لتقوية موقفه في حال اضطراره إلى وقف القتال واللجوء إلى الحلول السلمية في النهاية.

(*) باحث في العلاقات الدولية.

وعلى الجانب الآخر نجد أن "أصدقاء الشعب السوري" يحاولون هم أيضاً بالاتجاه المعاكس: بذل مزيد من الضغط على نظام الأسد من أجل تحييد سلاحه الرئيس - المذابح بحقِّ المدنيين - وكسر شوكته ووقف تلاعبه بالوقت، فهناك أطراف ثلاثة لها مصلحة في الإطاحة بنظام الأسد، أولها هو الولايات المتحدة والغرب لتضييق الخناق على إيران وبرنامجها النووي، ثم تركيا التي استثمرت بقوة في توسيع عمقها الإستراتيجي في المنطقة العربية انطلاقاً من سورية، ثم دول مجلس التعاون الخليجي، التي ترى أن كسر شوكة الأسد هو مقدمة لكسر النفوذ الإيراني في المنطقة، ومن ثم نزع فتيل الأزمة التي تلوح في الأفق سحبها المتراكمة مع العدِّ التنازلي لامتلاك إيران للسلاح النووي.

> **"من أهم أسباب تلكؤ تركيا هو أن الداعمين الثلاثة الأساسيين للنظام السوري - الصين وإيران وروسيا - هم من بين أكبر الشركاء التجاريين لتركيا"**

ورأس الحربة في جهود الإطاحة بالأسد هي تركيا، وذلك لمصالح نفوذها السياسي والاقتصادي في المنطقة، وكذلك لأنها الدولة الوحيدة التي استقبلت المعارضة السورية وفتحت أراضيها للاجئين الذين وصل عددهم إلى ٢٥ ألف لاجئ، فالخيار الآخر في حال فشل الوسائل السلمية هو التحرك العسكري، الذي من المتوقع أن يكون له تداعيات كبرى على المنطقة وعلى تركيا بالأخص، لذلك تحاول تركيا أن تضغط بوسائلها الناعمة والصلبة من أجل إجبار الأسد على وقف المذابح بحقِّ الشعب السوري الأعزل، لكي تتجنب الخيارات الأسوأ، والتي من المتوقع أن يكون لها تداعيات كبرى على الدولة التركية، فلكي نفهم تعقيدات الموقف التركي يجب أن نفهم روابطه الاقتصادية مع الدول المعارضة لاستخدام القوة في مواجهة نظام الأسد،

فمن أهم مقومات تفوق الدولة التركية في العقد الأخير كان صعود اقتصادها المنفتح والحر، والذي أصبح فيه الاستثمار الأجنبي عاملاً مهماً في ذلك التفوق الاقتصادي، فحزب العدالة والتنمية قد أعطى أولوية كبرى للمصالح الاقتصادية والتجارية حيث يراها القوة الدافعة لنفوذه الإقليمي؛ لذا من أهم أسباب تلكؤ تركيا هو أن الداعمين الثلاثة الأساسيين للنظام السوري - الصين وإيران وروسيا - هم من بين أكبر الشركاء التجاريين لتركيا، فأي تورط تركي واضح بتدخل عسكري يستهدف الأسد يمكن أن يمثل مخاطر جسيمة لعلاقات تركيا مع تلك الدول الثلاثة بتكلفة كبيرة على الاقتصاد التركي. فروسيا وإيران من أكبر مصدري الغاز الطبيعي لتركيا، ففي ٢٠٠٩م كان الغاز الروسي يمثل ٥٤٪ من إجمالي واردات تركيا من الغاز، بينما جاءت إيران في المرتبة الثانية بنسبة ١٤٪، كما أن صادرات الغاز الإيراني لتركيا قد زادت بنسبة ٥٠٪ في ٢٠١٠م، مما جعل تركيا أكثر اعتماداً على الغاز الإيراني.

كما أن تركيا تعتمد على روسيا وإيران بالتساوي فيما يتعلق بواردات النفط الخام، ففي الربع الأول من عام ٢٠١١م كانت إيران أكبر مصدر للنفط الخام لتركيا بحصة وصلت إلى ٣٠٪ من إجمالي واردات تركيا، ويأتي بعدها العراق بنسبة ١٢٪، وروسيا بنسبة ١١٪. فمعدل التجارة البينية بين تركيا وكل من روسيا وإيران قد ارتفع بصورة كبيرة في السنوات الماضية، ووصلت إلى ٢٦,٢ مليار دولار مع روسيا و١٠ مليارات دولار مع إيران في ٢٠١٠م. كما ارتفعت أيضاً تجارة تركيا مع الصين لتتضاعف ١٢ ضعفاً في ٢٠١٠م لتصل إلى ١٩,٥ مليار دولار. كما أن تركيا تستفيد من التدفق الكبير للسياح الروس والإيرانيين، بما يقرب من ٢ مليون روسي ومثلهم من الإيرانيين الذين زاروا تركيا في ٢٠١٠م، مقارنة بأقل من ٢ مليون سائح من كل الدول العربية مجتمعة.

ولا شك أن كلَّ تلك الأرقام ستؤثر بصورة كبيرة على حسابات تركيا في الأيام القادمة، فإيران التي تتعرض إلى تهديد الحرب من الغرب، في بقاء نظامها الثوري قضية وجود بالنسبة إلى طهران، وسقوط الأسد لن يعني فقط خسارة سورية وحزب الله كحلفاء كبار لإيران، ولكنه أيضاً سيشجع الغرب على مزيد من الضغوط على الدولة الإيرانية من أجل إسقاط نظامها الحالي، وكل ذلك يجعل الردَّ حاسماً من حلفاء إيران إذا ما اختارت تركيا أن تشارك في تحالف عسكري ضد سورية، فروسيا والصين تعلمان النيات الأمريكية لقلب النظام الإيراني؛ ليكون لها الهيمنة في المنطقة وتقليص سوق السلاح الروسي بعد القضاء على

ليبيا وتحويلها إلى حليف غربي، كما أن سقوط النظام السوري سيعني عدم قدرة روسيا على استغلال قاعدة طرطوس البحرية التي تُعدُّ المعقل الأخير لروسيا على البحر المتوسط، كما أن للصين مصالح متشابكة مع إيران وسورية، حيث إن إيران من أهم موفري النفط الخام للصين، وهو عماد التفوق الاقتصادي الصيني في الفترة القادمة، والصين تعلم تمام العلم نية الولايات المتحدة لتقليص الصعود الاقتصادي الصيني الذي ينذر بتحول التنين الأصفر إلى قوة عالمية في العقدين القادمين؛ لذا من المتوقع أنه إذا أرادت تركيا أن تتحرك عسكرياً ضد نظام الأسد فستضع في حسبانها كل تلك التشابكات الاقتصادية والعسكرية والسياسية المعقدة.

لذلك فإن تركيا تحاول أن تلعب بالأوراق التي في حوزتها من أجل الضغط على النظام السوري بدون التورط في عمل عسكري ضده، ليصبح الملاذ الأخير، والذي لا تريد تركيا اللجوء إليه إلا في ظل منظومة متكاملة من العمل الدولي تكون تركيا جزءاً منه وليست القائدة فيه، فلدى تركيا خيار أخير يمكن استغلاله وهو اتفاق أضنة الموقع مع سورية عام ١٩٩٨م، فالهجمات على الأراضي التركية التي تأتي انطلاقاً من سورية، ومنها عمليات إطلاق نار على لاجئين سوريين هربوا باتجاه الحدود التركية أدت إلى إصابة مواطنين أتراك، يمكن أن تكون الورقة القانونية التي يمكن لتركيا أن تلعب بها في مواجهة نظام الأسد وحلفائه، فتركيا كعضو بحلف الأطلسي يمكن أن تطلب مساعدة الحلف بسبب ذلك الاعتداء عليها من قوى خارجية، فميثاق الحلف يعدُّ الاعتداء على إحدى دوله بمنزلة الاعتداء على جميع الأعضاء، ويمكن أن تظل تلك هي الورقة التي يمكن للغرب بقيادة تركيا أن يحشدوا الضغوط على النظام السوري من أجل القبول بوقف إطلاق النار في النهاية، والبدء في تنفيذ خطة السلام المقدمة من كوفي عنان بدعم من الجامعة العربية.

فالجانب العربي وخاصة دول مجلس التعاون الخليجي يرى مصلحة كبرى في انهيار نظام الأسد واستبداله بنظام تهيمن عليه السُّنة في البلاد، وبذلك يتم كسر الحلقة الشيعية في المنطقة وتقليم أظافر النفوذ الإيراني المتنامي الذي يطمح في غطاء نووي له، لذلك فإن جولة أردوغان الآسيوية التي اشتملت على زيارة الصين والسعودية قد ركزت على تسريع الضغط الدبلوماسي على نظام الأسد من أجل وقف مذابحه، وبناء جبهة قوية أمام حلفاء سورية شرقاً وغرباً، كما أن تلويح كلاً من السعودية وقطر بدعم الجيش السوري الحر بالسلاح يُعدُّ عاملاً أساسياً في عكس سير المعارك في سورية، ويمكن أن يجبر الأسد في النهاية على وقف مجازره بحقِّ العُزل من المدنيين، على الرغم مما يحمله ذلك من مخاطر مثل شرعنة اتخاذ الأسد لوسائل عسكرية، ووصف ما يحدث بأنه مؤامرة خارجية على بلاده، ومن ثم استعمال القوة المفرطة ضد المدنيين، إلا أن تلك الخطوة من نظام الأسد ستعطي شرعية أيضاً للتدخل العسكري الشامل وفرض مناطق حظر طيران وإنشاء ممرات آمنة للمدنيين بالداخل، ويمكن أن يدخل الصراع إلى المرحلة الثانية من اللعبة.

لذلك فإن الوضع في سورية، الآن دخل المرحلة الأخيرة من لعبة عضِّ الأصابع، فنظام الأسد لن يكفَّ يده عن المدنيين إلا في حال رؤيته لخطوات ملموسة لإنهاء سيطرته على البلاد، والتي سيترتب عليها إنهاء حكمه وتدمير جيشه وتقديم الأسد وأقطاب حكمه إلى المحكمة الجنائية الدولية بتهمة ارتكاب جرائم حرب، أو تصفيته جسدياً واستهداف مقراته بضربات جوية، مع فتح الممرات الآمنة لخروج المدنيين من كافة أنحاء الدولة السورية؛ للنجاة بأنفسهم من آلة القمع الجهنمية لنظام بشار، أو الخيار الآخر، وهو الوسائل السلمية ووقف مذابحه والبدء في تنفيذ خطة كوفي عنان مرغماً في النهاية، فقد بدأت تظهر مؤشرات تصدع كتائب بشار الأسد مع زيادة أثر الضغط الاقتصادي عليه وعلى نظامه، وأشارت تقارير إلى أن قواته لم تعدْ فاعلة في الكثير من المناطق، وأن استغلال تركيا لنقض سورية لاتفاق أضنة ومن ثم البدء في توجيه ضربات انتقائية لمعاقل النظام السوري يمكن أن تمثل بداية النهاية لحكم عائلة الأسد.

» سقوط النظام السوري سيعني عدم قدرة روسيا على استغلال قاعدة طرطوس البحرية التي تُعدُّ المعقل الأخير لروسيا على البحر المتوسط «

مرصد الأخبار

مهدي عاكف: لا أخشى الفلول ولا أتمنى فوز الإسلاميين..

أكد المرشد السابق لجماعة الإخوان المسلمين محمد مهدي عاكف أنه على ثقة بأن الانتخابات سوف تجري في موعدها ولكن المجلس العسكري من البداية لا يرغب في تسليم السلطة للإسلاميين، ولكن الشعب هو صاحب القرار مثلما فعل في انتخابات مجلسي الشعب والشورى، والشعب هو صاحب تقرير المصير وليس المجلس العسكري.

وقال عاكف خلال حديثه مع مراسل فارس بالقاهرة: إنه مستاء من تصرفات أنصار حازم صلاح أبو إسماعيل مؤكداً أنه كان يجب عليهم الالتزام بقرار اللجنة العليا للانتخابات احتراماً للقانون، مثلما فعل خيرت الشاطر الذي تم استبعاده واحترم القانون ولم يفعل شيء مثلما فعل أبناء أبو إسماعيل.

وعن فرص محمد مرسي مرشح الجماعة يقول عاكف: إني لا أرجو أن يفوز مرشح إسلامي بالرئاسة في تلك الدورة، لأن أي خطأ سوف يحدث من الرئيس الإسلامي سيضر بأمن مصر وبالحركة الإسلامية على شتى المستويات العربية والدولية، لذلك فأنا أدعو الله ألَّا ينجح مرشح إسلامي في الرئاسة.

وعن ترشيح عمرو موسى وأحمد شفيق يقول عاكف: قضية الفلول لا تعني لي شيئاً ولا نحتاج إلى قانون عزل لكي نقصيهم، فالشعب أكثر وعياً ويستطيع إقصاء الفلول مثلما حدث في انتخابات مجلسي الشعب والشورى، فالشعب قام بإقصاء الفلول عن طريق صندوق الانتخاب.

وعلق عاكف على الأحداث التي وقعت مؤخراً في مصر بأن السبب هو التخبط الشديد في أداء المجلس العسكري وحكومة الجنزوري؛ لذلك أطالب حكومة الجنزوري بالرحيل فوراً لأن أداء الحكومة غير ملموس في الشارع.

وأضاف عاكف أن هناك بعض القوى تريد أن يعود الأخوان إلى السجون وأن يحدث صدام ٥٤ من جديد ولكني أريد أن أطمئن الشعب بأنه أكثر وعياً من المجلس العسكري وأكثر وعياً من الأحزاب. [وكالة أنباء فارس-٧-٠٥-٢٠١٢م]

جلال سعد الشايب(*)
galal_elshayp@hotmail.com

فرنسوا هولاند أو فوز التغيير

إنه فوز التغيير لرئاسة طبيعية. فرنسوا هولاند تمكن أخيراً من تحقيق حلمه: خلافة فرنسوا ميتران بعد سبعة عشر عاماً على حكم اليمين في فرنسا.

الرجل تولى رئاسة الحزب الإشتراكي ما بين ١٩٩٧م و ٢٠٠٨م لكنه لم يتولى أية حقيبة وزارية، واختار مدينة تول، في منطقة الكوريز للإعلان عن دخوله في السباق الرئاسي.

وإعلان الترشح من ناحيته القروية لم يأتِ صدفة كما الوصول إلى السباق الرئاسي، هولاند مثَّل الجناح الوسط في الحزب الاشتراكي، فاز بتمهيديات الحزب ما مكنه من حشد منافسي الأمس للتعبئة لحملته الرئاسية وإعطاء الحزب وجهاً متضامناً افتقده في الأعوام الأخيرة. ليبدأ بحملة رئاسية تهيأ لها سياسياً وجسدياً، وانطلق للقاء الناخبين ميدانياً.

الاشتراكي اقترح برنامجاً لإعادة إطلاق عجلة الاقتصاد، خاصة مع عقد تضامن الأجيال؛ لتشجيع المؤسسات التي تحتفظ بعمالها القدامى على توظيف الشباب، كما وعد بفرض ضريبة على أصحاب الثروات الضخمة، وخلق ستين ألف فرصة عمل في مجال التعليم.

والأهم من ذلك هو تأكيده على نقض الاتفاقية المالية الأوروبية معلناً عن نيته إعادة مناقشتها في حال انتخابه: "سأعيد مناقشة الاتفاقية التي وقعها المرشح المنتهية ولايته مع رؤساء الدول والحكومات. وأنا أؤيد الحزم في الميزانية، والنظام. فأنا أعلنت منذ أكثر من عام أنه علينا تحقيق التعادل في الميزانية قبل نهاية ٢٠١٧م".

ويرى مراقبون أنه يريد إعادة التوازن الاجتماعي في فرنسا، كما أنه يريد الحفاظ على عَلاقة حميمية مع المغرب العربي، ولا يريد خوض مواجهة مع المطالبين بالديمقراطية في العالم العربي. [أخبار أوروبا ٢٠١٢/٥/٠٧م]

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

الخرطوم: أوغندا تمثل قاعدة العمل العسكري ضد السودان

أكد أحمد إبراهيم الطاهر - رئيس البرلمان السوداني - أن «أوغندا» تمثل قاعدة العمل العسكري ضد السودان، وتدعم الحركات المسلحة في «دارفور»، وذلك في اجتماع عقده مع رئيس البرلمان الأوغندي لكشف تحركات أوغندا ضد السودان.

وبحسب صحيفة «الرأي العام» أكد الطاهر: أن «وضع إستراتيجية أمنية للبلاد أمر مهم، لجهة أن الحركة الشعبية تنفذ أجندة خارجية، والمعركة ليست معركة محلية بل تحركها عناصر خارجية».

وأضاف الطاهر أن «أوغندا الآن تتعهد بإصدار الشهادات لكل أسلحة الحركات المسلحة والحركة الشعبية، والخط العدائي يقوده الرئيس الأوغندي، فالوضع الاقتصادي لا يسمح للجنوب حتى بتجهيز كتيبة واحدة».

وبعد انقسام السودان إلى شمال وجنوب، استحوذت دولة جنوب السودان على ٧٥٪ من عائدات النفط، ويعد هجليج حقلاً نفطيّاً إستراتيجيّاً وله أهمية كبرى للاقتصاد السوداني، فهو ينتج نصف نفط الشمال تقريباً، وردت دولة جنوب السودان أن جارتها الشمالية قصفت منطقة هجليج في ولاية جنوب كردفان، وقالت: إنها تعرضت للهجوم أولاً وإن احتلالها هجليج هو إجراء دفاعي.

وأكدت لجنة الشؤون العربية في مجلس الشعب المصري وجود مخطط (أمريكي إسرائيلي) لإشعال حرب بين شمال وجنوب السودان.

وقالت اللجنة: إن هذا المخطط يرمي للسيطرة على مناطق النفط المشتركة بين البلدين، مشيرة إلى أن الدعم الأمريكي الإسرائيلي الكامل لحركات التمرد في السودان كان وراء الدفع بهذه الحركات.

وأضافت اللجنة: «ذلك التحرك يهدف لمساندة الجنوبيين على احتلال منطقة إنتاج النفط في منطقة هيجليج لضرب اقتصاد شمال السودان في مقتل». [مفكرة الإسلام ٢٠١٢/٤/١٧م]

«الضاري»: المالكي يقود العراق نحو الهاوية ولابد من ثورة تصحيح

هاجم الأمين العام لهيئة علماء المسلمين في العراق الشيخ حارث الضاري، رئيس الحكومة نوري المالكي، ووصفه بالاستبدادي والمغرور، واتهمه بالسعي لتحويل العراق إلى إيران جديدة، مؤكداً على أن مشروعه غير خافٍ على أحد، وأنه يقود البلاد إلى الهاوية، وذلك لسعيه إنشاء دولة الحزب الواحد والشخص الواحد والمذهب الواحد، كما هو الحال في إيران، وهذا ما يثبته الواقع نفسه.

وشدد على أن المالكي وحكومته مدعومان من أمريكا وإيران، ولذا هم ساكتون على كل تصرفاته وسياساته الفاشلة والمدمرة والمقسمة للعراق.

وأكد الضاري أن العراق يسير نحو المجهول المخيف، ودعا الشعب العراقي للثورة السلمية على حكومة المالكي، لأنه وصل إلى مرحلة استكمال المشروع الذي يسعى وأسياده إليه، وإنه لغروره يعتقد أنه وصل إلى المرحلة التي لا يخاف فيها من إعلان مشروعه، ولا من مسؤولية تصرفاته الهوجاء ضد شركائه السياسيين.

وأشار الشيخ الضاري إلى أنه لا بدَّ من إنهاء العملية السياسية الحالية؛ وتشكيل حكومة انتقالية من رجال العراق، الذين يثق بهم أبناؤه، تقوم بتصريف الأمور لسنة أو سنتين ثم تشرف على انتخابات حرة ونزيهة، «تأتي ببرلمان عراقي وطني حر تنتج منه حكومة وطنية، ويضع دستوراً متفقاً عليه من قبل كافة فئات ومكونات الشعب العراقي».

[شبكة الدفاع عن السنة ٢٠١٢/٤/٢١م]

وثائق سوفيتية تكشف تفاصيل الحرب المزيفة عام ١٩٧٣م

يكشف السفير السوفيتي السابق فلاديمير فينوغرادوف (عمل في فترة ١٩٧٠م-١٩٧٤م في القاهرة) في مذكرته الموجهة الى القيادة السوفيتية وغير المنشورة سابقاً خفايا حرب اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٧٣م بين مصر وسورية من جهة وإسرائيل من جهة أخرى، والتي وصفتها وسائل الإعلام بـ «الحرب المزيفة». ونظراً لوجوده في العاصمة المصرية طوال فترة الحرب فقد كان فينوغرادوف على اتصال دائم بالأركان العامة والقيادة السوفيتية، كما التقى بوزير الخارجية الأمريكي - آنذاك - هنري كيسنجر. وقد أعدَّ السفير مذكرة من أجل تقديمها الى المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي والحكومة السوفيتية في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٥م فور عودته إلى موسكو بعد ترك منصبه كسفير في مصر. وبقيت هذه الوثيقة في الأرشيف الشخصي لفينوغرادوف، وتمَّ الكشف عنها بعد وفاته. ويتبين من المذكرة التي حصلت عليها «روسيا اليوم» أن السادات خان سورية في أثناء الحرب من أجل كسب ودَّ أمريكا، بينما ضحت «غولدا مائير» في هذه الحرب بحياة ألفين وخمسمئة جندي وضابط إسرائيليين دون أن يرف لها جفن إرضاء لرغبات الأمريكيين في الهيمنة على الشرق الاوسط.

[روسيا اليوم -٢٠١٢/٠٥/٠٤م]

علامة تعجب

خامنئي: جيش إيران هو جيش إلهي!!

قال مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي: إن الجيش الإيراني يعدُّ بمنزلة جيش إلهي وإسلامي ويعمل في خدمة المصالح الوطنية.

وتفقد خامنئي معرض الأنشطة التعليمية والبحثية والهندسية والقتالية للقوات البرية للجيش، ومن بينها مشروع محاكاة تدريب المظليين الذي تم تصميمه وتصنيعه من قبل المتخصصين الإيرانيين.

وكان الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد قد وجّه اتهاماً للقيادة الدينية في إيران بتعمد إثارة الصراع مع الغرب، رغبة منها في أن يؤدي ذلك لإضعاف مركزه.

ووفق دبلوماسيين غربيين عادوا من طهران وتحدثوا إلى صحيفة ديلي تلجراف البريطانية، فقد أعرب نجاد عن إدانته لمستشارين مقربين من المرجع الأعلى خامنئي، ووصفهم بأنهم مجموعة من المجانين.

واعتاد الرئيس الإيراني في الفترة الأخيرة على توجيه انتقاد سياسات متبعة من قبل مقربين من خامنئي وقياديين في ميليشيا الباسيج شبه العسكرية، حيث يتهمهم بالعمل على إثارة الخلافات مع القوى الغربية من أجل إضعاف مركزه، ليستطيعوا استبعاده. [قصة الإسلام - وكالات ٢٠١٢/٤/٢٤م]

«المسلمون الصهاينة» يحتفلون بقيام «إسرائيل»!!

نشرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» أن «المسلمين الصهاينة» يحتفلون بقيام الكيان الصهيوني ويؤمنون بأن السلام سيتحقق مع العالم العربي، ويعول عليهم الكيان الصهيوني لإنهاء ما أسماه بـ «الكراهية» تجاهه.

وقد عرفتهم الصحيفة بأنهم مسلمون منحدرون من أصول عربية يعيشون في أوروبا، وتحديداً في بريطانيا وإيطاليا وعدد من الدول في شمال وغرب أوروبا، يؤمنون بالحركة الصهيونية وحقِّ الكيان الصهيوني في الوجود.

وأكدت الصحيفة أن هؤلاء أسسوا «جماعة المسلمين المتصهينة»، وهي تحرص على زيارة الكيان الصهيوني والأماكن التاريخية أو الدينية به، مثل متحف جرائم النازية أو مقابر القتلى العسكريين الصهاينة أو غيرها، معتبرة أن من الممكن أن يساهم هؤلاء في تغيير «أجواء الكراهية» التي يعيشها الكثير من الشباب العربي.

[الأهرام المصرية ٢٠١٢/٤/٢٦م]

مرصد الأرقام

أعلنت منظمة التعاون الإسلامي أن ما يقرب من ٢٤ ألف لاجئ سوري متواجدون حالياً في تركيا، وأن السلطات المحلية هنـــاك وفرَّت لهم الخدمات المطلوبـــة، فضلاً عن الخدمات الطبية، وذلك وفقاً لما جاء في تقرير البعثة الإنسانية التابعة لمنظمة التعاون الإســـلامي، والتي أنهت زيارتها هناك بهدف الاطـــلاع على الأوضاع المعيشـــية للاجئين الســـوريين على الحدود التركية السورية. [الإسلام اليوم ٢٤/٤/٢٠١٢م]

بيَّن اســـتطلاع للرأي أجراه «مركز الدراسات العربي-الأوروبـــي» ومقره باريـــس، أنَّ أغلبيـــة المصريين يؤيدون قيام نظام إســـلامي، فوفقاً للاســـتطلاع قـــال ٤٨,١ ٪ من المســـتطلعة آراؤهم: إن مصـــر بحاجة اليوم إلى نظام إسلامي قائم على النزاهة والشفافية والمحاسبة.

فيما أيّد ٣٦,٨٪ قيام نظام ليبرالي في مصر، معتبرين أنَّ هذا الأســـلوب هو الأفضل لإدارة الدولة، خصوصاً في المجتمعات المتعددة العقائد والأعراق، وأيد ١٥,١٪ نظام مختلط بـــين النظامين الإســـلامي والليبرالي معاً ويكون قريباً من النظام الموجود في تركيا أو ماليزيا أو إندونيسيا. [الإسلام اليوم ٢٩/٤/٢٠١٢م]

نشرت صحيفة «البينة» تقريراً أعدته وزارة التخطيط العراقية تحت عنوان «خارطة الحرمان ومستويات المعيشة في العراق لعام ٢٠١١م»، إن ٣٠٪ من العراقيين يعيشـــون تحت خط الفقر، منهم ما يقارب ٤٪ يعيشـــون في مستوى معيشي منخفض جدًّا.

وأوضح التقرير أنه بالنســـبة للأسر، فإن حوالي ٢٨٪ منها تعيش في مســـتوى متدن، وما يقارب ٣٪ منها تعيش في مستوى معيشي منخفض جدًّا.

وأفادت النتائج بأن أقل المحافظات حرماناً هي الأنبار وبغداد وكركوك والبصرة ومحافظات كردســـتان، حيث لا تتجاوز نسبة الســـكان المحرومين في أي منها ٣٠٪ بينما أكثر المحافظات حرماناً هيميسان والمثنى والقادسية وذي قار جنوبي البلاد حيث تتراوح نســـبة السكان المحرومين فيها ما بين ٤٨ و٥٦٪.

وقالت الصحيفة: «التقريـــر نفذ ميدانيّاً لجمع بيانات اجتماعية واقتصادية على مستوى المدن والبلدات والقرى والأرياف فـــي جميع المحافظات مـــن ضمنها محافظات إقليم كردستان». [شبكة أخبار الناصرية ٣٠/٤/٢٠١٢م]

(س) و (ج)

س: كيف يُستغلُّ الإسلاموفوبيا.. كمادة للمزايدة في الانتخابات الأوروبية؟

ج: باتت ظاهرة العداء للإســـلام "الإسلاموفوبيا" تتنامى في أوروبا بشكل كبير وملحوظ، وخاصة مع موسم الانتخابات في أكثر من دولة أوروبية، واســـتغلال التمييز ضد المســـلمين كعامـــل جذب للناخبـــين؛ وهو ما جعل الأمـــين العام لمنظمة التعاون الإســـلامي يحذر من تزايد ظاهرة العداء للإســـلام هناك، واستخدامها مادة للمزايدة في الانتخابات، كما يحدث في فرنسا، وهو نفس ما حذّرت منه منظمة العفو الدولية.

وأكد أكمل الدين إحســـان أوغلو الأمـــين العام لمنظمة التعاون الإسلامي أن ظاهرة العداء للإسلام آخذة في التصاعد في بعض الدول الأوروبية، محذراً من صعود اليمين المتطرف في الانتخابات، فـــي الدول التي اتهمتها منظمة العفو الدولية بأنها لا تبذل جهوداً كافية لمكافحة التمييز ضد المسلمين، بل إنها تشجعه.

وأوضح أن ظاهرة الإســـلاموفوبيا دخلت بالفعل مرحلتها الثالثة، مشـــيراً إلى أن المرحلة الأولى تمثلت في اســـتغلال حرية التعبير للإســـاءة إلى الإســـلام كما حدث في الرسوم الكاريكاتورية، أما الثانية فتمثلت في مأسسة العداء للمسلمين، كما جرى في الاستفتاء الشعبي الذي شهدته سويسرا وأسفر عن قرار منع بناء المآذن.

وشدد على مسؤولية الجانبين في العلاقات المتوترة بينهما، حيث قدمت ممارسات المتطرفين في العالم الإسلامي "صورة خاطئة عن الإســـلام"، في المقابل تجسد التطرف الغربي في إنكار قيم الإســـلام الســـمحة مع التركيز على المظاهر التي يقدمها المتشددون من الجانب المسلم.

وقال "فرنســـوا لورســـيري" أحد علمـــاء الاجتماع: "لم يعد بمقدور مســـلمي فرنســـا أن يتحملوا أكثر من ذلك، فقد ســـئموا من تلك النقاشات الدائرة بشـــأن الهوية القومية أو اللحـــم الحلال أو النقاب أو الأصوليـــة في كل مكان، كما أن مصطلحات "الإســـلام والهجرة والأصولية" تســـتخدم بشكل متبادل دون اهتمام بمشـــاعر الفرنســـيين وذلـــك من أناس مســـتهدفين ومتهجمين ومســـتغلين في الانتخابـــات"، وفقاً لصحيفة "واشنطن تايمز" الأمريكية.

[مواقع العرب أون لاين – صحيفة السبيل-المفكرة، إبريل٢٠١٢م]

الأقلية المسلمة في تايوان

د. أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

الموقع : تايوان جزيرة توجد في جنوب شرقي آسيا، في المحيط الهادي ويفصلها عن الصين مضيق فورموزا، ولا تتجاوز المسافة بينها وبين الصين ١٤٠كم، وتتكون تايوان من جزيرة فورموزا وعدد آخر من الجزر الصغيرة

التاريخ: ظلت تايوان تتبع الصين حتى سنة ١٣٢٣هـ - ١٨٩٥م، ثم استولت عليها اليابان وفقاً لمعاهدة «سيمونسكي» وبعد هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية عادت تايوان إلى الصين في سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م، وعندما زاد النفوذ الشيوعي الصيني بحيث سيطر عليها، هاجر إلى تايوان قسم من الجيش الصيني بقيادة الجنرال شيانج في سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م وتكونت جمهورية الصين الوطنية بزعامته.

أهم المدن: مدينة تايبيه العاصمة ويسكنها أكثر من ٣ مليون نسمة، وتايشينج وكاوثينج

السكان: يصل عدد سكان تايوان حسب احصائية ٢٠١٢ م حوالي ٢٣ مليون نسمة، وعدد المسلمين حوالي ١٦٠ ألف نسمة

التوزيع العرقي (الإثني) للسكان:

الهكا (٤٨ ٪)، صينيون (١٤ ٪)، هنود (٢ ٪).

اللغات : اللغة الصينية لهجة ماندرين، التايوانية، لهجة الهكا

الديانات : خليط من البوذية والتاوية (٩٣٪)، نصارى، (٥٠و٤٪)، أخرى (تشمل الأقلية المسلمة)٥٠و٢ ٪.

تاريخ الإسلام في تايوان

كيف وصل الإسلام إليها؟

وصلها الإسلام حديثاً عندما هاجر إليها ٢٠ ألف مسلم من الصين الشيوعية في سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٤٩م، في إبان سيطرة الحزب الشيوعي على الصين، والمسلمون في الصين الوطنية في وضع جيد بسبب حرية العقيدة، فمنهم أعضاء في المجالس التشريعية، ونواب وزراء، وبعض جنرالات بالجيش،لكن الاغلبية في أوضاع اقتصادية صعبة، وينتشر المسلمون في تايبيه العاصمة، وفي بعض المدن الأخرى في شوغلي، وتايشنج وكاوشج.

ويتكون المسلمون في الصين الوطنية من الهوي، والأتراك، والأويفور، والكازاك، هذا إلى جانب عدد آخر من الصينيين.

أحوال المسلمين:

لقد صدرت عدة تراجم لمعاني القرآن الكريم باللغة الصينية (ماندرين) وتكرر طبع بعضها، ومنها ترجمة قام بها المرحوم الحاج خالد شيخ، وطبعت سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م وترجمة أخرى قام بها الحاج شيخ شاي وانج وطبعت في سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، هذا إلى جانب العديد من تراجم الكتب الإسلامية، ويصدر المسلمون في تايبيه مجلة إسلامية شهرية بعنوان «المسلمون في الصين» تصدر بالعربية والصينية.

وتوجد الجمعية الإسلامية الصينية في تايبيه، وتشرف على المساجد والتعليم الإسلامي إلا أن الحاجة ماسة لمدارس ابتدائية إسلامية، فتعليم أبناء المسلمين قاصر على دروس دينية بالمساجد أو دراسات صيفية تعقد في أثناء العطلة يتلقى فيها أبناء المسلمين مبادئ الإسلام، وتقوم الجمعية الإسلامية الصينية بدراسة مشروع إنشاء مركز ثقافي إسلامي في تايبيه، وإعادة بناء مساجد تايبيه، وبعض المساجد في المدن الأخرى، ويتبع الجمعية جمعية الشباب المسلم الصيني، وجمعية الثقافة الإسلامية الصينية، وللجمعية عدة مشاريع منها: ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغة ماندرين الصينية،ويتواجد المسلمون في تايبيه عاصمة تايوان، وفي كاوشج في جنوبي تايوان، وفي وسط البلاد، وفي تشونج لي، وفي تايشنج.

المساجد في تايوان:

يوجد بها ٥ مساجد، موزعة على مدن تايبيه العاصمة، تايشنج، وكاوهيشيونج. ومن أبرز الأنشطة للدعوة في تايبيه ما يقوم به المجلس المحلي لمساجد تايوان.

في تايوان ١١ مؤسسة إسلامية معظمها في تايبيه، وأهمها:

١- رابطة الشباب المسلم الصينية.

٢- المؤسسة الثقافية والتعليمية الإسلامية الصينية.

٤- الجمعية الإسلامية الصينية.

٥- جمعية المسلمين الصينيين.

ويحتاج المسلمون إلى إنشاء إذاعة أو فضائية إسلامية تتناول مبادئ الدين، والتعريف بقيمه السمحة، ويحتاجون إلى بناء بعض المدارس الإسلامية تتعلم فيها الأجيال من أبناء المسلمين مبادئ الإسلام. ويحتاجون إلى الدعاة الذين يجيدون اللغة الوطنية واللغة العربية، وكتب التفاسير القرآنية وكتب فيها شرح مبسط لمبادئ الإسلام فضلاً عن مشروعات وقفية للصرف على الدعوة

المراجع والمصادر:

- موقع التبيان.
- موقع الإسلام.
- موقع الألوكة.
- موقع الندوة.
- Factbook

[نص شعري]

سوريّة... فتنةُ الحُسْنِ والكبرياءِ

فهد بن علي العبودي

يا لها من غادةٍ في مأتم ... خَضَبوها بـ "مَساحيقِ" الدمِ!
لم يزدْها الدمُ إلا زينةً ... جوَّدَ منها الوغدُ أنْ لم تُكْلَمِ
فاكتَسَتْ مِنْ دمها أنهارُها ... وفيافيها وشُمُّ القِمَمِ
قلَّدَتْ «سوريَّةً» في لُبْسِها ... وكذا صُنْعُ العشيقِ المُغْرَمِ
وسقاها الغيمُ دمعاً؛ عَلَّهُ ... يشْتَفي فاعْجَبْ لهَتَّانٍ ظَمِي!
أقسمتْ ألَّا تُرى خانعةً ... وهْيَ أختُ العزِّ لو لمْ تُقْسِمِ
نظر الدهرُ لها مُذ دَرَجَتْ ... نَظْرةَ المَشْدوهِ والمُسْتَعْظِمِ
ما نسينا مَجْدَها لو أوغَلَتْ ... "مَيْسَلونٌ" في دُروب القِدَمِ
صَخْرةٌ سَدَّتْ رؤى أطماعِهِمْ ... شِدّةً وانْبَجَسَتْ للمُعْدَمِ
فَجَرَتْ منها ينابيعُ المنى ... ثَرّةً رغمَ يبَابِ الحُلُمِ
صَخْرةٌ ذابَتْ على قسوتها ... لضحايا اللَّهبِ المُضْطَرِمِ
عجباً من صخرةٍ ضَمَّتْ بها ... أملَ الشاكي وشكوى المجرمِ
ألْهَمَتْنا العزَّ مُذْ كانتْ وها ... هيَ صارتْ مصْدراً للكَرَمِ
فَعَرَجْنا للسماواتِ الإبا ... بعدَ هُونٍ بُوركتْ من سُلَّمِ
صَمَتَتْ حيناً ولولا صَمْتُها ... ما بغى الباغي ولمْ تنتقمِ
صمتُها كان لهُ أحْبولَةً ... نَصَبَتْهُ فهوى فيه العَمي
زعموهُ عربيّاً خالِصاً ... وهْوَ لم يُخْلِصْ لغير العَجَمِ
تَبِعَ الفُرْسَ وعادى قومَه ... فامتطوه فَرَساً للمغنمِ
وتراه يَدَّعي «قومِيَّةً» ... إنها "قومِيَّةُ" ابنِ العلقمي
«أسداً» يُدعى وحاشا أن يُرى ... أسَدُ الغابةِ ذيلَ الأرقمِ
«أسداً» يُدعى ولكنْ ما لهُ ... بطباعِ الأُسْدِ لم يَتّسِمِ؟!
حَلُمَتْ حيناً على سَطْوتِهِ ... رُبَّ حِلْمٍ جَرَّ بَطْشَ القَزَمِ
فانثنى الحِلْمُ عُباباً عارماً ... فَلْيَخُضْ لُجَّ العُبابِ العَرِمِ
هامَت الدنيا بها إذ صَمَدَتْ ... ما لها عذرٌ إذا لم تَهِمِ
أيُّ حُبٍّ ذلك الحُبُّ الذي ... منحَ الصَّبَّ أمانَ اللُّوَّمِ؟
ما أتَمَّ الحُسْنَ إنْ خالَطَهُ ... في المُحَيّا مَسْحَةٌ من شَمَمِ!

أيديولوجيا المجتمع السعودي والتغيير

قراءة في كتاب (مقاومة التغيير في المجتمع السعودي)

(افتتـــاح مدارس تـعـــليم البنات أنمـــوذجاً)

د/ عبد الله بن ناصر السدحان

د. محمد بن عبد الله السلومي(*)

الإيديولوجيا التي تُحـــرِّك عموم المجتمع السعودي وتُســـكِّنُه هي عقيدته السلفية التي اكتسبها عموم المجتمع من خلال مناهج التعليم العامـــة الموحَّدة والموحِّدة، ومـــن خلال برامج الدعوة العامة من العلماء والدعاة، وبالوســـائل الدعوية القديمة والمعاصرة، والمنهج الســـلفي أكبـــر من الأشـــخاص والجماعات الســـلفية والمؤسســـات الدينية وغيرها، ولأجل ذلك فإن المجتمع الســـعودي يُعدُّ مجتمعاً محافظاً يصعب توجيهه أو تغيير قناعاته الثقافية إلا من خلال الدين والعلماء وفتاواهم، فالتغيير من خلال العلماء وبتشـــريعات الإســـلام موضع ثقة واطمئنان، وهذا ما حدث في موضوع (الهجر والتوطين)[1] كأبرز مشروع في عملية التغيير الاجتماعي والثقافي زمن الملك عبدالعزيز، وكمشـــروعات (الإذاعـــة والتلفزيون) التي واجهت بعض الممانعة خوفاً من أن تكون نسخةً مكررة من الإعلام العالمي والعربي، وســـأكتفي هنا بالمثال بـ (تعليم البنات) كأنموذج لرفض التغيير وقبوله في آن واحد مما يعكس قوة المرجعية العقدية والفقهية للمجتمع السعودي.

ومن المســـلَّم به لكل مسلم أن التشـــريعات الإسلامية تستوعب معظم المصطلحات الجديدة والوســـائل الحديثة وتوظفها وفق خصوصيات وقيم المجتمعات الإســـلامية، وأن العجز إذا وجد فهو من معتنقي الفكرة وليس

(*) هذه القراءة مقتصرة على إيراد النصوص المعنية من الكتاب المذكور، والتعليق فيما بين النصوص، وربط بعضها ببعض، إضافة إلى أن عناوين هذه القراءة من وضع وترتيب القارئ لتكوين الوحدة الموضوعية لموضوع القراءة.

(١) انظر كتاب الأميرة/ موضي بنت منصور بن عبد العزيز (الهجر ونتائجها في عصر الملك عبد العزيز) ١٤١٩هـ جامعة أم القرى.

من الفكرة ذاتها، لأن الإسلام رحمة للعالمين إلى يوم الدين، وبالنسبة إلى تعليم البنات كأنموذج للتغيير فإن معظم الممانعة والرفض لم يكن لأصل فكرة تعليم البنات - كما سنرى في استعراض صفحات هذا الكتاب-، وإنما كان حول وسائل هذا التعليم التي يجب أن توفر حماية الأعراض والمحافظة على القيم -كما سيأتي-.

إن تعليم البنات يُعد من أقوى عمليات التغيير الثقافي والاجتماعي خاصةً مع تخوف المجتمع المحافظ والعلماء والدعاة من هذا الوافد الجديد، وتجربة هذا التعليم النظامي المستقل للبنات بتميزها عن سائر الأوطان بما فيها دول العالم العربي والإسلامي تستحق البحث والدراسة والتحليل للاسترشاد بها في أية عملية تغيير اجتماعي أو ثقافي أو سياسي، ومما يُسجل للعلماء أن لديهم القدرة العلمية والعملية على الإسهام بالتجديد والتغيير والإصلاح كما حدث في عملية تعليم البنات، ويماثل هذا الدور من العلماء ما حدث من تلامذتهم (المطوِّعين) الذين كانوا عاملاً رئيسياً من عوامل نجاح مشروع الهجر وتوطين الوحدة الفكرية التي انبثقت منها الوحدة السياسية للدولة السعودية.

وقد أفاد وأجاد الدكتور عبدالله السدحان في عرض هذا الموضوع في كتابه القيم، (مقاومة التغيير في المجتمع السعودي - افتتاح مدارس تعليم البنات أنموذجاً).

لقد اكتفيت في هذا الموضوع باقتباسات منه لشمول بحثه وقوة تحليلاته وكثرة نقولاته المتعددة عن الباحثين.

يقول السدحان:" كان تعليم البنات في المجتمع السعودي حسب تعبير (الغذامي: ٢٠٠٤م، ص ١٤٠) حدثاً اجتماعياً من حيث إنه أعاد صياغة المنزل والتفكير العائلي.. فقد كان تحولاً في ذهنية المجتمع كله". على الرغم من كونه للجانب التعليمي أو الثقافي أقرب، ولكنه تحول إلى ظاهرة اجتماعية بكل ما يحمله المصطلح من مدلول[1]".

لقد كان إنشاء كيان إداري مستقر يعرف بـ (الرئاسة العامة لتعليم البنات) في عهد الملك سعود بن عبد العزيز عام ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م بصفته كيانا مستقلا عن البنين إشرافاً وإدارةً نتيجةً طبيعية لطبيعة المجتمع المحافظ ولحجم الممانعة التي صحبت نشوء الفكرة.

وبالعودة إلى إيديولوجية المجتمع والتغيير، فقد اجتاز العلماء بفتاويهم مسألة تعليم البنات وموضوع إقراره إلى أن يكونوا هم أو تلاميذهم على رأس الهرم الإداري والإشرافي ليتجاوز المجتمع رفض ذلك التعليم من بعض فئات المجتمع، وهم الفئة المتخوفة من نتائجه، وبذلك تحول الرفض إلى قبولٍ وقناعةٍ به واطمئنانٍ إليه، حينما التزمت الرئاسة المعنية تحت إشراف العلماء وبالضوابط الشرعية التي ترعى وتراعي قيم المجتمعات المحافظة بدءاً من إدارة مستقلة عن البنين ومناهج مستقلة متميزة بموادها وموضوعاتها وملبس طالباتها ومعلماتها، وانتهاءً بالنقل العام المتخصص بالطالبات.

إن قبول التغيير عن طريق إيديولوجيا المجتمع نفسه قفزَ بهذا التعليم إلى مستوى لم يكن يتوقعه الراصدون في الداخل والخارج حينما سجلت الإحصائيات التطور المشهود لهذا التعليم المستقل المحافظ حتى أصبح تجربة فريدة على مستوى العالم من حيث قوته ونتائجه ومخرجاته، وقد تُوج هذا التعليم الخاص بالمرأة بكليات أشبه ما تكون (بجامعات ذات تخصصات مختلفة زادت عن مئة (١٠٠) كلية) في جميع مدن المملكة وهذا ما وفَّر على المجتمع عناء إيفاد بناتهم خارج نطاق الأسرة في مدن بعيدة أو ما شابهها، وما يترتب على ذلك من سلبيات على الحياة الأسرية والاجتماعية، بل إن تطور هذا التعليم ونتائجه المذهلة بحسب الإحصائيات قد فاقت تعليم البنين في بعض السنوات، وأصبح بتميزه عن غيره وقبوله لدى جميع فئات المجتمع من عوامل الإسهام في تقوية السيادة للدولة.

وما سبق كافٍ للحكم على دور الدين ذاته في التغيير والتحديث من خلال علمائه وفتاواهم، وليس من خلال فرض برامج ومشاريع التغيير التي تتصادم مع قيم المجتمع وتشريعات الدين وفتاوى العلماء، ومن يطالع القرار التالي يدرك حجم الرفض والممانعة لهذا المشروع التغييري، كما يدرك في الوقت نفسه قبول ذلك التغيير والتحديث، مما يلفت انتباه كل باحث إلى قوة أثر فتاوى العلماء ومواقفهم العملية في عصر قوتهم المستقلة التي تستمد قوتها من الوحيين: (الكتاب والسنة).

القرار التاريخي:

صدر البيان الملكي عن تعليم البنات بتوقيع الملك سعود، وأذاعته المديرية العامة للإذاعة والصحافة يوم الخميس ١٣٧٩/٤/٢٠هـ - ١٩٥٩م، وتم نشره في صحيفة أم القرى العدد ١٧٩٠، الصادر يوم الجمعة ١٣٧٩/٤/٢١هـ على النحو الآتي: "الحمد لله وحده وبعد، فلقد صحت عزيمتنا على تنفيذ رغبة علماء الدين الحنيف في المملكة في فتح مدارس لتعليم البنات العلوم الدينية كإدارة المنزل وتربية الأولاد وتأديبهم مما لا يخشى فيه عاجلاً أو آجلا أي تغيير على معتقداتنا؛ لتكون

(١) انظر: الدكتور عبدالله بن ناصر السدحان مقاومة التغيير في المجتمع السعودي، ص١١.

هذه المدارس في منأى عن كل شبهة في المؤثرات التي تؤثر على النشء في أخلاقهم وصحة عقيدتهم وتقاليدهم، وقد أمرنا بتشكيل هيئة من كبار العلماء الذين يتحلون بالغيرة على الدين والشفقة على نشء المسلمين في تنظيم هذه المدارس ووضع برامجها بمراقبة حسن سيرها فيما أنشئت له، وتكون هذه الهيئة مرتبطة بوالدهم حضرة صاحب السماحة المفتي الأكبر الشيخ: محمد بن إبراهيم آل الشيخ على أن تُختار المدُّرسات من أهل المملكة وغيرهن اللواتي يتحقق فيهن حسن العقيدة والإيمان، ويدخل هذه المدارس ما قد سبق فتحه من مدارس للبنات في عموم المملكة، وتكون جميعاً مرتبطة في التوجيه والتنظيم بهذه اللجنة تحت إشراف سماحته، مع العلم أن هذا التشكيل يتقدم الوقت الكافي بتهيئة وسائل التأسيس، ونأمل أن يكون ذلك في وقت قريب، والله الموفق ولا حول ولاقوه إلا بالله[1]".

وعلى الرغم من هذا البيان الملكي – سابق الذكر – الذي أكد دور الدين والعلماء في هذا النمط التغييري وراعى بنية المجتمع المحافظ، فإن التوجس والترقب من المجتمع المحافظ بقيَ قائماً إلى حد معين، حتى عايش الناس عملياً تطبيقات الضوابط الشرعية والأخلاقية لهذا النوع من التعليم فجاء الاطمئنان بعد ذلك.

يقول السدحان: " وعلى الرغم من الرضا بالقرار في بعض المناطق أو الجهات، إلا أنه من المؤكد أن المقاومة في بعض المناطق كانت حادة جداً[2]".

حجم الممانعة والرفض:

تَحكُم جميع المجتمعات العالمية إيديولوجياتها وثقافاتها في القبول أو الرفض لعمليات التغيير، وقد كان للدين الإسلامي أثر في رفض بعض فئات المجتمع السعودي هذا النمط من التعليم حين رأى البعض أنه يحمل سمات التغيير القسري، ولا توجد تجربة مُطَمْئِنة معروفة، وفي الوقت نفسه كان للدين أثر في قبول هذا التعليم، بل وفي وتأسيسه واحتضانه وتطويره، والقفز به إلى أن أصبح تجربة عالميةً متميزة.

ومن المهم توضيح الفرق بين مصطلحي التغيُّر والتغيير يقول السدحان: "هناك فرق بين مصطلحي (التغيُّر) و(التغيير)، وكما يوضح ذلك (السيف: ١٤١٨هـ، ص١٢) فإنه كلما تدخل الإنسان في إحداث التغيّر أطلق على هذه العملية تغييراً، وغالباً ما يكون هذا التغيّر مخططاً له ومقصوداً لذاته. ويكون قائماً على تخطيط مسبق قبل التنفيذ للوصول إلى أهداف محددة ومعروفة. ويكون نتيجة لجهود الإنسان الإرادية وعادة ما تقوم به الدولة أو أي جهة تابعة لها، وخير مثال على ذلك: افتتاح مدارس تعليم البنين النظامية في عهد الملك عبد العزيز، ومثل إنشاء الهجر وتوطين البدو في وقته كذلك، ومن ذلك أيضاً البدء بتعليم البنات في عهد الملك سعود، أما (التغير الاجتماعي) فإنه يكون تلقائياً وعشوائياً وليس مقصوداً نتيجة تأثير خدمات وبرامج أحدثها الإنسان في واقعه الاجتماعي[3]".

يقول السدحان: " كما يذكر (غنيم وزملاؤه:١٤١٠هـ، ص١٢٧) إن تعليم البنات واجه معارضة شديدة في دولة قطر عندما افتتحت الدولة مدرسة للبنات عام (١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م) ولم تقبلها معظم العائلات، فكانت الفتوى الشرعية من العوامل الدافعة للعوائل القطرية للتراجع عن معارضتها لهذا النوع من التعليم[4]".

"والمشهد نفسه يتكرر في دولة البحرين، حيث تذكر (السليطي: ١٩٨٨هـ، ص١٨) أن بعض رجال الدين البارزين عارضوا وبشكل عملي افتتاح المدارس النظامية للبنات واستخدموا المنابر وخطب الجمعة، كما قام الأهالي الذين أدخلوا بناتهم في المدرسة الوحيدة بضجة كبيرة ومعارضة عملية تمثلت في إخراج بناتهم من المدرسة حين قامت مديرة المدرسة باستدعاء فرقة موسيقية لكي تعزف في إحدى المناسبات، وكان هناك شبه تعطل في المدرسة لأكثر من عام، وفي الكويت بقيت المعلمات التسع اللواتي جئن للتدريس دون عمل، إذ قوبلت فكرة مدرسة البنات بالمعارضة الشديدة من المجتمع[5]".

"(وذكر) (الوشمي:٢٠٠٩م،ص ٣٨/٣٥/ ٨٩) أن تعليم البنات في دبي واجه كثيراً من الصعوبات، كما صاحب افتتاح مدرسة البنات في القاهرة ضجة كبيرة، والأمر يتكرر في كل من: ليبيا، والمغرب، وبوركينا فاسو. إضافة إلى دول أخرى غير عربية ولا إسلامية مثل: جمايكا، والبرتغال، ومنغوليا[6]".

"ومن هنا فليس الأمر بدعاً في القول أو الفعل عندما يعترض بعض أفراد المجتمع السعودي، أو بعض العوام في المجتمع السعودي على افتتاح مدارس لتعليم الفتيات[7]".

---

(١) انظر السابق، ص ١٠٥– ١٠٦.
(٢) انظر السابق، ص١٠٩.
(٣) انظر السابق، ص٣٤.
(٤) انظر السابق، ص١٢٧.
(٥) انظر السابق، ص١٢٨.
(٦) انظر السابق ص١٢٨.
(٧) انظر السابق ص١٢٩.

ويؤكد السدحان أن الممانعة أو الرفض لم يكن عاماً وشاملاً بل كانت هناك مطالبات من بعض أفراد المجتمع بهذا التعليم: "وما من شك أنه قد ظهرت مطالبات متناثرة هنا وهناك في بقية مناطق المملكة ولكنها محدودة، خاصة في بداية السبعينيات الهجرية ولكن لم يصل إليها الباحث[1]".

وعن نوعية الاعتراض يقول السدحان: "ومما ذكر آنفاً يمكن التوكيد على أن المعارضة لتعليم الفتاة إنما خرجت من بعض طلبة العلم، أو من بعض العوام المتحمسين، ولم تتبنها المؤسسة الدينية الرسمية في المملكة، وعلى رأسها سماحة المفتي بدليل قبوله شخصياً لرئاستها والإشراف عليها، ولو كان يعارضها لرفض تولي الإشراف عليها ابتداءً، وقد كان يستطيع الاعتذار عن الإشراف عليها[2]".

ويقول السدحان أيضاً: "ومما تحسن الإشارة إليه أن المعارضة كانت على نوعين فيما يظهر من النظرة الأولية، ولكن هناك فئة ثالثة كما سنرى، فمنهم من كان يعارض المبدأ جملة وتفصيلاً، أي وجود مدارس نظامية تُعلِّم الفتاة، مطالباً في الوقت نفسه بالاكتفاء بالطريقة السابقة، وهي نظام الكتاتيب للفتيات في بعض المنازل، وهذه الفئة هي الأقل عدداً فيما يظهر وأضعف تأثيراً، وفئة أخرى كان اعتراضها على أن تتولى وزارة المعارف الإشراف على تعليم الفتيات، مطالباً بجهة مستقلة لتعليم الفتاة لضمان عدم اختلاط الجنسين في التعليم إن حاضراً أو مستقبلاً (الزهراني١٤٢٧هـ، ص٤٩٢)[3]".

ويقول أيضاً: "ومن هنا يمكن النظر إلى تلك الاعتراضات التي تمت في حينها على فتح مدارس البنات أنها كانت وسيلة غير مباشرة لضبط هذا الوافد الجديد ليتواءم مع طبيعة المجتمع وثقافته، وتتفق مع رغبة القوى المجتمعية والقيادات الشرعية التي كانت تمثل ثقلاً في بنية المجتمع والدولة بشكل عام[4]".

حجم القبول:

حينما كان مصدر التلقي لمنهج حياة المسلم واضحاً وقوياً لدى المجتمع السعودي المحافظ قاوم بعض أفراده عملية التغيير في تعليم البنات، وتوجس المجتمع منه خيفةً بأنه سيكون نسخةً مكررةً من تعليم البنات في بعض دول العالم العربي، لكن جهد العلماء كان مؤثراً وناقلاً لهؤلاء من الرفض إلى القبول من خلال عاملين أساسيين وهما: تشريعات الإسلام وفتاوى العلماء حول تعليم المرأة، والتطبيقات المطمئنة لوسائل هذا التعليم.

وقد يسأل سائل كيف حدث هذا التحول الكبير من الرفض إلى القبول؟ يجيب السدحان بقوله: "الاحتكام للشرع هو المظلة العامة التي استطاعت الدولة من خلاله احتواء الموضوع بشكل عملي تنفيذي، وليس تنظيرياً مجرداً من قبل صانع القرار السعودي[5]".

"ويرى علماء المسلمين أن تعلم المرأة أمور دينها واجبٌ عليها مع تفاوت فيما كان فرض عين أو فرض كفاية، وذلك أخذاً من آيات عديدة وردت في القرءان الكريم مثل قول الله عز وجل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١][6]".

وفي هذا التعليم "اقتداءٌ بحديث الرسول ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ولكنهم فرقوا منذ البداية بين ما يجب أن تتعلمه المرأة وما يتعلمه الرجل، وهذا موضع الخلاف بينهم[7]".

يقول السدحان: "ومن الواضح أن التحفظ ليس على ذات التعليم بقدر ما كان على جهة الإشراف وطبيعته ودرجة الضبط فيه والقائمين عليه، بدليل أنه خلال أقل من خمس سنوات فقط أصبح المفتي هو المشرف على ذلك النوع من التعليم في المملكة، وليس هذا فحسب، بل كان وجود سماحته على رأس هذا الجهاز عامل استقرار واستمرار لمسيرته، ولو كان تحفظ سماحة المفتي في المؤسسة الدينية على المبدأ ذاته لما قبل الإشراف ابتداء عليه، أو لا ستطاع من خلال الإشراف عليه تحجيمه أو تعطيله، أو تأخيره سنوات أخرى[8]".

ولأجل إنهاء كل أنواع الرفض والممانعة كانت مصداقية التطبيقات العملية من قبل العلماء وأصحاب القرار السياسي، يقول السدحان: "ولقد استطاعت الدولة تجاوز تلك المعارضة بوضع المفتي العام للبلاد الشيخ محمد بن إبراهيم على رأس هرم هذه المؤسسة الوليدة –الرئاسة العامة لتعليم البنات– ولا شك أن هذا الإشراف من قبل المفتي أعطى بعض الاطمئنان لمن كان يعارض تعليم المرأة بمبررات شرعية، أو يخشى أن يصل الأمر إلى ما وصل إليه في الدول المجاورة بالنسبة إلى المرأة، خاصةً أن رؤساء الرئاسة العامة لتعليم البنات الذين تولوا أمرها في البداية كانوا من العلماء أو طلبة العلم (ابن دهيش:١٤٢٨هـ، ج٨، ص١٠٨) ومنهم: الشيخ عبد العزيز ابن

(١) انظر السابق ص٩٨.
(٢) انظر السابق ص١٨٧، ١٨٨.
(٣) انظر السابق ص١١٠.
(٤) انظر السابق ص١٥٢، ١٥٣.
(٥) انظر السابق ص١٣.
(٦) انظر السابق ص٣٣.
(٧) انظر السابق ص١٠٠، ١٠١.
(٨) انظر السابق ص١٤٤.

ناصر بن رشيد، ثم الشيخ ناصر بن حمد الراشد، ثم الشيخ راشد بن صالح بن خنين، ثم الشيخ محمد بن عودة، ثم الشيخ عبد العزيز المسند، ثم الشيخ عبد الملك بن دهيش، ثم الشيخ علي المرشد. كما أخذت الرئاسة العامة لتعليم البنات في حينه الأمر بحزم في موضوع متطلبات المجتمع المسلم المحافظ من حيث التأكيد على التستر، وإلزام جميع العاملات بارتداء الملابس الساترة والبعد عن السفور، والمنع الشديد لأي مظهر من مظاهر التبرج أو السفور بين الطالبات، إضافة إلى عدم اختلاط الطلاب بالطالبات في جميع المراحل[1]".

"إن معارضة سماحة مفتي عام المملكة السابقة لم تكن على المبدأ بقدر ما كانت على الطريقة والآلية، من حيث الإشراف، وضمان عدم تداخل تعليم البنات مع البنين في بوتقة واحدة مع مرور الزمن، مما استلزم إحداث جهاز إداري مستقل لكل واحد منهما، وفق نظرة كان يراها شخصياً.

ومن هنا يمكن القول: إنه لا عبرة ببعض الحوادث الفردية التي خرجت معارضة متلبسة بالثوب الشرعي أو تبناها بعض طلبة العلم، فالمحك الحقيقي هو رأي العلماء المعتبرين، والمؤسسة الدينية بشكل عام وعلى رأسها سماحة المفتي[2]".

"وحتى لو افترضنا أنه إنما قبل بهذه المهمة مجاملة للملك سعود فإنه كان بإمكانه تعطيل مسيرتها، أو تأخير عمل ذلك الجهاز الجديد –الرئاسة العامة لتعليم البنات– عندما كلف بالإشراف عليه، ومن هنا يمكن القول: إن مجرد موافقة سماحته على تولي الإشراف على الرئاسة إشارة كافية إلى نوع المعارضة التي كان يبديها سماحته وإنها لم تكن في يوم من الأيام منطلقة من مبدأ رفض تعليم البنات لذاته. بقدر ما كانت لأسباب أخرى[3]".

ومما يُبرز أثر العقيدة على المجتمع المحافظ، ويكشف عن دور الوحدة الفكرية على المجتمع السعودي في تغيير المانعة والرفض، من الرفض إلى القبول لدى المجتمع السعودي، أن الرفض لم يأخذ أي شكل من أشكال العنف أو الفتنة بسبب دور العقيدة السلفية المُوحِّدة بين المحكوم والحاكم حتى مع الاختلافات في وجهات النظر بينهما، أو الاختلاف في الاستدلال الفقهي.

يقول السدحان: "وقد دفع هذا القول بشدة (الوشمي: ٢٠٠٩م، ص ٤٢) مستشهداً بروايات شفاهية من عدد من المعاصرين للحدث وبحسب تعبيره "فالممانعة كانت قوية، ولكنها تمت في إطار الدولة ومن باب التعامل مع ولي الأمر، لذلك كان الموقف الذي اتخذته الحكومة موقفاً سلمياً يُبالغ في الهدوء والتأني في إقناع الممانعين. فحركة الممانعة سلمية بجميع مناشطها، وأعضاء الوفد الذي قابل الملك طلبوا من ولي الأمر أن يعدل عن هذا الأمر، وإن قبل فجزاه الله خيراً، وإن لم يقبل فالسمع والطاعة، ولا أسلحة ولا حرب أعصاب، وكانوا في غاية الهدوء والقناعة". وهذا الأسلوب الهادئ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو دين علماء هذه البلاد في الإنكار على ما يرون أنه منكر، يدلُ على ذلك، ختام نقاش العلماء مع (حافظ وهبة) في أثناء مناقشته لهم بأمر من الملك عبد العزيز عن تدريس بعض العلوم العصرية، فقد قالوا هذه العبارة التي تنطلق من عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي عقيدة علماء المملكة العربية السعودية في التعامل مع الحاكم وهو: "لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على تقرير هذه العلوم.. ولسنا بحاجة إلى الجدل المنهي عنه شرعاً، فإن قبل الإمام رأينا فالحمد لله، وإن خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها. (الجاسر: ١٤٢٧هـ،ج، ص٥٩٦)[4]".

وللتأكيد على أن الرفض لم يكن لذات التعليم فقد كان من أبرز من عُرفَ بالممانعة أو الرفض في بريدة الشيخ عبد الله بن سليمان بن حميد[5] ومع تلك الشهرة في الرفض من قبل الشيخ المذكور فإنه لم يكن معارضاً لمبدأ تعليم البنات حيث يقول السدحان عنه شخصياً: "كان يؤكد على ضرورة أن يكون على المنهج الذي يقره الدين، ويُحذِّر من أن يكون القصد من تعليم الفتاة مجاراة الأمم المنحلة عن الدين. كما ينص في أحد مقالاته التي نشرها على أنه لا مانع من توسيع تعليم المرأة على المنهج الذي يقره الدين وتعاليمه، مع التمسك بالحجاب، وبالأخلاق الفاضلة[6]".

أسباب الرفض والقبول:

صَاحَبَ فكرة تأسيس تعليم البنات بالسعودية دعوات التحرر في بعض دول العالم العربي، ومن أشهرها حركة قاسم أمين ودعوته لتحرير المرأة فكان عنصر تخوف عند المجتمعات السعودية المحافظة.

(١) انظر السابق ص١٢٣، ١٢٤.
(٢) انظر السابق ص١٨٨، ١٨٩.
(٣) انظر السابق ص ١٨٨.
(٤) انظر السابق ص١٢٥، ١٢٦.
(٥) يلحظ أنه من الدعاة المشهورين بالقصيم وكان متحفظاً بقوة على أهمية الوسائل التعليمية المحافظة، وقد خلط أحد الكتّاب بينه وبين سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد الذي تولى القضاء في بريدة، حيث اعتبر الكاتب الأول هو الثاني، أنظر السدحان مقاومة التغيير ص ١١٣.
(٦) انظر: الدكتور عبدالله بن ناصر السدحان مقاومة التغيير في المجتمع السعودي ص١١١.

يقول السدحان عن أثر دعوات تحرير المرأة المصاحب لتعليمها في معظم الدول العربية على قوة المانعة والرفض في السعودية: "فلقد كانت دعوة (قاسم أمين) المشتهر بالمطالبة بتحرير المرأة ترتكز في خطابها التحرري على (تعليم المرأة)، فمن ذلك وغيره من الدعوات التحررية جعل مناطق أخرى من الوطن العربي تمانع من تعليم المرأة خوفاً من وصول المرأة لديهم إلى ما وصلت إليه أختها هناك[١]".

ومن الأسباب التي قد تكون أخَّرت قبول هذا التعليم عند فئة قليلة من المجتمع ما ذكره السدحان بقوله: "كون الطلائع الأولى من المعلمات والمشرفات على المدارس كانت من البلاد التي ظهرت فيها دعوات تحرير المرأة وتفلتها من قيود الإسلام بدءاً من الحجاب وانتهاءً بإلغاء بعض أحكام الشرع في الميراث وأحكام الزواج وغيرها، وتتصادم مع المجتمعات المسلمة وعقائدها وثقافاتها الشرعية[٢]".

"فقد كانوا يخشون أن يُقَرَّ تعليمُ البنات لدينا على الحال التي كانت عليها في الدول العربية الأخرى؛ خاصة مصر التي كانت أوائل المدرسات لدينا قادمات منها. فلهذا خشي المعارضون أن يصبح التعليم بعيداً عن الدين والفضيلة[٣]".

وعن دور الاستعمار في تشويه تعليم المرأة يرى السدحان: "أن الاستعمار في ليبيا قام بنشر أوهام وأفكار خاطئة عن تعليم البنات لكي يمتنع الآباء عن تعليم بناتهم، وقد تحقق لهم ذلك بالفعل"، "وإن الشعب الجزائري وقف موقفاً حذراً من المدارس التي قامت بإنشائها فرنسا لأنها تتعارض مع مقومات الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وبالتالي لم يكن ثمة إقبال على هذه المدارس، كذلك وجود التعليم المختلط بين الجنسين، حيث ظهر مثل هذا النظام على المستوى الابتدائي في بعض الدول العربية، وكذلك في بعض الدول الإسلامية، وهذا النظام أوجد إحجاماً من قبل الكثير من الآباء عن دفع بناتهم للتعليم لما فيه من المحاذير الشرعية كما لا يخفى[٤]".

ومن الأسباب الرئيسة المهمة طبيعة علاقة الشعب السعودي بعلمائه ودعاته، فمواقف العلماء وفتاواهم هي مؤشر القبول أو الرفض، كما أن المجتمع السعودي المحافظ بعلمائه ودعاته يعتقدون بوجوب تصدير التجارب والمشاريع والبرامج المنضبطة بضوابط الشرع إلى دول العالم الإسلامي، بدل أن يستوردوا تجارب تعليمية كان للمستعمر الأجنبي جهد كبير في تأسيسها، كما أن المجتمع السعودي يعتز بخصوصية هويته العقدية والتاريخية والجغرافية التي جعلت من أرضه مركزاً مقدساً للعالم الإسلامي وقبلةً لشعوبه.

وكما يذكر [أبوزيد١٤٢هـ، ص٧٦] عن المجتمع السعودي بأن بلدهم "هي معقل الإسلام والمسلمين، وعاصمته الخالدة، وقلب العالم الإسلامي كمركز القلب في الجسم الإنساني، ورأس مال المسلمين والخط الأخير في الدفاع عن الوجود الإسلامي.. فالرسالة الإسلامية مهما كانت عالمية، فلا بدَّ لها من مركز يُعدُّ مقياساً وميزاناً لعمليتها وواقعيتها، وأسوة وقدوة لجميع المدن والقرى والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة وتحتضن هذه العقيدة والدعوة"، بل قد يصل الأمر إلى أكبر من ذلك وهو الرغبة في بقاء هذا السمت المحافظ للمجتمع السعودي، لدرجة أن هناك من يرى أن المجتمع السعودي أشد المجتمعات العربية محافظةً، وبحسب تعبير (الغذامي: ٢٠٠٤م، ص ١٠) فإنه "مجتمع أُتُفِقَ لا على محافظته فحسب، ولكن على الرغبة في أن يظل كذلك، ولو عمل استفتاء عربي لوجد إجماعاً عند كل العرب والمسلمين في أن يظل المجتمع السعودي محافظاً، وكأنما ذلك مصدر تطمين تاريخي وحضاري لا يمكن التفريط فيه[٥]".

ويضاف للأسباب السابقة الوحدة العقدية للمجتمع السعودي، يقول السدحان: "ومما يمتاز به مجتمع المملكة عقيدته الإسلامية، وهي دين جميع أفراد الشعب،" وتُعدُّ المملكة العربية السعودية من الدول النادرة في العالم التي يعتنق جميع سكانها ديناً واحداً وهو الإسلام بنسبة (١٠٠٪)، وهذه الوحدة الدينية في الواقع هي نقطة القوة الكبرى في بناء الوطن" (الفقير: ١٤١٩هـ، ص٢٤٢)، كما أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة والرسمية في المملكة[٦]".

ومن الأسباب الدافعة للرفض والقبول في آنٍ واحد قوة أثر الدين على المجتمع في مجال الثوابت والمتغيرات، فحينما يكون هذا التحديث والتغيير أو التجديد مرتبطاً بالإسلام وتشريعاته يصبح موضع قبول وترحيب كما حدث في تعليم البنات، كما أن أي محاولة للتغيير أو التحديث في الإسلام ذاته مرفوضة.

يقول السدحان: "تأثير الدين الإسلامي في جميع مناحي الحياة في المجتمع وانصباغ المجتمع بصفة التدين العام[٧]".

(١) انظر السابق ص٣٨.
(٢) انظر السابق ص١٥٠.
(٣) انظر السابق ص١١٠.
(٤) انظر السابق ص٣٧.
(٥) انظر السابق ص٥٥، ٥٦.
(٦) انظر السابق ص٥٩، ٦٠.
(٧) انظر السابق ص٦١.

"وهذا أسهم بدرجة كبيرة وملموسة في استقراره، فالدين الإسلامي ساهم في صهر كافة شرائحه في بوتقة واحدة، كما ساعد على القبول الجماعي بدرجة كبيرة بين أفراد المجتمع لمرئيات وقرارات السلطة نحو قضايا التنمية، كما أن مجريات الأمور الخاصة والعامة تتقاطع بشكل واضح مع مواعيد وأوقات وفترات أداء الواجبات الدينية من الصلوات والصيام والحج، كما أن عادات الملبس والمأكل والمشرب وكذلك مراسم الزواج والمناسبات العامة لا يمكن فهمها بعيداً عن المعاني والمقاصد الدينية[1] ".

الآثار الحسنة (الإيجابية) للرفض:

تستفيد الدول الديمقراطية بأحزابها المعارضة وتوجهاتها المتعددة من الرأي والرأي الآخر فيما لا يتعارض مع دستورها، ويكون الحوار والنقاش تحت مظلة دستور الدولة وفكرتها الأساسية الموحِّدة، وقد كان لموضوع تعليم البنات والرأي الآخر فيه في السعودية دور كبير في نضج آليات هذا التعليم ووسائله الإدارية والتعليمية المحافظة، فتطوره ونجاحه ونجاح القبول به وتميزه كافٍ لقياس الآثار الحسنة (الإيجابية) التي نتجت عن تلك الممانعة أو الرفض.

كتب الدكتور عبدالله السدحان في كتابه القيِّم كثيراً من الآثار الحسنة (الإيجابية) التي لم تكن لتتحقق لولا تلك الممانعة والرفض، وكان مما قال: "لقد نتج عن هذه الاعتراضات في المجتمع نشوء نظام تعليمي فريد على مستوى العالم وهو وجود استقلالية إدارية تامة لتعليم البنات عن تعليم البنين، إضافة إلى استقلالية تربوية وتعليمية نسبية عن تعليم البنين، وكانت هذه التجربة هي الوحيدة على مستوى العالم، أي انفصال تعليم البنين عن البنات من حيث التنظيم الإداري والتنفيذي، ومما لاشك فيه أن هذا الزخم الاعتراضي من قبل بعض قيادات المجتمع كان له أثره الواضح حينما صيغت سياسة التعليم في المملكة، التي صدرت عام (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ومن المؤكد أن البداية كانت قبل ذلك التاريخ، وهي مرحلة متأثرة فكرياً بالآراء الشرعية والفكرية التي كانت مطروحة في الساحة آنذاك.

وقد كان موضوع تعليم الفتاة أحد الأسس العامة التي تقوم عليها وثيقة سياسة التعليم في المملكة، وهي المادة رقم (٩) ونصها: "تقرير حق الفتاة في التعليم بما يلائم فطرتها ويُعدُّها لمهمتها في الحياة، على أن يتم هذا بحشمة ووقار وفي ضوء الشريعة الإسلامية، فإن النساء شقائق الرجال" (وزارة المعارف: ١٤١٦هـ، ص٦). كما تضمنت الوثيقة فصلاً خاصاً عن تعليم البنات احتوى على أربع مواد خاصة بتعليم الفتاة وهي المواد: ١٥٣-١٥٦)[2]".

ومن الآثار الحسنة (الإيجابية) للرفض، يقول السدحان: "كما أن تلك المعارضة أوجدت نظاماً تعليمياً يتمثل في الاستقلالية التامة لتعليم البنات عن تعليم البنين، وهذا ما أنجاه من بلية الاختلاط الذي بليت به العديد من الدول العربية والإسلامية، سواء أكان في التعليم الابتدائي، أم التعليم الجامعي، وهو أنموذج لم يوجد مثله على مستوى العالم بهذا الشكل المنظم والمقنن على مستوى أعلى جهة تشريعية في الدولة[3]".

ومن الآثار الحسنة (الإيجابية) للرفض والممانعة كذلك: "منهج خط التطمينات الذي اختطته الرئاسة لنفسها، حيث نجد أنها قامت بالتوكيد المتواصل على الطالبات والمعلمات وجميع منسوبات المدارس بالمحافظة على الملابس المحتشمة، كما قامت بتعيين حارس لكل مدرسة من الرجال كبير في السن، ولا بد أن تكون معه زوجته، لتكون وسيطة بينه وبين القطاع النسائي في داخل المدرسة. مع التأكيد القوي على عدم افتتاح أي مدرسة بنات بجوار مدرسة للبنين[4]".

ومن تلك الآثار الحسنة (الإيجابية) للرفض: "الفصل الكامل بين تعليم البنين والبنات، في الإشراف والإدارة ابتداءً، وكذلك في المباني، وأخيراً في المناهج، فلكل مناهجه الخاصة[5]".

ومن الآثار الحسنة (الإيجابية) للرفض استحداث نظام نقل الطالبات بسيارات خاصة بهن من المنازل إلى المدارس والعكس، مما أسهم في التطمين والحماية، بالوقت الذي لا يوجد فيه نقل عام للطلاب أو نقل عام لعموم الناس داخل المدن، وهذا النقل بحد ذاته كما هو من الآثار الطيبة للممانعة، فإنه يعكس نجاح التجربة التعليمية المتميزة.

ومن الآثار الحسنة (الإيجابية) بروز آثار الدعوة والتعليم على الآباء والمجتمع في تعاطيه مع هذه القضية التي انعكست في معالجة الأزمات: "ومن هنا يمكن القول: إن هذه الحوادث التي شكلت بعض المنعطفات في مسيرة المجتمع نحو التكامل والاستقرار تبرهن ما يؤكد عليه علماء الاجتماع الديني المتمثل في أن الدين يصبح أمراً أكثر أهمية ومصداقية في أوقات الضغوط والأزمات والصراعات؛ ولهذا السبب فإن جزءاً كبيراً يعتمد على التفسير الديني، وعلى من يقوم بعملية التفسير إذ

(١) انظر السابق ص٦١.

(٢) انظر السابق ص١٥٤، ١٥٥.

(٣) انظر السابق ص١٥٧.

(٤) انظر السابق ص١٨٣.

(٥) انظر السابق ص١٨٤.

يشـــكل ذلك محدداً أساســـاً في إعادة الأمور إلى مجاريها أو إلى اســـتفحال هذه الآراء أو المواقف وتحولها إلى حركة مناوئة للنظام (الخليفة: ١٤٢٨هـ: ج١، ص٤٨٤)[١]".

وأقول: إن التاريخ شـــهد ويشهد أنها تجربة تستحق الإشادة والتصدير لدول العالم الـــذي يعيش مرارة التعليم المختلط، وإن وقفة يســـيرة أمام الأرقام والإحصائيات تكشف الحقيقة وتُظهر بجلاء مؤشـــرات التجربة التاريخية للتغييـــر والتحديث بالدين حيث الأرقام عن المدارس وطالباتها ومعلماتها بمراحلها الثلاث، إضافةً إلى كليات البنات التابعة للرئاســـة في ذلك الوقت، قبل دمج الرئاسة العامة لتعليم البنات، ودمج الكليات في الجامعات.

المنهج السلفي والتغيير:

في عرض هذا الموضوع يتأكد لكل ذي بصيرة دور العقيدة وعلمائها في التغيير والتجديد.

الباحث الســـدحان في كتابه المعنـــي بمقاومة التغيير في المجتمع الســـعودي، أشـــاد بدور العلماء في التغيير من خلال عمليـــة تعليم البنات فقـــال: "إن الإنصاف التاريخي يســـتلزم القول: إن ســـماحة المفتي العام ومعـــه عدد من العلماء لم يكن من المتحفظين على المبدأ بقدر ما كان على الآليات والوســـائل وجهة الإشـــراف، ويؤكد ذلك ما ورد في فتوى لسماحته حول تعليم البنات وهل له حد ومتى تكف عن الدراســـة إذا بلغت من العمر؟ ذكر إجابة عن تلك الأسئلة الآتي: "ليس للدراسة حد في ابتدائها ولا في انتهائها، فما دامت الفتاة تستفيد من دراستها علماً نافعاً ولا يترتب عليه أي مفســـدة فلا مانع من مواصلتها الدراســـة، وإذا كانت الدراســـة لا تزيدها إلا نقصاً في دينها وانحلالاً في أخلاقها وتبرجـــاً وتهتكاً تعيَّن حينئذ منعها" (ابن قاسم ١٣٩٩هـ، ج١٣، ص٢٢٢)[٢]".

ومما ســـبق يتضح كيف تجاوزت الحكومة والمجتمع الموافق والمعارض منهم عملية تعليم البنات بضوابط الشريعة، على الرغم من أن هذا التعليم متغير كبير على المجتمع السعودي، كما يتضح حجم بعض المغالطـــات الإعلامية التي تتحدث عن هذا الحدث، وتوظِّـــف الحدث والمعارضة له توظيفاً خاطئاً، يقول الســـدحان: "ومن هنا يســـتغرب المتابع لبعض الطروحات في وقتنا المعاصر، والتي تحمل في طياتها تلميحاً أو تصريحاً تشـــنيعات من بعض الكتـــاب في الصحافـــة أو في غيرها من وســـائل الإعلام على المؤسسة الدينية السعودية أو على علمائها ورموزها، وأنهم كانوا ســـبباً في تأخر المجتمع بمواقفهم الرافضة لتطويره، وكثيراً ما يستشـــهدون بموضوع تعليم الفتاة، وأن المؤسسة الدينية والعلماء كانـــوا هم المعترضـــين عليه، نعم كان هنـــاك معارضة ولكن من الظلم تحميل المؤسسة الدينية، أو كبار العلماء هذه المعارضة، بل كانت من بعض طلبة العلم، ومن أفراد، ومن بعض عوام المجتمع، وكثيراً ما تتخذ هذه المعلومـــة التاريخية المغلوطة متكأً للمطالبة بمشـــروعات فيها مخالفات شـــرعية واضحة، ومطالبة الدولة بإقرارها وعـــدم الالتفات إلى الاعتراضات التي يطرحها العلماء مـــن منطلق شـــرعي بحت. جاعلين من قضية تعليـــم الفتاة وما صاحبها من اعتراضات دليلاً على عدم صحة هذه الاعتراضات الجديدة متناسين أن (الدين الإسلامي في المجتمع السعودي كان ولا يزال عاملاً مهماً ليس في فهم مظاهر الاســـتقرار والتوازن والتنمية والتكامل فحســـب، بـــل في اســـتيعاب مظاهر التغير والصراع، ومن ذلك يتبين مدى أهمية الدين الإســـلامي في كونه بناءً وإطاراً مرجعياً وإيديولوجياً ليس فقط في مســـألة تأسيس المجتمع وتماســـكه، بـــل أيضاً في إضفاء الشـــرعية على الكثير من الأمور التنظيميـــة والاجتماعية والتنموية المختلفة في الواقع الاجتماعي (الخليفة: ١٤٢٨هـ: ج١، ص٤٨٧))[٣]".

فالتغيير بالدين وبضوابطه الشرعية وتعاليمه الشاملة عامل قوة واستجابة في التغيير الاجتماعي والتطوير الثقافي والإصلاح الإداري والسياســـي، لكن التغيير أو التحديـــث أو التجديد في الدين هـــو الأمر المرفوض عند عموم المجتمع الســـعودي الذي تحكمه أيديولوجيا مرتبطة بعقيدةٍ ربانيةٍ سماويةٍ.

وقد عدَّ كثيـــرٌ من المؤرخين[٤] (الحركـــةَ الوهابية) – كما يســـمونها– من أقدر الحركات الإســـلامية في عملية التغيير السياسي والاجتماعي، فالعقيدة السلفية تمتلك مقومات إقامة دولة بنظم وتشريعات كاملة شاملة، كما تمتلك عوامل الإصلاح والتغيير، وهذا ما حـــدث بالفعل في جزيرة العرب التي عانت في بعض فتراتها التاريخية من تفكك وانقسام، وتحولت بفضل اللـــه ثم بفضل تلك العقيدة إلى وحدة فكرية سياســـية فريدة من نوعها، قابلة للتجديد والإصلاح والتغيير، لكن بإيديولوجية المجتمع –دون سواه–، مستفيدة من كل النظم الإدارية الحديثة التي لا تتعارض مع تشـــريعات وقيم المجتمع الســـعودي. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [**الرعد** : ١١].

(١) أنظر السابق ص١٨٧.

(٢) أنظر السابق ص١٨٩.

(٣) انظر السابق ص١٩١، ١٩٢.

(٤) انظر جلال كشك (السعوديون والحل الإسلامي) ص ٥، ٦. وانظر الباحث الفرنسي محمد مُلين (علماء الإسلام) ص ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٩، ٢٣٠.

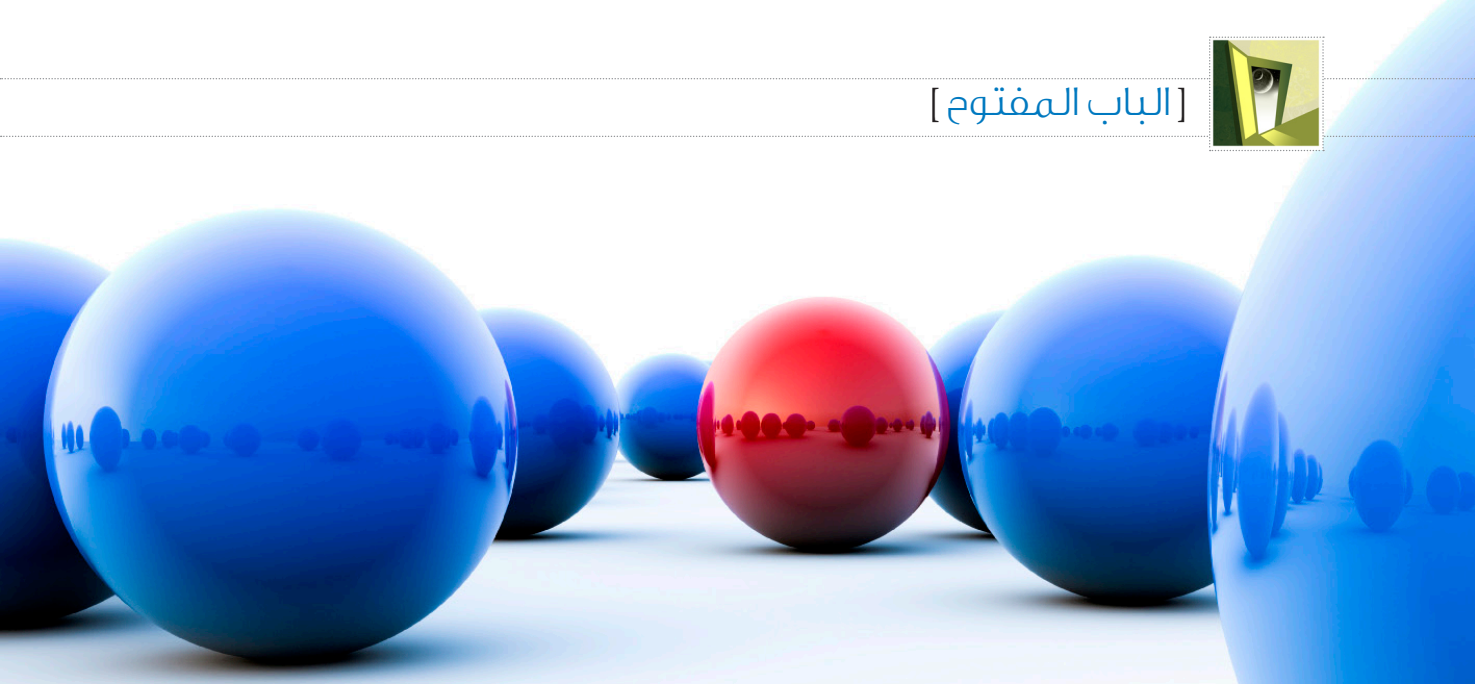

نظرات تربوية في الخلاف

همام بن عبدالرحمن الحارثي
hah989@gmail.com

إن الله – جلَّ وعلا – لما خلق آدم عليه السلام، جعل ذريته مختلفة في ألوانها وأشكالها وأجناسها، وذلك لحكم كثيرة، لعل من أظهرها: أن هذا التنوع يلبي حاجات أكثر مما لو كان هناك لون واحد للحياة.

و لهذا اقتضت سنة الله – سبحانه وتعالى – أن يكون هذا الخلاف موجوداً بين الناس: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ – ١١٩].

و هذا الخلاف الذي لابدَّ أن يكون موجوداً في حياة الناس لابدَّ أن يكون لنا معه وقفات يستفيد منها المسلم في حياته مما يجعله يعيش متناغماً في هذه البسيطة:

الوقفة الأولى: أنه ليس كل خلاف يجب أن نسلِّم به، وأن نقبله وألا نردَّ عليه أو نعارضه، بل ما كان خلاف في الحقيقة هو الذي يقبل من صاحبه، ويرحب بقائله، ولهذا قيل:

فليس كل خلاف جاء معتبراً
إلا خلاف له حظ من النظر

لهذا لا بدَّ لنا ألَّا نأخذ هذا الخلاف بظاهره، وهذا يربي فينا أن نعلم ما وراء الخلاف، أو ما الدوافع من هذا الخلاف؟، دون تجسس أو تتبع أو تقول على شخص ما لم يقل.

لأن المرء قد يعتقد في موقف ما هو خلاف الواقع، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ: لما كان في الحديبية والتأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا

أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال. «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله. ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال:؟ «بلى»؛ قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني)[1].

عمر - رضي الله عنه - لم يكن يعلم ما يعلم الرسول ولا أبو بكر، لهذا خالفهم في هذه الشروط التي كان يظنها جائرة، لكن نظرة الرسول ﷺ وثقته بربه، جعلت من هذه الشروط فتحاً ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

الوقفة الثانية: الخلاف يربي في المسلم أن في كل إنسان جانب خطأ وجانب صواب، فما كان صواباً قُبل منه، وما كان خطأً لا يقبل منه، مع الأخذ بحق النصح للأخ، وتبيين الحق والصواب له، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر. وقد قال الله - عزَّ وجلَّ - لنبيه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقوله - جلَّ شأنه -: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

الوقفة الثالثة: الخلاف يربي فينا ألَّا نجبر أحداً على اتباع ما عندنا إن كان الخلاف له مساحة من الأخذ والعطاء، أما ما كان من المسلّمات ممَّا جاء في الوحي والسنة وإجماع علماء المسلمين فهذا لا يناقش فيه، لأنه لا يقبل إلا قولاً واحداً، كأمور العقيدة وما اتفق عليه علماء المسلمين من الأمور الفقهية: كوجوب الصلاة، والصيام وغيرها.

ومن ذلك حديث عبدالرحمن بن يزيد: «صلَّى عثمان بمنى أربعاً، فقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - صليت مع النبي ﷺ ركعتين ومع أبي بكر ركعتين ومع عمر ركعتين، ثم تفرقت بكم الطرق فلوددت أن لي من أربع ركعات ركعتين متقبلتين قال الأعمش: فحدثني معاوية بن قرة عن أشياخه أن عبد الله بن مسعود صلى أربعاً. قال: فقيل له: عبتَ على عثمان ثم صليتَ أربعاً قال: الخلاف شر[2].

(١) صحيح مسلم ١٧٨٥
(٢) سنن أبي داود ١٩٦٠

الوقفة الرابعة: الخلاف يربي المسلم على تعدد الخيارات التي يراها، فيعلم أن هذا الدين جاء ليكون ديناً خالداً صالحاً لكل زمان ومكان؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فما كان عندنا قد لا يصلح لغيرنا، وما كان لغيرنا لا يصلح لنا، وكله من صلب ديننا العظيم، مع التنبيه أن هذه الخيارات ليست للانتقاء، ولا بحسب الهوى، بل هي مذاهب وأقوال للعلماء - رحمهم الله - توصلوا إليها باجتهادهم ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾ [الجاثية: ٢٣].

والراجح في حال تعدد الأقوال من كلام علماء الأصول: أن المؤمن يرجع إلى من يثق بدينه وعلمه من أهل العلم المعتبرين إذا كان مقلداً[3].

ولعل من أظهر الأمور التي اختلف فيها الصحابة ولم يثرب عليهم الرسول حادثة بني قريظة، فقد جاء عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما -: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: (لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة). فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، ثم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم[4].

الوقفة الخامسة: الخلاف يربي في المسلم احترام الطرف الآخر، وعدم إقصائه، وتبين الحق له لعل الله - عزَّ وجلَّ - ينقذه على يديك، فقد روي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: اجتمعت قريش يوماً، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرَّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يردُّ عليه. فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا: أنت يا أبا الوليد، فأتاه عتبة، فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك. إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرَّقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب حتى لقد

(٣) للاستزادة: راجع مبحث التقليد في كتب أصول الفقه.
(٤) رواه البخاري ٤١١٩

طار فيهم أن في قريش ســـاحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلـــى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالســـيوف حتى نتفانى. أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريـــش رجلاً، وإن كان إنما بك الباه فاختر أي نســـاء قريش شـــئت فلنزوجك عشراً، فقال رســـول الله ﷺ: فرغت. قال: نعم فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَـابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُـهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّـا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُـونَ﴾ إلى أن بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُـوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَـةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال عتبة: حســـبك. أما عندك غير هذا؟ قـــال: لا. فرجع إلى قريش، فقالوا: مـــا وراءك؟ قال: ما تركت شـــيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمتـــه، قالوا فهل أجابك؟ فقـــال: نعم، ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً ممَّا قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثـــل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال. قال: لا والله ما فهمت شـــيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة[1].

الوقفة السادسة: الخلاف يربي عند المسلم الحرص على المنهج الحق، سواء أكان في التلقي أم الاستدلال أم الاستباط، فهـــو حين يرى الناس قد اختلفوا في هذه الحياة، وربما ضلَّ بعضهم عن الطريق المســـتقيم. هذا كله يجعل المســـلم أشدَّ يقيناً، وأعظم إيماناً. إن أعظم ما يحتاج إليه هو المنهج الحق.

والمنهج الحق الذي لا ريب فيه: هو ما كان عليه الرســـول ﷺ والصحابة - رضوان الله عليهم - والسلف الصالح.

وروي كثير من الآثار عن الصحابة والسلف في حرصهم على السنة، وبعدهم عن كل ما يشوبها، فمن ذلك:

قال الزهري - رحمه الله -: الاعتصام بالسنة نجاة[2].

وقد قال الأوزاعي - رحمه الله -: عليك بآثار من سلف وإن رفضـــك الناس، وإياك وآراءَ الرجـــال! وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم[3].

(١) البداية والنهاية ٣/ ٦٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٣٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٢٠.

الوقفة السابعة: الخلاف يربي في المسلم اتباع الجماعة، وهضـــم حق النفس، فقد يخالفك كثير من الناس؛ لأن الرأي السائد خلاف ما تبين لك من الحق، فتجبر نفسك على اتباع الجماعة، وترك ما كان لك من أجل هدف أعلى وغاية أسمى وهي: اجتماع الكلمة وعدم الفرقة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولعـــل مـــن أظهر الأمثلة ما حدث بـــين معاوية بن أبي ســـفيان - رضي الله عنهما - وبين الحسن بن علي - رضي الله عنهما -: فقد روى عمر بن دينار، أن معاوية كان يعلم أن الحســـن أكره الناس للفتنة، فلما مات علي بعث إلى الحسن، يدعوه إلى إصلاح ما بينهما ســـراً، وأعطاه معاوية عهداً إن حدث به حدث والحســـن حي ليسمينه، وليجعلنَّ الأمر إليه، فلما توثق منه الحسن قال ابن جعفر: والله إني لجالس عند الحسن، إذ أخذت لأقوم، فجذب بثوبي، وقال: يا هناه اجلس! فجلســـت، فقال: إني قد رأيت رأياً، وإنـــي أحب أن تتابعني عليـــه! قلت: ما هـــو؟ قال: قد رأيت أن أعمـــد إلى المدينة، فأنزلها، وأخلي بين معاوية وهذا الحديث، فقد طالت الفتنة، وسفكت الدماء، وقطعت الأرحام والسبل، وعطلت الفروج.

قـــال ابن جعفر: جزاك الله خيراً عـــن أمة محمد، فأنا معك.

فقال: ادعُ لي الحســـين! فأتاه، فقال: أي أخي! قد رأيت كيت وكيت فقال: أعيذك بالله أن تكذب علياً، وتصدق معاوية.

فقال الحسن: والله ما أردت أمراً قط إلا خالفتني، والله لقـــد هممت أن أقذفك في بيت، فأطينه عليك، حتى أقضي أمري.

فلما رأى الحسين غضبه، قال: أنت أكبر ولد علي، وأنت خليفته، وأمرنا لأمرك تبع[4].

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشـــهادة فاطر الســـموات والأرض أنت تحكم بين عبـــادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنـــا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم...

(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٤٥.

النجاة من كمين الشبهات

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net
@dralabdullatif

«الحمد لله الذي جعل أقوال الملحدين يظهر فسادها لكلِّ ذي عقل، كما علم إلحادهم كلَّ ذي دين»(١):

فالكذبات الصلعاء، والإفك المكشوف لا يستحق أن يلتفت إليها، فالخوض في إبطالها تضييع للزمان، وإتعاب للحيوان(٢)، ثم إن الشغب على العلوم الضروريات يوقع في السفسطات، وإنكار الحقائق الجليات(٣)، وإنما الكلام بشأن الشبهات التي يشتبه فيها الحق بالباطل، إذ لا يشتبه على الناس الباطل المحض، بل لا بُدَّ أن يشاب بشيء من الحق(٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وكل ذي مقالة [من مقالات الملل والنحل] فلا بُد أن تكون في مقالته شبهة من الحق، ولولا ذلك لما راجت..»(٥).

ويقول الفيومي: «الشبهة في العقيدة: المأخذ الملبِّس، سميت شبهة لأنه تشبه الحق(٦).

* والتعلق بالله - تعالى -، والانطراح بين يديه، والافتقار إلى الله في جميع الأحول، يحفظ العبد من بريق الشبهات وتزويقها.. فكم من عبد مُخْبِت قد سدّد الله شأنه، وأنار بصيرته، وإن كان متوسط الذكاء، أو دون ذلك، وكم من ذكي رقيق الديانة قد حُرِم برد اليقين، فهو في لجج الشبهات ليس بخارج منها..

يقول ابن تيمية - في هذا المقام -: «وقد يكون الرجل من أذكياء الناس، وأحدِّهم نظراً، ويعميه الله عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس، وأضعفهم نظراً، ويهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتكل على نظره واستدلاله، أو عقله ومعرفته، خُذِل، ولهذا النبي ﷺ في الأحاديث الصحيحة كثيراً ما يدعو ربَّه: «يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلبي على دينك..»(٧).

قال الله - تعالى -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٣].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾، أي تميل إلى ذلك القول المزخرف المزين الباطل؛ ليكون سبباً للضلال، فتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن المؤمنين يعرفون زخارف الشيطان ووسوسته، فيتباعدون منه ويجتنبونه..»(٨).

والحاصل أن التعلق بالله والدار الآخرة يحفظ العبد من شراك الشبهات وزخرفها، «والاستقراء يدلُّ على أنه إذا خلص الإيمان إلى القلب لم يرجع عنه..»(٩).

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٠/ ٤٥.
(٢) انظر: مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ٥/ ٩٣.
(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ٣/ ٣١١.
(٤) انظر التدمرية لابن تيمية ص ١٠٦، ومجموع الفتاوى ٨/ ٣٧.
(٥) جامع الرسائل ٢/ ٤٠١.
(٦) المصباح المنير ١/ ٣٥٨.
(٧) درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤.
(٨) العذاب النمير ٢/ ٥٨٤ = باختصار يسير.
(٩) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص ٥٦٢.

■ ولا بُـد من العبادة والإيمان، من العلم والرسـوخ في الشرع، والتفقه في دين الله، فهما أمران متلازمان: العلم بالله وخشـيته، والعلم بأحكام الله وشـرائعه، وبهما يتحقق الثبات على دين الله، والسلامة من الشـبهات.. كما حرره ابن تيمية بقوله: «فإن الإنسان قد يؤتى إيماناً مع نقص علمه، فمثل هذا الإيمـان قد يرفع من صدره، وأما مـن أوتي العلم مع الإيمان فهذا لا يرفع من صدره، ومثل هذا لا يرتد عن الإسـلام قط، بخلاف مجرد القرآن أو مجـرد الإيمان، فإن هذا قد يرتفع، فهذا هو الواقع»[1].

فعلى المحاضن التربوية أن ترسِّخ العلم الشرعي في الأجيال، وتحقق البُلغة من التفقه في دين الله، كما أن عليها أن تسـعى إلى ترويض نفوس الناشـئة بالتعبّد المشروع والسمت النبوي، وإعداد برامـج علمية وعملية في تزكيـة النفوس.. فالقلوب الخاوية من روح الإيمـان، ونور البصيرة، والعقول الفارغة من علوم الشريعة هي المرتع الفسيح للشهوات والشبهات.

■ علينا أن نشرع ابتداءً في تقرير المسائل الدينية بدلائلها النقلية والعقلية والفطرية، ويكون الردُّ على الشبهات تبعاً لتلك التقريرات، وهذا ما ألمح إليه ابن تيمية بقوله: «ونحن نذكر ما يُستفاد من كلام النبي ﷺ مع ما يستفاد من كلام الله، فَيصلُ المؤمن إلى ذلك [مسـائل الإيمان والإسلام] من نفس كلام الله ورسـوله ﷺ، فإن هذا هو المقصود، فلا نذكر اختلاف الناس ابتـداءً، بل نذكر من ذلك في ضمن بيان ما يسـتفاد من كلام الله ورسوله..»[2].

وقال - في موطـن آخر -: «وإنما يذكـر [القرآنُ] الحقَ والأدلةَ الموصلةَ إليه لذوي الفطر السـليمة، ثم إذا اتفق معاند أو جاهل كان من يخاطبه من المسـلمين مخاطباً له بحسب ما تقتضيه المصلحة»[3].

■ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا بُد من توصيف الواقع الحاضر بعلم وعدل، وما يكتنفه من الشـبهات، ومدى ظهورهـا، بلا تهويل ولا تهوين.. ثم ينظر في الشـبهات التي هي أكثر ظهوراً وتأثيراً، وأما تتبع جميع الشـبهات، وملاحقة الاعتراضات فليس مشروعاً ولا مقدوراً..

(١) مجموعة تفسير ابن تيمية ص ١٤٩.
(٢) كتاب الإيمان ص ١.
(٣) تعارض العقل والنقل ٨/٨٨.

يبيّن ابن تيمية ذلك بقوله: «ومعلوم أن الباطل ليس له حدّ محدود، فلا يجب أن يخطر ببال أهل العقل والدين كل باطل، وأن يردّوه، فإن هذا لا نهاية له..»[4].

■ ثم إن لزوم الشـرع، والاعتصام بالسنة يحتاج إلى رؤية وتؤدة، بخلاف الشـبهات فإنّ لها وثْبةٌ وخِفَّة، فلا يسـتخفنَّك الذين لا يوقنون.

وهذا ما أشـار إليه ابن عقيل الحنبلي قائـلاً: «الفقهاء والمحدِّثون يقصِّرون عن إزالة الشبه؛ لأنهم عن النقل يتكلمون، وللخـوف علـى قلوب العوام من الشـكوك يقصـرون القول ويقلِّلون، فهم حال الأجوبة عنها ينظرون في العاقبة، والمبتدعة يتهجمون، فعلومهم فرح ساعة، ليس لعلومهم ثبات..»[5].

فما أكثرَ ركامَ الشـبهات، وزخـمَ الاعتراضات! ومع ذاك المكـر الكُبَّار فالدين منصور، وحججـه ظاهرة، والإقبال عليه يفوق الوصف، فالعاقبة للمتقين.

■ ينبغي أن تراعى أحـوال النفس وكمائنها في الجواب عن الشبهات، فهناك نفوس تعزف عن الأجوبة الظاهرة الجلية، وتؤثر الأجوبة الدقيقة الخفية، لما فيها من حبّ التفرّد والتمايز على سائر النفوس..

وهذا ما اكتشـفه ابن تيمية قائلاً: «الأدلة التي فيها دقة وخفاء، ينتفع بها من تعوّدت نفسـه الفكرة في الأمور الدقيقة، أحبّ إليه من الطرق الواضحة التي يشركه فيها الجمهور.. لما في النفوس من حبّ الرياسة»[6].

وفي المقابل فإن لدد النقاش مع صاحب الشبهات، قد يدفعه إلى العناد ومزيد من الإصرار.. فأهواء النفوس لا حدّ لها.

وهذا ما أشـار إليه أبو حامد الغزالـي.. لما تحدّث عن آفـات علم الكلام وما فيه من خصومـة وجدال.. فقال: «فيه مضرّة من إثارة الشـبهات، وتأكيد اعتقـاد المبتدعة، وتثبيته فـي صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشـتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الإصرار بواسطة التعصب الذي يثور عن الجدل»[7].

فاللهم إنَّا نسألك الثبات على الدين، وبرد اليقين، اللهم ارزقنا اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه.

(٤) تعارض العقل والنقل ٧/٧٦، وانظر: الدرء ٣/١٦٢، ٥/٣٢٠.
(٥) تعارض العقل والنقل ٨/٦٤.
(٦) تعارض العقل والنقل ٨/٨٦ = باختصار يسير.
(٧) الإحياء ١/١٦٧.

مجلة البيان

صدر حديثاً

جديد ..

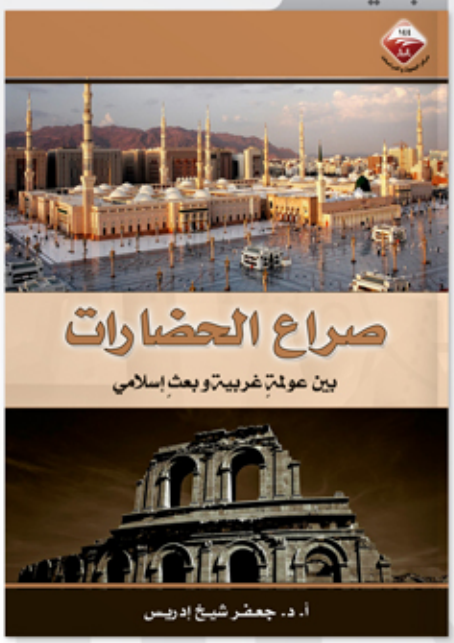

جديد ..

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر رجب ١٤٣٣هـ

على المتجر

www.albayan.co.uk